جامعة قطر

كليّة الآداب والعلوم

النَّقْدُ البِيئيُّ ونظريةُ الأدَبِ؛

دِراسَةٌ في نَماذجَ رِوائِيّة عَرَبيَّة مُعاصِرَة

إعداد

عبيرجودت حافظ عبدالحافظ

قُدّمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلّبات

كليّة الآداب والعلوم

للحصول على درجة الماجستيرفي

اللغة العربية وآدابها

يناير 1444/2023

©خريف 2023 عبيرجودت عبد الحافظ. جميع الحقوق محفوظة.

لجنة المناقشة

استُعرضت الرسالة المقدّمة من الطالب/ة عبير جودت حافظ عبد الحافظ

بتاريخ: 27/ديسمبر/ 2022، وَوُفِقَ عليها كما هو آتٍ:

نحن أعضاء اللجنة المذكورة أدناه، وافقنا على قبول رسالة الطالبة المذكورة اسمها أعلاه. وحسب معلومات اللجنة، فإن هذه الرسالة تتوافق مع متطلبات جامعة قطر، ونحن نوافق على أن تكون جزءًا من امتحان الطالب.

د. محمد مصطفى سليم

(مشرفًا)

أ.د. مراد عبد الرحمن مبروك

(مناقشًا)

د. لولوة العبد الله

(مناقشًا)

تمّت الموافقة:

الدكتور أحمد الزتحري، عميد كليّة الآداب والعلوم

المُلخَّص

عبير جودت عبد الحافظ، ماجستير في اللغة العربية وآدابها:

يناير 2023

النَّقْدُ البِيئيُّ ونظريةُ الأدَبِ؛ دِراسَةٌ في نَماذج رِوائِيّة عَرَبيَّة مُعاصِرَة.

المشرف على الرسالة: د. محمد مصطفى سليم.

تستهدف هذه الدراسة الوقوف على النظرية البيئة ونشأتها الفلسفية والفكرية، وتقاطعاتها مع النظرية الأدبية، وكذلك وضعية حضورها في الأدب العربي؛ لما يتمتع به من موروث غني بمكونات بيئية منذ نشأة الشعر الجاهلي، أن تُكوّن موطن ممارسة نقدية منهجية تتبنى (النقد البيئي) في تحليل النصوص الأدبية عامة والسردية خاصة.

تقارب الدراسة ما تحمله بعض هذه النصوص من أيديولوجيات عميقة وفلسفات متجذرة حول الفكر البيئي، وحول الأخلاقيات التي تبيّن فهم العلاقات بين البشر فيما بينهم، وبين البشر وغير البشر، وتكون هذه المقاربة محاولةً لحل الأزمة البيئية والأخلاقية والقيمية، التي تشمل النظرة العرقية والطبقية والعنصرية والتسلط البيئي، تلك النظرة القائمة على ثقافة الاستهلاك، وفكر الإحلال التكنولوجي، فجاءت النماذج التطبيقية العربية المختارة لتحليل الخطاب البيئي دالةً على تقاطع مهم بين النظرية الأدبية من جهة والنقد البيئي من جهة أخرى، وهو ما عبّر عنه أفق الدرس الثقافي والمضمر البيئي ممثلاً في رواية (فئران أمي حصة- 2005) لسعود السنعوسي، وجسّده منظور ما بعد الاستعمار والرد بالكتابة في رواية (رأيت رام الله- 2000) لمريد البرغوثي، وأكّدته النسوية البيئية في رواية (خشخاش- 1978) لسميحة خريس. وكل ذلك وفق منهج يمزج ما بين نقد النقد والنقد البيئي.

الكلمات المفتاحية: النقد البيئي، النظرية الأدبية، النقد الثقافي، ما بعد الاستعمار، النسوية البيئية.

ABSTRACT

Abeer Jawdat, Master in Arabic Language & Literature.

January 2023

Title**: Environmental Criticism and Literary Theory; A Study in Contemporary Arabic Narrative Models**

Advisor: Dr. Mohammad Mostafa Saleem

This study aims to identify the theory of the environment and its philosophical and intellectual origin, its intersections with literary theory, and the possibility of adopting theory in Arabic literature, because of its literary heritage rich in environmental components. which have been associated with it since the inception of pre-Islamic poetry, according to a new critical path (environmental criticism) in an attempt to understand literary texts with an environmental critical view.

The study brings together the inherent ideologies and philosophies rooted in environmental thought and ethics in some of those texts, which show the understanding of the relationships between humans among themselves, and between humans and non-humans. This view is an endeavor to solve an environmental, moral and ethical crisis, which incorporates a perspective on ethnicity, class, race and environmental hegemony. The latter is primarily based on the culture of consumption, and technological substitution, hence the selected Arab applied models for environmental discourse analysis indicate an important intersection between literary theory on the one hand, and environmental criticism on the other. This was best expressed by the cultural and implicit lesson in Saoud Al-Sanousi's Fi'rat Omi Hessa (Mother Hessa's Mice, 2005), and embodied by the post-colonial perspective and writing back in Mourid Barghouti 's Ra'ayt Ramallah (I Saw Ramallah, 2000), and confirmed by environmental feminism in Samiha Khreis' Khashkhash, 1978). This is all done according to a method that mixes criticism of criticism and environmental criticism.

Keywords: environmental criticism, environmental literary criticism, cultural criticism, postcolonialism, feminist criticism.

شكر وتقدير

الحمد لله الذي علّمني ما لم أعلم، ورزقني الوقت والهمة لنيل المعرفة، بفضله كان التيسير، وبكرمه نلتُ الثبات في الأمر، وبلطفه قَويت العزيمة على الرشد، فالحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه. والصلاة والسلام على أفضل الخلق نبينا محمد ﷺ، مُعلم الناس الخير، أمثولة الأخلاق، وصاحب اللسان الصادق.

وإن واجبي في هذا المقام شكر النعم وأصحاب الفضل، ولكل من علّمني حرفًا، وبذل وقته وجهده في الإرشاد والتوجيه والتعليم، و أبدأ بشكري وتقديري لجامعة قطر التي منحتني فرصة متابعة الدراسات العليا بعد انقطاعي الطويل عن الدراسة، وتوفير كافة الاحتياجات اللازمة لتحقيق متطلبات هذه الدراسة رغم العراقيل والصعوبات التي واجهتنا خلال جائحة كورونا.

كما أتقدّم بجزيل الشكر والتقدير لكل الأشخاص الذين دعموني خلال فترة دراستي، بدءًا من مشرف الرسالة الدكتور الفاضل محمد مصطفى سليم، ومنسق الدراسات العليا الدكتور الفاضل عمرو مدكور، وكذلك لجنة المناقشة التي تفضّلت بقبول مناقشة الرسالة لتقييمها وتقويمها، وهما: الأستاذ الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك، والدكتورة لولوة العبدالله، وإلى أعضاء الهيئة التدريسية، وزميلاتي طالبات الدراسات العليا.

وأخيرًا أتقدم بجزيل الشكر لأسرتي الممتدة، لكل ما قدّمته لي من دعم مادي ومعنوي فترة دراستي، وأخص بالشكر والداي وأولادي، وزوجي القبطان حسام أبو شيخة، "فلا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ".

الإهداء

إلى كل من يجتهد ليصل إلى المعرفة..

إلى كل باحث عن الحقيقة

"كلُّ شيءٍ يبدأ بالوعي، ولا قيمة لشيءٍ من دونه"

(ألبيركامو)

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}

سورة الرعد الآية 17

المقدمـّة

مثَّل طرح معادلة التوازن البيئيّ، بوصفها أهم الموضوعات المطروحة في العالم المعاصر، سببًا رئيسًا في وجود النّظريّة النّقديّة للبيئة؛ وذلك لأن ما طرأ على الواقع من تغيرات جذريّة كبيرة هدّدت البيئة الطبيعيّة، وأثارت الذعر حول مستقبلها؛ مما تسبّب أيضًا في إحداث حراك فكريّ عميق منذ ستينيات القرن العشرين وسبعينياته من أجل وضع حل لهذه المشكلة، وهو الأمر الذي تبلور في التسعينيّات من القرن نفسه تحت ما يعرف بالثّقافة النّقديّة البيئيّة، أو النّقد البيئيّ Ecocriticism. وكان الخوف على البيئة الطبيعيّة ومواردها مصحوبًا بالسّؤال الأخلاقيّ وتحديد القيم الأساسيّة للبيئة في علاقتها بالإنسان والثقافة، وهو ما يُظهره المكان والطبقة والجنس والعِرق وغيرها من المراكز الكُبرى التي كانت فضاءً مؤثّرًا لمصادر الإنتاج الثّقافي والتعبير الفني عامةً، والأدبي منها على وجه الخصوص.

فجاء النّقد البيئي جزءًا من منظومة الإصلاح العالمي، فهو يدرس العلاقة بين البيئة الطبيعيّة والأدب، ليس من أجل إبراز أنّ الأدب دار حول الطبيعة وأشيائها، أو أنّ البيئة عنصر أو موضوع أدبيّ، وإنما الهدف تحليل العمل الأدبي من أجل إبراز تأثير البيئة في إيجاد وعي ثقافي له دور في تغييّر النّظرة للبيئة؛ مما يعمل على تجديد النّظام الثقافيّ نفسه.

وعلى الرغم من وجود كمّ ليس بالقليل من الدراسات النّقدية الأدبيّة حول (النّقد الأدبيّ البيئيّ) في الغرب، وإقامة المؤتمرات المتخصصة سنويًّا، ثمّ مع تخصيص أول منصب أكاديميّ (أستاذ الأدب والبيئة) عام 1990[1]والحال مستمرة إنتاجًا واهتمامًا وانتشارًا -على الرغم من كل هذا، فإنّ النّقد الإيكولوجي يلقى بعض المعارضة والصعوبات في اتخاذه منهجًا للدّراسة والبحث في مجال نظريّة الأدب. والغريب أنّ النّقد البيئيّ متناول في غالبيّة الأدبيّات العربيّة التي سلّطت الضوء عليه، بترحيب وتسليم، ثمّ بتقديم ممارسات تطبيقيّة، إلى حد أنّ أحد النقاد [2] ردّه في الوجود والتحقق إلى مراحل زمنيّة أوليّة في تاريخ الأدب، لا في الممارسة النّقديّة. **وهنا تكمن إشكاليّة البحث**، إذ إنّ دراسة آليات النّقد البيئيّ وأدواته التّي تُمارس عند تحليل النّص الأدبيّ في حاجة إلى دراسة تردّ هذه الأدوات والإجراءات إلى مبادئ

---

(1) كان ذلك في جامعة نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية.

(2) راجع محمد أبو الفضل بدران: (أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية)، إصدار المؤتمر الدولي الرابع، المجلس الدولي للغة العربية، بيروت-دبي، 2015، ص 193- 203، وكذلك عدد مجلة فصول رقم 102 عن (النقد البيئي) الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد 2/ 26، شتاء 2018.

النظريّة الأدبيّة لتِبيان مدى التّقاطعات أو الاختلافات بينهما، ولعلّ هذا المجال غير مطروق بشكل كبير في دراساتنا العربيّة، بل إنّه ميدان يحتاج إلى دراسات تتثبت من مواطن الاختلافات مع النظريّة الأدبيّة، ومواطن الاتفاقات معها، على مستوى المنهجيّة؛ لذلك سيساعد البحث في سدّ النّقص في هذا المجال، إذ - في حدود ما أعرف- لا توجد دراسات أكاديميّة عربيّة في إطار نقد النّقد تناولت (النّقد البيئيّ)، فقد اتجهت غالبيّة الدراسات صوب التطبيق في أعمال أدبيّة، وهو ما سيُعرض بعضه في محور الدِّراسات السّابقة ضمن هذا التّصور.

لقد استهدفت الأطروحة توصيف واقع الدّرس النّقديّ المعنيّ بالأزمة التي يعيشها العالم حيال فهمه العلاقات بين البشر، وكذلك العلاقات بين البشر وغير البشر، فالأزمة أخلاقيّة قيميّة تستهدفها الدراسات البيئيّة، أو الدراسات الخضراء، وتتضح أكثر إذا ما تعلق الأمر بالنسويّة والطبقيّة، والعرقيّة، وغيرها من الأمور التي أبانت عن معترك أيدلوجيّ تمثل في النظريّة العرفانيّة[1]، ومعترك قيميّ أخلاقيّ في الدراسات البيئيّة؛ ولهذا فإنّ دراسة موضوع: (**النَّقْدُ البِيئيُّ ونظريةُ الأدَبِ؛ دِراسَةٌ في نَماذجِ رِوائِيّة عَرَبيَّة مُعاصِرَة**) تستهدف مُكاشفة موضوع نظريّ يستوجب جوانب تطبيقيّة في مجال العلاقة بين النّقد البيئيّ والنظريّة الأدبيّة؛ لتحقيق أهداف ذات صلة بإشكاليّة البحث، ثمّ الكشف عن الارتباط الوثيق بين العلاقات البشريّة، والمشهد الطبيعيّ، ومن هذه الأهداف ما يأتي:

- الوقوف على بعض حدود المنهج في النقد الأدبيّ البيئيّ وأدواته.
- بيان المرجعيّة النقديّة للنّقد البيئيّ في النظريّة الأدبيّة.
- تحديد الأسس النقديّة في النقد البيئيّ المتصلة بالنظريّة المعرفيّة: النّقد الثّقافيّ ونقد ما بعد الاستعمار والنّقد النِّسويّ.
- الكشف عن تأثير النّقد البيئيّ في الوعي الثّقافيّ وأنظمته من خلال نماذج روائيّة.

إذا كانت هناك أزمة أخلاقيّة ناجمة عن أخلاقيّات الحداثة وما بعد الحداثة تناولتها الدّراسات البيئيّة، فإنّ الدّراسة **تتأسس على فرضيّة وجود تقاطعات في العلاقة بين النّقد البيئيّ والنّظريّة الأدبيّة** ممثّلة في النّظريّة النِّسويّة وما بعد الحداثة، وما بعد الكولونيالية والدرس الثّقافي ... إلخ. لذا

---

(1) لعل أكثر المعتركات وضوحًا تمثلت في الكشف عن لواحق الهيمنة البشرية عامة والذكورية خاصة، على كل من المرأة والطبيعة على حد سواء، ومبدأ اللون، والعرق، والفحولة، والاضطهاد المؤسسي ... إلخ، وليس المجال لبسط القول فيه هنا.

فإنّ الدراسة **تفترض أيضًا أنّ ثمّة فجوة بين الخطاب البيئيّ والنظريّة العرفانيّة ذاتها**؛ مما قد يقود إلى ما يكشف عن تأثير البيئة في خلق وعي لتغيير النظرة إلى الإنسان باختلاف عرقه وجنسه ولونه ودينه وطائفته... إلخ؛ ضمن نظام ثقافيّ أخلاقيّ، وليس بناء على أحكام أيديولوجيّة مسبقة في منطلقات غلاة النِّسويّة، أو النّسقيّة، أو الكولونيالية.

وبناءً عليه، فإنّ الدراسة تتبنّى طرح عدّة تساؤلات، قد يكون لها صدى في النّتائج التي يُتوصّل إليها، وهي:

- ما العلاقة بين النّقد البيئيّ والنّظريّة الأدبيّة؟
- كيف تظهر الأنساق الثّقافيّة بيئيّة الوجهة والمنطق؟
- ما أوجه التشابه والاختلاف بين النّقد البيئيّ ودراسات ما بعد الكولونيالية؟
- ما خصائص السؤال الأخلاقيّ بين النِّسويّة البيئيّة والنظريّة النِّسويّة؟

ومع الإقرار بأنّ دراسة النّقد البيئيّ متأخرة الحضور في مجال النّقد العربيّ حديثًا؛ فإنّ واقع الممارسة النّقديّة يؤكد أنّ عدد الكتب والدراسات التي قُدّمت في هذا المجال قليل جدًّا، [1] بالقياس إلى حضور النّقد

---

(1) من هذه الدراسات ما يأتي:

- (دراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح)، محمد بن يحيى أبو ملحمة، التواصل، جامعة عدن- نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي، عدد 28، 2012.
- (الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهر صفار زاده)، علي رومي بور، جامعة الكوفة، مجلد 10، عدد37، 2018.
- (العدل والظلم في المسرح، دراسة نقدية بيئية)، أمال سعد أبو الليل، Environmental Justice Injustice in Marie Clements's Burning Vision: An Eco-Critical Study، فيولوجي سلسة في الدراسات الأدبية واللغوية، العدد 74، جامعة عين شمس، 2020.
- (مقاومة بيئية في شعر محمود درويش)، محمد ضياء الرحمن، مجلة الدبيل، مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، مجلد 1، العدد1، 2016.
- (محاولة في فهم تقاطعات الخطاب البيئي مع مسار نقد الحداثة)، عبد الحميد العبيدي، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مجلد 8، العدد31، 2020.
- (مظاهر التفاعل الإبستيمولوجي والإيكولوجيا في بلورة مصطلحات النقد العربي القديم)، وليد النوى عثماني، الفحولة عند الأصمعي أنموذجًا، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، عدد 7، 2014.
- (جماليات المكان في الشعر الاتجاه الرومانسي: دراسة في النقد البيئي)، هناء محمد، مجلة السرديات، الجمعية المصرية للدراسات السردية، العدد 30، 2018.
- (العودة إلى النقد البيئي، من الأدب البيئي إلى السياسة البيئية)، ديما ناصر، حوليات آداب عين شمس، مجلد 40، 2012.

الأدبيّ البيئيّ في الغرب بما يتجاوز أربعة عقود، وقد ركّزت غالبيّة الدراسات على تطبيقات في الرواية والشعر الحديث، أو تقديم تعريفات لمبادئ النّقد البيئيّ. وبناءً على ذلك تمثّلت الدراسات السابقة في إطار النّقد البيئيّ وعلاقته بالنظريّة الأدبيّة في الآتي:

أولاً: دراسات تنظيريّة تأسيسيّة: وأذكر منها على سبيل المثال:

النّقد البيئويّ (2009)[1] كتاب ثريّ فيه عدد من الدراسات البحثيّة التي قدمت وعيًا بمصطلح النّقد البيئويّ- على حد صياغة المترجم- مبيّنًا العلاقة الثلاثيّة بين الأدب، والنّقد الثّقافيّ، والنّقد البيئيّ، كما كشف عن علاقة الإنسان باللاإنسانيّ؛ مبيّنًا العلاقات المعياريّة المضمرة في النصوص الأدبيّة، وعرض لنماذج تحليليّة لروايات مختلفة، شارحًا المشاكل البيئيّة المرتبطة بالنّقد بوصفه مثالًا على فن البلاغة والإقناع، واقترح شرحًا للتحليل البلاغيّ بمفهومه الواسع، والشّامل، ليس فقط على مستوى المعاني المجازيّة، بل على مستوى السّياق الاجتماعي والسياسي، وكذلك المحيط بالصورة المجازيّة. وفسر ارتباط المنهج البيئوي بالمرجعيّات المختلفة لكل ناقد، تلك المرجعيّات التّي سيبنى عليها أدواته النّقديّة وفقًا لثقافته، وما يسيطر عليه من هيمنة اجتماعيّة وسياسيّة وفلسفيّة. كما أنّ الكتاب يكشف عدّة أبعاد في الفهم المجازي للصور والعبارات البلاغيّة بطريقة جديدة تتقاطع والتوريّة الثقافيّة.

إنّ كتاب النّقد البيئوي لجرارد من الكتب التعريفيّة التي ستشكل وعيًا منهجيًّا واضحًا؛ سأستفيد منه وأستثمره في الرسالة، لما فيه من ضبط منهجيّ دقيق لمصطلحات النّقد البيئيّ الأساسيّة، والأدوات النّقديّة التي تنتمي لهذا الحقل المعرفيّ.

النّقد البيئيّ؛ مقدمات، مقاربات، تطبيقات(2021)[2] وهو كتاب تضمن دراسات أجنبيّة غطّت كثيرًا من مجالات النّقد البيئيّ، وسلّطت بعض دراساته على علاقة الأدبي بالنظريّة الأدبيّة، غير أن المهم أيضًا أنّ الكتاب تضمن سبع دراسات تطبيقيّة في أبحاث مختلفة، تنوّعت بين الشعر والرواية، ومنها دراسة تطبيقيّة بعنوان: (**تأويل نقديّ بيئيّ لروايتين عربيتيّن معاصرتيّن، دراسة الأدب العربيّ الحديث بيئيًّا**) لنادين أ. سينو قدّمت فيه تحليلًا يستكشف العلاقة بين الإنسان

---

(1) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ترجمة عزيز صبحي جابر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، 2009.

(2) مجموعة من المؤلفين، (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، إعداد وترجمة: نجاح الجبيلي، مطبعة شهريار، البصرة العراق، ط1، 2021.

والطبيعة، لروايتين هما: بحيرة وراء الرّيح ليحيى يخلف، ورواية كوابيس بيروت لغادة السمان، فربطت أحداث الروايتين، بنقدها الإيكولوجي بالمواقف الكولونيالية؛ إذ خلصت إلى أنّ دراسة الشّخصيات إيكولوجيًا لا يمكن أن تكون بإغفال التاريخ المرتبط بالأرض، والعنف الذي وقع عليها نتيجة للاستعمار، والماضي المؤلم الذي عاشته ولايزال يطارد الأرض والنّاس فيها.

كما قدّم الكتاب بحثًا يتعلق بالنِّسويّة الإيكولوجية، بعنوان: **(الخيال النِّسويّ البيئيّ واكتشاف السرد)** لجوستينا كوستوكوفسكا، معتبرة أنّ النّصوص: "أنساق إيكولوجيّة"، تساعد على إعادة تكوين المجتمعات اجتماعيًا وتاريخيًا، وقدّمت تحليلًا لقصّة: (حدائق كيو)، ورواية (غرفة جيكوب) قدّمت من خلال التحليل تفكيكًا لمركز السّارد العالِم الذكوريّ التقليديّ، واستبداله بمراقبين لتعدد المركزيّة، مبيّنة أنّ كل الإشارات في الرواية متّسقة مع الشخصية- الرئيسة- الإيكولوجية التي تصوغها النّزعة النِّسويّة. ومما لا شك فيه أنه سيكون مفيدًا للدراسة على المستويين؛ النظريّ والتطبيقيّ.

(2017) Ecofeminism in Dialogue[1] - النِّسويّة البيئيّة والحوار، كتاب ضمّ عددًا من المقالات متنوعة، ستكون معينةً لي في دراستي؛ لأنّها تتناول النِّسوية الإيكولوجية عبر وجهات نظر متعدّدة، تنظيريًّا وتطبيقيًّا، تستكشف التفاعلات المهمة والتكامليّة بين النِّسويّة الإيكولوجيّة ومجالات بحثيّة متعدّدة، منها: النّظريّة الأدبيّة وخاصة ما بعد الاستعمار. كما يقدّم هذا الكتاب التحريري إطارًا معرفيًّا عن النظريات الثّقافيّة والأدبيّة للنِّسويّة البيئيّة من خلال وضعها في جدل مع رؤى النوع والثّقافة.

كما جاءت دراسة **الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان** (2018)[2] للويس ويسلنج، التي قدم فيها تبسطًا لفهم فلسفة النّقد البيئيّ الذي أرجعه إلى أفلاطون، ويحدد نشأته التاريخيّة، وفلسفته في العصر الحديث، موضّحًا المفاهيم المرتبطة في النّقد البيئيّ، لبيان الثنائيات الحديّة المتمثلة بالعقل والجسد، والإنسان والطبيعة، وهذا يفيد في دراستي التي تبحث في الكشف عن الذات الإنسانية وعلاقتها بالطبيعة، وفلسفة الفكر الإنساني اتجاه الطبيعة، والمرأة.

---

(1) Douglas A. Vakoc, Sam Mickey, (Ecofeminism in Dialogue) Anna Bedford (Contributions by):, Lexington Books, 2017.

(2) لويس ويسلنج، (الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان)، ترجمة: عبد الرحمن طعمة، مجلة النقد الأدبي فصول، المجلد (26/2) العدد 102، 2018.

ثانيًا: دراسات تعريفيّة وتطبيقيّة عربيّة: وأذكر منها على سبيل المثال:

نسق النِّسويّة البيئيّة في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي[1] (2019) دراسة عُنيت بالكشف عن المفاهيم النظريّة: للنِّسويّة، والنّقد النِّسويّ، والنّقد البيئيّ، والنِّسويّة البيئيّة، فقد قدّمت شرحًا نظريًّا للنّسق النِّسويّ من جهة، والنّقد البيئيّ من جهة أخرى، دون الربط بينهما بطريقة منهجيّة واضحة. كما كان التحليل النّقديّ لرواية الدليمي، يظهر كأنه تحليل في النّقد الثقافيّ، مبيّنًا الأنساق المضمرة في العبارات والجمل المرتبطة بالطبيعة والحياة والمرتبطة بالمرأة لإظهار فلسفة الحياة بشكل عام. غير أنّ الدّراسة- في مجملها- تتّجه نحو التّنظير والنّقد النِّسوي أكثر من النِّسويّة البيئيّة، من دون تناول لنقد النظريّة أو تطبيقها بالأدوات الصحيحة، الأمر الذي يجعل هناك مشروعيّة منهجيّة لتناول هذا الموضوع بشكل مفصّل نقدي وتطبيقي.

ودراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح (2012)[2] دراسة سلّطت الضوء على علاقة الإنسان الحميمية بالطبيعة، فقد مثّلت الطبيعة منبعًا للنقاء والصفاء، والوفاء، كما أنّه فرّق بين بيئتيّ القرية والمدينة، وفاضل بينها، بما يناسب الفطرة الإنسانيّة، وقد عكس صفاه القوة والصلابة على عناصر البيئة المتفاعلة مع القصّة بأحداثها وشخصياتها. وهنا يظهر الاختلاف بين هذه الدراسة وما أبحث فيه، فدراستي تتناول النّقد النِّسوي وتحاول الكشف عن الحدود الفنيّة لهذا النوع الأدبي.

وتأتي دراسة **العدل والظلم في المسرح، دراسة نقديّة بيئيّة (2020)**،[3] التّي قدمتها باللغة الإنجليزية، كاشفة عن الآثار العميقة التّي يخلفها الغزو النوويّ، وكيف يكون استعمار القوى الطبيعيّة والبشريّة معًا، من خلال دراستها لمسرحية (الرؤيّة المحترقة) التّي عرضت فيها الظلم البيئي وآثار ذلك

---

(1) السلطاني، إيمان مطر، (نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، 2019.

(2) أبو ملحمة، محمد بن يحيى، (دراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح)، التواصل، جامعة عدن- نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي، عدد 28، 2012.

(3) أبو الليل، أمال سعد، (العدل والظلم في المسرح، دراسة نقدية بيئية، Environmental Justice Injustice in Marie Clements's Burning Vision: An Eco-Critical Study)، فيولوجي سلسة في الدراسات الأدبية واللغوية، العدد 74، جامعة عين شمس، 2020.

على السّكان الأصليّين للمنطقة، وبحثت الدراسة في التعريف حول ماهيّة الاستعمار في مسار القضيّة البيئيّة. وهذه الدراسة تتقاطع مع دراستي في الكشف عن بعض خصائص النّقد البيئيّ النِّسوي في النصوص الأدبيّة الروائيّة المعاصرة.

وكذلك دراسة **مقاومة بيئيّة في شعر محمود درويش** (2017) [1] لمحمد ضياء الرحمن، الذي يتناول ثلاثة دواوين شعريّة: (عاشق من فلسطين) و(يوميات جرح فلسطينيّ) و(المزامير) ليستثمر تفاعله مع الطبيعة معززًا أجندته التاريخيّة والسياسيّة، حول حقّ الدولة الفلسطينيّة بالحريّة، عاكسًا محاولات المقامة ضد الاحتلال الاسرائيلي على الطبيعة، ويمكن القول بأنّ هذا البحث قد يتقاطع مع موضوع الرسالة في جانب تجربة الشاعر محمود درويش وما نقله من ظلم واضطهاد وقهر للشّعب الفلسطيني، والذي ينعكس بدوره على الطّبيعة والمرأة.

ومن خلال الدراسات السّابقة للنّقد البيئيّ تكشّفت عدّة أبعاد لمفهوم النّقد البيئيّ، الذي سيساعد في تحديد العلاقة بين النّقد البيئيّ والنظريّة الأدبيّة، ولاسيما النظريّة العرفانيّة، وهو ما ستسعى الدراسة إلى تناوله.

وللدّراسة شقان؛ أحدهما معرفيّ يتعلق بموضوع النّقد الأدبي، ومراجعة المقولات النظريّة والتنظيريّة والمبادئ والإجراءات، والآخر تطبيقيّ لمقاربة ما تثمره المراجعة النقديّة، وعلى هذا الأساس يكون **(نقد النقد) إطارًا منهجيًّا مناسبًا** لموضوع الرسالة؛ وذلك لدراسة تطور منهجي في الدراسات الأدبيّة، تمثل فيما اصطلح عليه بدقة عام 1990 بالنّقد البيئيّ في علاقته بالأدب؛ أي (النّقد الأدبي البيئي) الذي يُعد في جانب منه تتمّة أو تطورًا استفاد من منجز الدرس الثّقافي. وعلى هذا الأساس، يتحدّد المسار المنهجيّ لنقد النقد بمراجعة منجز النّقد البيئي بشكل رئيس مع النظريّة الأدبيّة، ولا سيما في مجال النظريّة النِّسويّة، وما بعد الاستعمار، والدراسات الثّقافيّة ومرجعياتها، وفق ما يقتضيه محتوى كل مبحث. وهذه الاختيارات فرضتها ضرورة مراعاة الفرضيّة التي حددتها الرسالة بأنّه قد توجد تقاطعات بينها وبين النّقد الأدبيّ البيئيّ، كما اتّضح ذلك في عنونة كثير من الدراسات.

ومما يُسهم في توضيح الإشكاليّة البحثيّة أيضًا، طبيعة المهاد الأول الذي نشأ فيه النّقد البيئيّ- كما حدّدها جريج جرارد Greg Garrard- ألا وهي طبيعة الحركة البيئيّة ذاتها، لكونها اجتماعيّة

---

(1) ضياء الرحمن، محمد، (مقاومة بيئية في شعر محمود درويش)، مجلة الدبيل، مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، مجلد 1، العدد1، 2016.

وفلسفيّة وسياسيّة؛ مما قد يجعل النّقد البيئيّ للنّصوص الأدبيّة بمثابة الحقل المعرفي الذي يتقاطع فيه مع التاريخ وعلم النفس والفلسفة والأخلاق ... إلخ؛ وهو ما يدفع بضرورة دراسة الموضوع، الذي اختيرت له نماذج من الأنساق الثقافيّة الإيكولوجيّة، والكولونياليّة الإيكولوجيّة (Eco-colonialism)، والنِّسويّة الإيكولوجيّة Ecofeminism، لما صاحبها من طرح يستدعي العلاقة بين تمثلات النّقد الإيكولوجيّ والأخلاق العرقيّة والطبقيّة والبطريركيّة (الأبويّة) والجنوسة؛ وذلك للتأكد من التقاطعات بين النّقد البيئيّ والنظريّة الأدبيّة، في الدرس الثّقافي وما بعد الاستعمار والنّقد النِّسوي، وسيكون التطبيق النقدي ممثلاً في روايات عربيّة ثلاث مثّلت النظريات الثلاث.

قُسّمت الدراسة إلى مدخل وفصلين، وعليه فقد تناول البحث في الفصل الأول تأصيلًا للفلسفات المتعلّقة بالنظريّة البيئيّة، والمدارس والفِرق التّي نتجت عنها، بالإضافة إلى المصطلحات المتّصلة بالنظريّة (كالأخلاق البيئيّة والأيكولوجيّة الثقافيّة والتخييل/ الخيال البيئي)، وصولا "للنقد البيئي: Ecocriticism، فاتحًا الأفق لدراسة الأنساق الثقافيّة في المجال البيئي، فارتبط بدوره بالميادين الفلسفيّة والتاريخيّة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفنون، والآداب...

كما قدّم المدخل النظري شرحًا لمصطلح: (النّقد الأدبيّ البيئيّ Environmental Literary Criticism)، وتفصيلًا للنظريّة في بيان مبادئها، وإجراءاتها المنهجيّة المتعلقة بالتطبيق، من خلال دراسة عدد من الأبحاث البيئيّة، لمكاشفة الخلل فيها ومناقشة مأزق الممارسة التطبيقيّة، كذلك ناقش "النظريّة الأدبيّة والأيديولوجيا" المتعلقة في النظريّة النقديّة البيئيّة.

ثم قدّم الفصل الأول المقاربات التأسيسيّة (بين النظريّة الأدبيّة والنّقد البيئي)، في عرض لتاريخ النّظريّة الأدبيّة من اللسانيّة إلى النسق؛ ليوضح علاقات التقاطع بين النّقد الحديث بين النّظريّة الأدبيّة والنّقد البيئيّ من جهة، والنّظرية السرديّة من جهة أخرى، وبيان سمت الخطاب الأدبيّ في المدرسة الرومانسيّة ومدرسة فرانكفورت على النّقد البيئي، ثم جاء توضيحًا لعلاقات التقاطع والاختلاف مع النظريّة العرفانيّة، في توضيح لمبادئ النسق البيئي، والكولونياليّة البيئيّة، والنِّسويّة البيئيّة.

أما الفصل الثاني فقد كان تطبيقيًّا، قدّم رفع في مستوى التحليل النّقدي البيئي، وبيان ما في النصوص من تكثيف بيئي متمثلًا في الفضاء المكاني والزماني، ورصد هذه المظاهر البيئيّة بتوظيف أداة ومبادئ النقد البيئي، في ممارسة تجريبيّة على روايات ثلاث، مثّلت الواقع المعيشي، بمستوياته الثلاث: الطائفيّ، والاستعماريّ، والنسويّ، فكانت الدراسة للنسق البيئي في مضمراته الثّقافيّة مطبقةً في رواية

فئران أمّي حصّة- 2015)، ثمّ فهم حيثيات الطبيعة وإستراتيجيات التحرر في رواية (رأيت رام الله- 2005)، وأخيرًا بيان سمات الخيال النِّسوي وسؤال الأخلاق في رواية (خشخاش- 1978)، متتبّعين في ذلك سمات التقاطع بين النّقد البيئي والدرس الثّقافي والكولونيالي، والنِّسوي، لتبيان الأخلاق البيئيّة في الخيال البيئي.

وإنه لحريّ الإشارة إلى الصعوبات والتحديات التي واجهت الدراسة، إذ كانت مراحل البحث عن المعلومات النقديّة البيئيّة العربيّة محاطة بالعراقيل؛ لقلة المصادر والمراجع حول النظرية، وما توفر لم يقدم المعلومات مرتبة وشاملة لأفق الدراسة، كما أن الدراسات التحليليّة لم تصل لمستوى النّقد البيئي، وكانت مجرد شروحات للفكرة أو استنباط للمغزى؛ إذ لم تظهر منهجيّة واضحة الأدوات في التحليل، فضلاً على أن الدراسة الحالية تعد من العناوين التي تقع ضمن الخلاف والنقاش، وعلى الرغم من ثراء اللغة العربية بإرث أدبي غنيّ بفضاءاته البيئيّة والإنسانيّة، فإن النظرة النقديّة لا تزال تقليديّة، تحتاج إلى جماعة يتبنون التجديد لنقد ما بعد الحداثة، وفتح الأفق للنظريات النقدية الجديدة، للمضي نحو ابتكار نظريات خاصة بالموروث العربي الذي يفيض بالجمال والقيم معًا.

مدخل الدراسة

النّقد البيئيّ قضايا ومفاهيم

منذ مئة عام ويزيد ولايزال هناك جدل ثقافيّ، يناقش الأيدولوجيات الإنسانيّة حول البيئة، تلك التي نعتها بيتر باري Pierre Bourdieu (1930-2002) بأنها "حقل لايزال مهمشًا أكاديميًا، وحركة ما تزال تمتلك مجموعة غير معروفة بصورة واسعة من الافتراضات، والعقائد، أو الإجراءات".[1]

وبدلًا من التركيز على أهمية البيئة بوصفها المورد الأول لقيام الثّورة العلميّة، التّي أَنتجت تطورًا فكريًّا في المجتمع، بدت المعتقدات حول البيئة متأثرةً بماهيّة الحداثة، المشبّعة بفكر علمانيّ أساسه "الهوس التكنولوجيّ"،[2] تلك الحداثة التي تدعو إلى الاستغلال البشريّ المفرط للبيئة ومكوناتها، من دون تحديد أطر للعلاقة بين الإنسان واللا إنسان، وفق معايير تحفظ للطرف الثاني (البيئة) الحق في البقاء أمام الخراب والتدمير والانقراض.

ولأنّ الإنسان في حاجة إلى موارد البيئة المختلفة لبناء حضارته التكنولوجيّة؛ ولأنّ مظاهر التدمير بدت جليّة بعد التطور الشامل لمجالات الحياة، أمعنت فئة من البيئيّين النّظر في أنماط الفكر الإنسانيّ الحديث، لبناء رؤىً جديدة، بهدف العودة إلى السّمة الإنسانيّة الأولى قبل التمدّن، وذلك باسترجاع أخلاق بيئيّة (Environmental Ethics) تحمي مكان عيش الإنسان، الذي يشكّل الأساس الأول في "ديمومته"، فبدأت المحاولات الدوليّة على مستوى المؤسّسات والمراكز، بدراسة فكرة: المركزيّة البشريّة (Anthropocentrism)، وتفنيدها لتحقيق العدالة الكونيّة؛ العدالة البيئيّة (Environmental Justice)، التي وصفها فولفغانغ غوته Johann Goethe (1749-1832) بأنها "روح واحدة تسري في الأرض".[3]

---

(1) مارلاند، بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص9.

(2) المرجع السابق، بحث كوب، لورنس، (كينيث بريك رائد النقد البيئي)، ص 197.

(3) يُعَدُّ الشاعرُ الألماني غوته من شعراء أوروبا الإيكولوجيين، وعبر عن ذلك في موقفه الحيادي إزاء الثورة الفرنسية لإيمانه بالسلام ونبذ العنف الذي نعته بمضاد الطبيعة؛ فقدم فلسفته مرتبطة بالدين. ومن أبرز أقواله: "**أن تعرف الطبيعة هو أن تشعر بالنَّفَس الإلهي**" وقدم حلاً لمشكلة التنافُر بين المعرفة والإيمان، كما آمن بخلود الروح، بوصفها مشتقة من الطبيعة الخالدة "**لن يكون هناك، أيًّا تكن الظروف، فناءً للقوى الروحية في الطبيعة؛ لأن الطبيعة لا تهدر كنوزها عبثًا**.". راجع: بوستنيكوف، فيكتور، (الشِّعر الإيكولوجي)، ترجمة روميه، الناشر النادي الأدبي الثقافي، جدة، العدد 27، 2004م، ص 63.

وبالنظر إلى دعوة العدالة البيئيّة كان لابد من عقد موازنة بين ثنائيات "العقل والمادة"، و"الثقافة والطبيعة"؛ أدّت إلى تأسيس فرع علميّ جديد انشق عن النظريّة البيئيّة لمعالجة المشكلات المرتبطة بالعلاقة بين البشر وغير البشر، والأزمة البيئيّة والخوف البيئي، بهدف الوصول إلى حلول مناسبة من خلال دراسة الإيكولوجيا الثقافيّة (Cultural Ecology)، وقد عُنيت بدراسة الإيديولوجيات المولِّدة للعلاقة بين الطبيعة وكل مكوناتها والإنسان، كما قدّمت-النظريّة البيئيّة- مصطلح الأخلاق البيئيّة، بالعودة لأصول الفلسفة البيئيّة التي شكلت الحاضنة الأولى، فتجاوز العِلم البيئوي كونه علمًا طبيعيًّا محضًا، بتقديمه دراسات تكاشف المسوّغات السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة التي أسهمت في الأزمة البيئيّة بعد الحداثة، وهو ما يستدعي تناول ثلاثة مباحث؛ **أولها** تنامي مفهوم النظرية البيئية تاريخيًا، **وثانيها** يسلط الضوء على المهاد التنظيري الذي تقاطعت فيه النظريّة الأدبيّة مع الأيديولوجيا فشكّلا مهادًا تنظيريًا وبيئة منهجيّة سمحت للنقد البيئي بالتشكل والحضور، ثم **ثالثها** يتعلق بالنّقد البيئي ومأزق الممارسة ولا سيما في مجال المشهد النّقدي العربي، وهو ما يتّضح في محاولة الوقوف على معطيات **(النّظريّة النّقديّة البيئيّة)** في المباحث الآتية:

أولاً: النّظرية البيئيّة النقديّة.. تاريخ وتطور:

لا يكاد اثنان يختلفان على أنّ العالم يقع في أزمة بيئيّة، تكمن في اتساع الفجوة بين العلوم الحديثة والتّسارع الصناعيّ والحضاريّ من جهة، وأزمة التكوين الثّقافي من جهة أخرى؛ لذا كان من الضروريّ تحديد بِنى العلاقة بين الإنسان وغيره، تلك البنى التي تجذرت في معارف أيدلوجيّة، تكوّنت بإرهاصات فكريّة متأثرةً بالفلسفات المختلفة عبر الزمن، وذلك ما يتّضح في الآتي:

الر افد الفلسفيّ من مركزيّة الإنسان إلى المركزيّة الحيويّة:

إنّ تأمل الفلسفات القديمة التّي شكّلت المصدر الأساسي للأفكار الإنسانيّة والمجتمعيّة والسياسيّة الحديثة، يقود إلى قدر من التباين، اختلفت فيه مظاهر الفكر والمنطق باختلاف الزمان والمكان اللذين ينتميان إليه، ومن أولى الفلسفات ما نُقل عن بروتاجوراس[1] (411-

(1) بروتاجوراس زعيم الفكر السفسطائي في القرن الخامس قبل الميلاد. راجع: (سلسلة محاورات أفلاطون في السفسطائيين والتربية، محاور بروتاجوراس)، ترجمة: د. عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001،

481ق.م) باعتقاده أنّ الإنسان هو أساس القياس لكلّ شيء، وبهذا المبدأ تأسست فكرة التراتبيّة، وأيده بذلك سقراط (399-470ق.م)[1] فيما عبّر عن ذلك بوضوح في مقولته "**اعرف نفسك بنفسك ودع الطبيعة للآلهة تعرفها**"؛ مُقرًا بضرورة الاهتمام والتعرف على النفس الإنسانيّة، وترك علوم الطبيعة، ويشير هذا إلى أحد الرأيين؛ إهمال الطبيعة، أو استغلالها للمعارف البشريّة، وفي كليهما ثقافة تدعو إلى المركزيّة الإنسانيّة على حساب البيئة وباقي مكوناتها.

أما أفلاطون (348-428 ق.م) فقد قدّم في كتابه (الجمهورية) ترتيبًا للفئات البشريّة من دون النّظر إلى غير البشر، واصفًا الطبيعة بأنها صورة باهتة عن العالم الحقيقيّ؛ لذا لم تكن البيئة موضع اهتمامه؛ إذ دعا الإنسان إلى التحرّر، بغية الالتحاق بالعالم الحقيقي، عالم المُثل، وصنّف أفلاطون الرجل الحر في رأس الهرم الحياتيّ، لكنه أمره بالتزام الفضيلة والأخلاق المحاكية للعالم المثاليّ. وقد دفعت سطوة اليوتوبيا أفلاطون إلى الإقرار بقلة فائدة الطبيعة، وعدم جدواها في تقديم المعارف العلميّة التي يحتاجها الإنسان؛ لذا فقد أهمل الطبيعة، وأشار في سياق محاوراته إلى ذلك بقوله: "**لتكن سمحًا معي يا عزيزي، فأنا أحب العلم؛ لكن الريف والأشجار لا ترضى بتعليمي شيئًا، بل رجال المدينة هم من يعلمونني**".[2]

ثم أيّده تلميذه أرسطو (322-384 ق.م) في توافق فكريّ للفلسفة الأخلاقيّة، والعقليّة التي تدعو للخير، والفضيلة، بشكل من الهيراكليّة والتراتبيّة بين المخلوقات، على سبيل النفعيّة، فوضع الأدنى مسخَّرًا في خدمة الأعلى، مُصنفًا "الإنسان" في رأس القمة وأعلاها[3]، ولم يكتف أرسطو بذلك، بل صرّح في كتابه: "السّياسة" أنه من حق الإنسان استغلال[4] الموارد الطبيعيّة في البيئة؛ ليكون أول من أسّس لفكرة الاستغلال، وبالرغم من أنّ مفهوم الاستغلال عند أرسطو دلّ على دعوة لحفظ النوع والبقاء الإنسانيّ، فإنّه فُسّر بمعانٍ أخرى، مدفوعة بالسياق الزمنيّ الذي

ص 19. وأيضًا راجع: نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة.. قراءة فلسفية)، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مجلد17، عدد 63، عمان، 2019، ص 193.

(1) المرجع السابق، ص194.

(2) راجع: أفلاطون، (فايدروس.. أو عن الجمال)، ترجمة: أميرة حلمي مطر، القاهرة، دار غريب، 2000، ص 38-39

(3) أرسطو، (فن الشعر)، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953، ص 42-44 (بتصرف).

(4) وجاء في كتاب السياسة لأرسطو: "**لذلك ترى الثمار والحيوانات تكون مادة طبيعية يعرف الناس أجمعون أن يستغلوها**"، وبهذه العبارة يكون الأول في الدعوة لاستغلال الطبيعة، راجع: أرسطوطاليس، (السياسة)، ترجمة: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ص 116.

فسّرت به، فأسهم التأويل في العصر الحديث في تحديد مصطلح الاستغلال الأرسطيّ، والوصول به إلى معتقد فكريّ يحمل مبادئ المركزيّة الإنسانيّة.

وترسخت، لدى كل من أفلاطون وأرسطو، فكرة استغلال الأرض ومواردها؛ لأنها مُسَخَّرة للإنسان صاحب السلطة الأعلى في الأرض، وبالرغم من أنّ الفلسفة اليونانيّة قدّمت مبدأ الفضيلة ومحاكاة عالم المُثل، فإنّ فكرة الاستغلال لم تُوظّف بقانون واضح يُظهر نبذ الإسراف، على اعتبار أنه مضاد للفضيلة القائمة على الأخلاق؛ لتظهر المفارقة في ما قدّمته الفلسفة اليونانيّة، بجمعها بين الفضيلة والتراتبية، سواء أكان بين البشر أنفسهم، أم كان بين البشر وغير البشر؛ لينتج عن هذا الفكر مبدأ المركزيّة البشريّة التي نالها الإنسان بتفرّده بالعقل المحقّق للفضيلة، فأسهمت بذلك في بناء لبنات الاتجاه السياسي للرأسمالية، وهو ما عُد لدى بعض النّقاد تفسيرًا ذا نظرة سطحيّة في التحليل الفلسفيّ للفكر اليونانيّ[1]، ودعوا إلى تفنيد أقوالهم، ودحضها، على اعتبار أنّ الفلسفة اليونانيّة قدّمت الإنسان بشكل موازٍ للبيئة، لما وصفوه بأنّ الكون إلهيّ له العقل والقداسة.

وبعقد مقارنة بين الرأيين، فإنّ ثّمة تشابهًا في كليهما يكمن في تميز الإنسان بعقله، وأما الأول فبيّن ما آلت إليه نظرة الاستعلاء، وفرص الاستغلال، وتقسيم المهن وأجناس البشر، ليصل للمركزيّة، وأما الرأي الثاني فقد أقرّ بالمساواة بين الكائنات، ولعلّ الرأي الأول هو الأكثر ترجيحًا، لأنّ ما آلت إليه البيئة من دمار وانهيار، يفيد بأنّ المعتقد السائد بين الناس يُمثل الرأي الأول لا الثاني. وفي المقابل، هناك فلسفات عزّزت دور البيئة وأهميّتها؛ فقد اتّصفت الفلسفة الإغريقيّة بالوضوح بدعوتها إلى تَبَني مبادئ التكافؤ بين المخلوقات، أما الفلسفة الفيثاغوريّة فقد اختلفت عن باقي الفلسفات، بمنحها القيمة للكائنات عامّة، في توافق مع مبدأ التناسخ الذي آمنت به، من غير النظر في مبادئ الأخلاق البيئيّة. [2] ومثلها الفلسفات التي اعتمدت طُرُقًا روحيّة لتفسيراتها الفكريّة: مثل الفلسفة البوذيّة زِنْ (Zen Buddhism)، إذ أجازت إمكانيّة "الاستنارة" المتدرّجة أو

---

(1) راجع: بامي، جمال، (الفلسفة البيئية وسؤال القيم جدلية الإنسان والطبيعة)، الرابطة المحمدية للعلماء، عدد 48، 2020، ص 265، وراجع: نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة.. قراءة فلسفية)، ص196.

(2) كذلك تعددت المؤلفات التي تهتم بالإنسان في جميع مجالات حياته: من تربية، والأخلاق، والدولة، والقانون، يبين مركزية الإنسان، المرجع السابق، ص 196، 197 (بتصرف)

المفاجئة، لتطهير الذّهن والاتّحاد مع الكون. وقد تَبنى اليابانيون هذه الفلسفة، التّي تحثّ على الشعور بالجمال والتلقائيّة؛ لذا اختلف سيرهم الفكريّ عن المسارين الأمريكيّ والأوروبيّ، المعاديين للطبيعة باستغلالها والتعالي عليها.[1]

وعلى الرغم من التمايز الذي ظهر بين الفلسفات، فإنّ كل فلسفة حظيت بأتباع يدافعون عن انتماءاتهم، وما فيها من فكر انعكس على الجانبين الاقتصادي والسياسي، ومن البيئيّين الرافضين لفلسفة الهيمنة والمركزيّة البشريّة، شارلز مارغريف تايلور(1931...) الذي قدّم نقدًا للفلسفة اليونانيّة وفكرها الاستبداديّ، كما فنّد التفكيكّي جاك دريدا (1930-2004) الأفكار التّي دعت للسمو والاستعلاء البشريّ عن غيره من الكائنات [2]، دفاعًا عن المركزيّة البشريّة.

وفي هذا الإطار التأصيلي للفكر الإنسانيّ، لابد من ذكر الآراء الدينيّة لارتباطها الوثيق في تحديد المواقف الفكريّة، فقد ظهر أثر الديانتين المسيحيّة واليهوديّة في الناس، ومن خلال آراء القديس توما الأكوين (1225- 1274) التي تركت بصمةً في معتقدات القارتين: الأمريكيّة والأوروبيّة، في تفسيره لآيات من العهدين تفيد بتبرئة الإنسان من أي عنف يوجهه للموجودات على الأرض، على اعتبار أنّه المتحكم بها والمسيطر عليها[3]؛ لذلك لم ينادِ رجال الدين بضرورة الحفاظ على البيئة من الاستنزاف والإفراط، والعنف، لاسيما بازدهار المجال الاقتصادي؛ مما أنتتج فكرًا ديكارتيًّا، يتقاطع مع الفكر (الأفلاطونيّ والأرسطيّ)، بمفاضلة الأنا (الإنسان) على اللاأنا[4]؛ وذلك لأن الإنسان يملك روحًا تخلد رغم فناء جسده.

كما وردت في الإصحاح الأول من سفر التكوين عبارة "... **فيتسلّطون على سمك البحر**..." وغيرها من العبارات التي تحمل معنى التسلط والتعالي، عملت على تمكين فكريّ يتمثل في حق الاستبداد، وحق العقاب باعتباره أداة الله في الأرض[5]، فتكوّنت ثقافة الفوقيّة البشريّة على الفوقيّة الإحيائيّة.

---

(1) راجع: بوستنيكوف، فيكتور، (الشِّعر الإيكولوجي)، ص 65.

(2) المرجع السابق، ص 61-62 (بتصرف).

(3) راجع: نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة.. قراءة فلسفية)، ص 201، وأيضًا راجع: Peter Singer, Practical Ethics, Cambridge, Cambridge University Press, 1999, p 267

(4) نسيم، وجدي خيري، المرجع السابق، ص192-201(بتصرف).

(5) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 121- 136(بتصرف).

وعلى النّقيض من الفكر الفلسفيّ المسيحيّ، ظهر الفكر العربيّ المُحمّل بالموروث الثقافيّ والدينيّ، المُرتكز على مبادئ الأخلاق السامية في الدين الإسلاميّ، تلك التي حدّدت الحقوق والواجبات، والعلاقات بين الإنسان والآخر بجميع فئاته، إذ يقول تعالى: {من كل شيء موزون} الحجر 19، ليؤكد أنّ الخلق قائم على الوزن والعدل والتنظّيم، والخَلق في العُرف الإسلامي يشمل كل مكونات البيئة المكانيّة والإحيائيّة، وبهذا التصريح الإلهي ثمّة توافق له صداه في "فلسفة الأخلاق البيئيّة "الحديثة.

وبتتبع نشأة الفلسفة البيئيّة الحديثة؛ فإنّ أول من تَبنى مرحلة التغيير الفكريّ- إن صح القول- هو آرني نايس (1912-2009)، في كتابه "الإيكولوجيا والمجتمع وأسلوب الحياة" عام 1986، مُتأثرًا بمعتقدي باروخ اسبينوزا (1623)، وغاندي (1869-1948) المنادي للحكمة، وتحقيق الذات للبشر، وتبعه الناقدان آرني نايس، وسنايدر (1930-...).[1] أما بيتر بارغ(1926- 2006)، ورايموند دايسمان (1915-1942)، فقد أسسا لمذهب: (جناح المتمركز الإيكولوجية)، ليتتبعهما الأستراليّ وريك فوكس مؤلف كتاب "نحو إيكولوجيا عبر شخصية" عام (1990).[(2)]

فانعكست آراء الفلاسفة على التوجّهات الإنسانيّة المختلفة في المجتمعات، وفقًا لثقافاتهم وبيئاتهم السياسيّة، فتبنَّت العلمانيّة الفلسفة الرومانيّة، وفلسفة زارادشت (650 ق.م) المؤيّدة للرؤى المسيحيّة واليهوديّة، بالإيمان بزوال العالم، بينما تبنَّى النازيون والشيوعيون والسكان الأصليون لأمريكا، والمسلمون، مبادئ التأقلم البيئوي.[3]

ومن أهم الفلسفات المعارضة للفلسفة اليونانيّة، ما قدّمه نيتشه (1844- 1900) في كتابه "أفول الاصنام"، إذ عدّ الأخلاق المُلقنة تسير عكس الفطرة السليمة للإنسان. إلا أن فلسفة الحداثة، كان لها تأثير في الفكر البيئي عند الإنسان العصري، الذي انشغل بالفضاء الافتراضي

---

(1) بيل، لورانس، وآخرون، (الأدب والبيئة)، مجلة النقد الادبي فصول، المجلد (26/2) العدد 102، 2018، ص 337، وراجع: بليت، جان ماري، (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، ترجمة: عثمان، السيد محمد، عالم المعرفة، الكويت، عدد سبتمبر 1994، ص 129-133(بتصرف).

(2) حفناوي، بعلي، (آفاق النقد الثقافي الإيكولوجي اخضرار العلوم الإنسانية)، وزارة الثقافة، المجلد 52، العدد 605، سوريا، 2014، ص 114، وراجع: بيل، لورانس، وآخرون، (الأدب والبيئة)، ص 337.

(3) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 98.

الصانع لفجوة كبيرة بين الحقيقة والواقع الفائق، الذي أشار إليه إمبرتو إيكو (1932-2016) [1] في مقالته: "رحلات في الواقع الفائق 1975"، مُنبّهًا إلى تضخم الأزمة وضرورة نشر ثقافة الوعي البيئي الحقيقي المماثل للواقع؛ بما فيه من مشكلات وأزمات في محاولة لتعديل المسارات الفكريّة والأخلاقيّة.

كما قدّم الفيلسوف تايلور نقدًا للمركزيّة الإنسانيّة التي صنعت الفجوة بين الإنسان وغيره من الكائنات، مؤسّسًا لمفهوم المركزيّة الحيويّة (Biocentrism)[2]، المناهضة للأطروحة اليونانيّة، التي عدّت الإنسان المقياس والميزان للمعاملات الحياتيّة، ثم قدّم نقدًا للنظرة المسيحيّة التي توافقت مع الفلسفة اليونانيّة بترسيخ المركزيّة البشريّة، التي أضفت على فكرة "قدسيّة الإنسان" هالة عقائديّة، بما أسبغته عليها النصوص الدينيّة، ولاسيما تؤيد سمو الإنسان عن باقي الموجودات في الصفات التي يتمتع بها العالم الطبيعي، مبيّنًا أن تغيير المعتقد التسلّطي المتعالي لا يمكن إلا بدافع ديني، وقد نقل ماكس أولشليجر دعوة يؤكد فيها ضرورة نشر الوعي المتمركز حول البيئة في المجتمعات الديموقراطيّة[3]، لذا انصبّت الجهود الدينيّة في إعادة تأمل النصوص المبررة للعدالة البيئيّة، وفي اهتمام الدين بمكونات البيئة، من دون السعي لتأصيل فكر جديد، بأنساق ثقافيّة تخدم الأزمة البيئيّة.

وأخيرًا، نقدت المركزيّة البشريّة في الفلسفة الديكارتيّة، بوصفها وريثة الفلسفة اليونانيّة، في نظرتها الاستغلاليّة والنفعيّة البحتة للبيئة، بهدف الرفاهيّة، من خلال الوصول إلى أكبر عدد إنتاجي من المصنوعات،[4]محددًا العلاقات الأساسيّة في العالم القائمة على الحرب والسيطرة والمُلكيّة، إلا أن رينيه ديكارت (1596-1650) اختلف مع الفلسفة اليونانيّة في أنّ العقل منحة

---

(1) نتشيه، فريدريك، (أفول الأصنام)، ترجمة: بورقيبة، حسان والناجي، محمد، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 1996، ص40. وراجع فليبس، دانا، (النقد البيئي، والنظرية الأدبية، وحقيقة الإيكولوجيا)، ضمن كتاب: (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 99-100(بتصرف).

(2) Paul W. Taylor, Respect for Nature: A Theory of Environmental Ethics, Princeton, Princeton University Press, 2011, p.12، راجع، نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة. قراءة فلسفية)، ص205.

(3) نسيم، وجدي خيري، المرجع السابق، ص 202.

(4) ديكارت، رينه، (مقال عن المنهج: لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم)، ترجمة، وتقديم: محمود محمد الخضيري، القاهرة، المكتب المصري للطباعة والنشر، 1930، ص 12 (بتصرف).

للإنسان، دون غيره من الكائنات التي عدّها آلات فحسب. وبعد اطلاع تايلور للفكر الداروني، الذي وصف عمل الكائنات لوظائفها البيولوجيّة بطريقة طبيعيّة خاضعة للصدفة، وبين النظرة الغائيّة اليونانيّة، والآلية الديكارتيّة، والسلطة المسيحيّة، والمصادفة بغير قصديّة الدارونيّة، سعى تايلور إلى استبعاد الفوارق البيولوجية، وأطلق رسالته في تأسيس المركزيّة الحيويّة، لإثبات جوهر الوعي عند الكائنات الحية، في محاولة لنفيّ وصفها بالآلات، وفي رفض مبادئ التعالي الإنسانيّ وسموه عن غيره، ودعوة للوحدة العضويّة بين الكائنات. فقد عزَا تأسيس النظريّة الآلية الحديثة، التّي تسرّبت إلى الفلسفات في القرن السابع عشر بادعاءات ديكارت، ساعيًّا لتأسيس مفاهيم سليمة ودقيقة حول الأخلاق البيئيّة، التّي تكافئ بين الكائنات وتلغي مبدأ الجوهر المفكر المُميز للإنسان، في بيان الثنائيّة الأساسيّة له: النفس والجسد.[1]

وثمّة تقاطع فكري بين القصديّة الديكارتيّة بدعوتها لحضور العقل في فهم المعارف والعلوم، والظاهراتيّة أو الفينومينولوجيّ لإدموند هوسرل (1859-1859) في استحضار الوعي الإنساني الجمعي والفردي لفهم الظواهر الاجتماعيّة، وتأسيس علم الإيكوفينومينولوجيا المَعنيّ بدراسة البيئة، فإنّ الفلسفتين قدمتا رؤىً لمنظومة أخلاقيّة تُعنى في القضايا البيئيّة بتحديد إشكاليّة المركزيّة البشريّة ضمن ثنائيّة الواقعيّ والقيميّ.[2]

وبعد هذا القيد الذي مارسته الفلسفات المختلفة في تأييد أحد مكونات البيئة من جهة، وسبر أغوار السّلوك الإنساني من جهة أخرى، دعت الفلسفة الحديثة لتبني أفكار مختلفة، كان أولها يدعو للمغالاة في الحفاظ على البيئة، برفض الاستفادة من مكوناتها وخيراتها، أو للدعوة لتقليل عدد السكان وفقًا لنظريّة: "المالثوسيّة"[3]، أما الرأي الثّاني فقد تميز بالوسطيّة، والعدالة في الحكم، من دون الاستبداد بطرف من الأطراف، إذ يرفض الاستهلاك الإنسانيّ المفرط،

---

(1) المرجع السابق، ص203-207 (بتصرف).

(2) براون، تشارلز، (كتب الإيكوفينومينولوجيا: العودة إلى الأرض ذاتها)، ترجمة: جهاد عبد العال، مجلة ديوجين، مجلد1، العدد 2، 2014، ص 395 (بتصرف).

(3) بليت، جان ماري، (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، ص48. ونظرية "المالتوسية" نسبة إلى الاقتصادي والديمغرافي الإنجليزي مالتوس، والتي فسرت ظاهرة نمو الفقر ومشكلاته في العالم، ونسبة تزايد أعداد السكان مقابل معدل المحاصيل الزراعية، التي تُظهر اختلال التوازن. راجع: كتاب المشكلة السكانية، وخرافة المالتوسية الجديدة، تأليف الدكتور رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، ديسمبر 1984، ص39.

والاستعلاء المسيطر لأهداف الترف والرفاهيّة، بالمقابل ظهر طرف ثالث يرفض آراء حماة البيئة المبالغة في الدفاع عن الطبيعة في إخلال لحق الإنسان في موارد الطبيعة، وتُعد منظّمات حقوق الحيوان والنّبات والمكونات البيئيّة من "الترف الفكريّ،"[1] لذا كان لابد من الوصول لرأي "فلسفيّ يوفق بين الاقتضاءين البيئيّ والإنسانيّ، من دون أن يضحي بطرف لحساب الآخر".[2]

ومما سبق، يتبيّن أن الروافد الفكريّة الفلسفيّة تأسست وفقًا لثلاثة محاور رئيسة[3]؛ "الإنسيّة اليونانيّة الكلاسيكيّة، والثنويّة الديكارتيّة، والمعتقدات الدينيّة المسيحيّة واليهوديّة، تلك التي أسّست اللاوعي الفكريّ المسيطر على الأيدولوجيّات الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة؛ لذا بدا من الضروريّ التوصل إلى علم يُمكّن الوعي الإيكولوجيّ في الفكر المجتمعي والسياسي؛ لينعكس على الطّابع الدرامي في العمليات الإنسانيّة بمختلف معاملاتها، وعلاقاتها، في محاولة للعودة إلى الفطرة البدائيّة؛ الإيكولوجيّة، التي تؤمن بأنّ الأرض ظاهرة شبكيّة معقّدة العلاقات، بما ينفي الأفكار التّي قدمتها الديانتان اليهوديّة والمسيحيّة في المركزيّة الإنسانيّة.[4] وبهذا السياق تشكّلت العناية بالثّقافة البيئيّة، في وعي مرتبك حيال الأخلاق البيئيّة المشوهة الخاضعة للفلسفات التراتبيّة، سعيًا لحل الأزمة الفكريّة البيئيّة.

الفلسفيّة البيئيّة اتجاه مضاد لفلسفات ضدّ البيئة:

كان للروافد السابقة أثرٌ واضح في تكوين إرهاصات فلسفيّة لاتجاه في النّقد البيئي، يعبر عنه القول الشهير: "الكل أكثر من مجموع أجزائه المكوّنة"[5]؛ فكانت هناك أفكار ومحاولات نقديّة مختلفة تراوحت بين النّقاد وفقًا لتصنيفاتهم؛ أسّست الفلسفات المختلفة ثقافات أسهم بعضها في مشكلات بيئيّة، وربما كان هذا أهم الدوافع التي تسببت في وجود علمًا إيكولوجيًا بنظرة مضادّة لهوس الاستهلاك والاعتداء على الطبيعة، بُنيت على أسس ومنظورات فلسفيّة لخصها جرارد.[6] في

---

(1) زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية)، ترجمة: معين شفيق رومية، عالم المعارف، ج1، الكويت، 2006– مقدمة المترجم، ص 9-14(بتصرف)، وراجع: Ecocriticism Reader، ص 7-15(بتصرف).

(2) بليت، جان ماري، (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، ص191 (بتصرف).

(3)المرجع السابق، ص129.

(4) نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة قراءة فلسفية)، ص200.

(5) راجع مقدمة المترجم: زيمرمان، مايكل، الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ج 1، ص 7-14(بتصرف).

(6) راجع المرجع السابق، ج 2، ص 339، وراجع مارلان بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ص 9-21(بتصرف).

مسمّيات ثلاثة هي: الإيكولوجيّة السياسيّة والاجتماعيّة، الإيكولوجيّة العميقة أو الجذريّة، والايكولوجيّة النِّسويّة.

غير أنّ مايكل زيمرمان[1] قسَّم الفلسفة البيئيّة إلى ثلاثة حقول كان **أولها** حقل الأخلاق البيئيّة، وأما **ثانيها** فهو الإيكولوجيا الجذريّة، التي تتضمن مفهومين، هما: الإيكولوجيا العميقة المضادة لمفهوم المركزيّة البشريّة، والنِّسويّة الإيكولوجيّة المضادة لمفهوم البطريركيّة والتراتبيّة، ثم **ثالثها** وهو الحقل الإصلاحي الذي يوازن بين المركزيّة البشريّة والممارسات الاستهلاكيّة، عبر سنِّ القوانين المناسبة.

وتكاد تكون الموجة الأولى للنّقد البيئي مكوّنةً على يد "هنري دافيد ثورو وجون موير وماري أوستن وإدوارد آبي ووندل بيري واني ديلارد، ممجدين بسبب نوعيّة خيالهم البيئي"[2] الذي يحمل قيمة تعليميّة للطبيعة بهدف تعديل الميراث الأدبي الرعوي القديم القائم على فكرة التعالي. في حين انشغلت الدراسات النقديّة البيئيّة في بريطانيّة بتسليط الضوء على الشعر فيما سُمّي بالإيكولوجيا الرومانسيّة مثل: ووردزورث، والتّراث البيئي (1991)، الملقب بشاعر البحيرة، وروبرت فروست، شاعر البلد الكبرى، "وأنشودة الأرض (2000)، في محاولة لفهم الكون فيما نعته جوناثان بيت (1958..)[3] بفكر الهشاشة.

ومن الروّاد أيضًا ثورو، ووالدن وودز، اللذان قدما أعمال الشاعر الروماني جون كلير، وفسرا الظواهر الطبيعيّة في أشعاره بتحليل بيئي يدعو للمساواة مع الطبيعة لا أنسنتها، فقد تأثر ثورو في فكره بالفلسفة البوذية التي دعت للمساواة، والأمر كذلك مع لين رايت مؤلف كتاب "التاريخيّة لأزمتنا البيئيّة"، ثورو الذي رفض" أنسنة العالم"[4].

واتّسم النّقد البيئيّ بـ"التهديديّة"، التي عكست عمليّات الاستيطان، أو الهجرة، أو الرفاهيّة، وغيرها؛ لذا دعا النّقاد البيئيون إلى العناية بالوضع الاجتماعي والنّقد النِّسويّ نتيجة دراسة الأزمة البيئيّة ومحاولةً للتغيّر الاجتماعي؛ فظهرت وجهات نظر في الاشتراكيّة الايكولوجيّة تعزو كل ما يحدث في الطبيعة إلى السياسة، وبذلك غير جو كلارك مسمى الايكولوجيّة الاجتماعيّة

---

(1) زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية)، ج1، ص15.

(2) مارلاند، بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ص12.

(3) المرجع السابق، ص13، وراجع: بيل، وهيكس، وغيرهم، (الأدب والبيئة)، ص 339.

(4) حفناوي، بعلي، (آفاق النقد الثقافي الإيكولوجي اخضرار العلوم الإنسانية)، ص 117.

ليصبح مصطلح (الإيكولوجيا السياسيّة)[1] إذ ارتبطت بتقويم النّزعة الإنسانيّة والثقافيّة والأخلاقيّة عند البشر، وقارن بينها وبين الأخلاق البيئيّة.

فجاء الأدب الرعوي في أميركا وأوروبا وغيرها من الدول ليعبر عن الأيدولوجيّات السياسيّة[2]، في فكرة الترويج للزّراعة التي ارتبطت بتواس جيفيرسون، أما في الأعمال البريطانيّة فقد ظهرت الرعويّة من خلال حث الرجال على القتال في الحرب العالميّة بدعوى المفاهيم الرومانسيّة المرتبطة بالوطن والدفاع عنه، في ملمح سياسي خطير المنطق والفكر على حد سواء[3] ليظهر فيما بعد دور النّقاد مع الرؤى النسقيّة في الأعمال الأدبيّة والخطابيّة للوصول للعدالة وحل أزمتيّ الأخلاق والبيئة.

وباعتماد الأخلاق البيئيّة معيارًا أساسيًّا في تحدي معتقدات المركزيّة البشريّة [4]؛ تتحرّر البيئة من النفعيّة البشريّة وتمنح قيمةً، عبرت عنها مؤلفات الإيكولوجيا الاجتماعيّة التي بدأت في الحقل الأول بكتاب "يوم الأرض"(1970)، ليعمل الإيكولوجيون مع الاجتماعيين والماركسيين والتفكيكيين وما بعد الحداثة لبناء الأيكولوجيّة العميقة والاجتماعيّة في دعوة للعدالة [5].

أما في الحقل الثاني الذي نشأ منشقًّا عن الإيكولوجيا الاجتماعيّة، بمنحاه الجذريّ في توليد مصطلح جديد، سمّي بالجذريّ، لما قدّمه رواده الفلاسفة من تحليل اعتمد على الفهم للثّقافة والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة المرافقة لمفاهيم البيئة، كما أنهم تسببوا في الانزياح الثّقافيّ الذي أسهم بتقديم محاولات إنقاذ للعالم من الخراب، ومع ثورة الستّينات ظهرت الإيكولوجيّة العميقة التي نسبت أسباب الأزمة البيئيّة إلى ثقافة المركزيّة البشريّة، بوصفها نظرة الإنسان المتغطرسة بالتعامل مع من حوله من الكائنات ليلبي حاجاته ورغباته وطالبت بتغييرها

---

(1) راجع مقدم كتاب: ECOCRITICISM READER، وراجع: حمداوي، جميل، (نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة)، موقع الألوكة، ص 296-302 (بتصرف)، وراجع زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى ...)، ج2، ص 124-125.

(2) راجع: جرارد، جريج (النقد البيئوي)، الفصل الثالث- الرعوية- ص 46-72(بتصرف).

(3) المرجع السابق، ص 61. ومن النقاد الذين كتبوا عن الإيكولوجيا السياسية جون كلارك، راجع: مقدمة كتاب (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا)، ص7-12.

(4) برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ص 29.

(5) راجع مقدمة زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا)، ج1، ص 7-12(بتصرف).

إلى المركزيّة الإيكولوجيّة، أو حركة البيئة العميقة، التي عبّر عنها نايس بمصطلح "الايكولوجيا الشخصيّة" متأثرًا بالدعوة إلى الحكمة الإيكولوجيّة لدى تسبينوزا وغاندي.[1]

وكان للتحاور الخطابي بين الإيكولوجيّين أثّر في نبذ المذهب المتمركز حول الإنسان واستبداله بالمركزية البيئيّة، تطبيقًا للعدالة البيئيّة، مبيّنين أهميّة الوعي بحضور الطبيعة، وتتبع تطور انخراطها في الخيال البيئيّ. بإعادة النّظر في النّظريّة النّقديّة، ودراسة الأدب البيئيّ، الذي أظهر تشابكًا معقدًا في العلاقات بين الطبيعة والسياسة والحالة الاجتماعيّة والجنسيّة، بدراسة في "الأنسجة الداخليّة، مثل: ما بعد الرعويّة، والكتابة الجديدة عن الطبيعة، والشعر البيئي"[2]، بهدف تحوّل الرواية الحديثة لكتابة حقيقيّة للطبيعة، تتحرّى الأزمة البيئيّة الحقيقيّة في التراتبيّة لا بين البشر وغير البشر فحسب، بل في العلاقات المعقدة بين الذات والآخر، والعالم، والطبيعة، ومكوناتها، في محاولة حقيقيّة لتجنيد كتابة الطبيعة والنّقد البيئيّ معًا للوصول إلى عالم آمن يحقق السلام والرفاهيّة للجميع.

من هنا، جاءت أهميّة دراسة الأيديولوجيّات المهيمنة للجندريّة، والطبقيّة، والعرقيّة، والنِّسويّة، والممارسات البشريّة في ما بعد الكولونيالي، من منظور الدراسة النّقدية البيئيّة؛ لذا كتبت كارين ج. وارين في النِّسوية الإيكولوجيّة، محاولةً حل الأزمة البيئيّة البطريركيّة (النظام الأبوي) في ثقافته البنيويّة للمجتمع، الذي يستغل المرأة على اعتبارها الطبقة الثانية بعد الرّجل.

لقد لعبت الحركات المختلفة في النّقد البيئي دورًا مهمًا في وصول النّظريّة النّقديّة البيئيّة لمبادئها ومعاييرها، التي شملت لمفاهيم تسعى إلى حل جذري في حل الأزمة البيئيّة، بمفهومها الشامل لكل جوانب الحياة البشريّة، التّي ظهر فيها الخلل والاضطراب والتصدع، حيث تمثل الأزمة التعقيد لتشابك مكوناتها، ولارتباطها بالثقافات البشريّة المختلفة، وعاداتهم الاجتماعيّة المتباينة؛ لذلك كان لابد للإنسان أن يجد حلاً جذريًّا للمشكلة التّي كان هو أساس وجودها، فكان مفتاح النّجاة الأول هو الأخلاق البيئيّة، والالتزام الأخلاقيّ، وفقًا لمعايير قانونيّة تضمن حقوق جميع الكائنات، ونبذ مفهوم "المركزيّة البشريّة" التي تؤثر في جميع العلاقات البشريّة بعضها

---

(1) المرجع السابق، ج1، ص 245.

(2) مارلاند، بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ص15.

ببعض من جهة، وبينها وبين البيئة ومكوناتها من جهة أخرى. في محاولات جادّة للإصلاح والتطوير وفقًا لأيديولوجيات جديدة.

فقد ظهر الترابط بين النّقد البيئي وما قدّمته النّصوص والخطابات الأدبيّة في مؤلفات الطبيعة، التي بيّنت علاقة الإنسان بالأرض، والزمان والمكان، ومكونات البيئة، في ضوء قراءات نقديّة منوعة تراوحت بين الدراسة الثقافيّة، والاجتماعيّة، والنفسيّة، والتأويليّة، والجماليّة، والتخييليّة، والتاريخيّة.

الثّقافة الأيدولوجيّة وتجليات النّقد البيئي:

إنّ تبني الآراء الفلسفيّة والدينيّة أدى إلى تضاعف النّشاط البشري نحو الاستهلاك، وتزايد ذلك مع التطور الصناعي والثورة التكنولوجيّة، وازدياد النمو الديمغرافي الذي جاء على حساب الموارد الزراعيّة، الذي نعته القس أندريه دوما بـ"رعاة البقر المخربين"، في إشارة ساخرة تطعن في الاستهلاك الأمريكي مقارنة بالاستهلاك الهندي[1] وبهذه المقارنة يظهر جليًّا أثر المعتقد الفكري في السلوك البشري بين التراتبي واللاتراتبي.

لذا تعدّدت أصوات النقاد في بداية تكوين الثّقافة البيئيّة، وفقًا لاختلاف اتجاهاتهم، فمنهم من نادى بدراسة البيئة بوصفها علمًا[2]، مثل عقلانيّ التنوير، ومنهم من قدّس الطبيعة[3] كما ظهر ذلك في الشعر الرومانسي، ومنهم من حمّل نفسه القلق حيال ما تؤول إليه البرية نتيجة للتضخم بأشكاله، ومنهم من وصف النّقد البيئي بالنزهة، كما نعته ثورو[4] في دلالة على التضخيم، غير أنّ غيلين لوف Glenn Love (1932- ...) ربطها بالقضايا الأخلاقية، فتكوّنت الثقافة البيئيّة (الإيكولوجيا الثقافيّة)، التي تبعها رواد يدافعون عن النظريّة البيئيّة، وينادون بتعجيل إيقاف

---

(1) بليت، جان ماري: المرجع السابق، ص 46-47 (بتصرف).

(2) فقد شكك البنيويون وبعض البيئويين بكون دراسة البيئة هي دراسة علمية، على اعتبار أن العلم موضوعيًا، لا يخضع لمنظومة القيم، إلا أنهم مع الوقت تأكدوا من وجود فجوة كبيرة في هذا المعتقد والواقع البيئي، راجع: جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 23.

(3) وصف بارشرز المقدسين للبيئة في نقده لهم بأنهم مصابون بالهستيريا، لتضخيمهم المسائل الخاصة في البيئة وإن صغر حجم المشكلة، في محاولة منه بالتعقل حيال مفهوم التلوث الذي انتشر في الثقافة الدعائية والسياسية، برعاية البنيويون، فأدت لنشر الرعب الهستيري. راجع: المرجع السابق: ص 23-26.

(4) أعلن ثورو عن رأيه في محاضرة بعنوان: "التنزه"، راجع: كوهن، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 47.

الهمجيّة الاستهلاكيّة، على عدّة أصعدة تمثّلت: بالصعيد السياسي الذي ناقش المشكلة العلميّة بوعي قانونيّ، والصعيد الاجتماعي المنادي بتغيّير المفاهيم الاستهلاكيّة المدمرة ببناء فكر موضوعيّ، بالإضافة إلى الصعيد الثقافي والأدبي اللّذين قدما فهمًا للخطاب البيئي ومجازاته البلاغيّة، بعمق نسقي يوضح آثاره في استجابة الجمهور.[1]

وبهذا أسهمت الفلسفة في امتزاج عِلم البيئة مع مجالات مختلفة، كعلوم السّياسة والثّقافة؛ ليحمل- إلى جانب كونه علمًا طبيعيًّا- مفاهيم سياسيّة، كذلك حمل ملامح ثقافيّة انعكست على الفنون، والإعلام، والأدب، والموسيقى، والأفلام، بالإضافة إلى العمارة،[2] فعكست الأعمال الفنيّة العلاقات الإنسانيّة المفعمة بثقافات هراركية في الخطاب السام[3]، تلك التي تكوّنت بواكيرها منذ العصر الإغريقي، ولا سيما مع توظيف الأدب للاستعارات المركزيّة عن الطبيعة؛ ليكون الأدب حليفًا للبيئة في ثالوث متداخل العلاقات: النّص/ الأفكار/ الأزمة البيئيّة.[4]

فاهتمام العالم في الآونة الأخيرة بالبيئة، علميًّا، وثقافيًّا ومجازيًّا، بعد تصريح لورانس بويل (1939) بأهمية البيئة كونها مكان عيش الإنسان ووجوده، وبتطور النظرة التفسيريّة في العقد الأخير من القرن العشرين، متأثرةً بالحالة السياسية التي شكلت شعور الإنسان بالخوف نتيجة التهديد الحيوي في العالم.[5]

وقد أشار كينث بيرك (1897-1993) في (مواقف اتجاه التّاريخ 1937)، إلى علم نعته بالصغير الرقيق: هو علم الإيكولوجيا (علم البيئة)، مسلّطًا الضوء على أهمية العلاقة بين الطبيعة والثّقافة، بهدف نشر الوعي الاقتصادي، موظّفًا المصطلحات التي مثّلت عمقًا معرفيًّا في "التفكير الأخضر"، مثل: "بلاغة الرواية، العمى والبصيرة، قلق التأثير، السرد كفعل اجتماعي"، مفسّرة أثر

---

(1) كوهن، مايكل، المرجع السابق، ص 26-27، كوب، لورنس، (كينيث بريك رائد النقد البيئي)، 190(بتصرف).

(2) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 17، 180. (بتصرف)

(3) ويسلنج، لويس، (الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان)، ص 329.

(4) جرارد، جريج، المرجع السابق، ص 17، وراجع: برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ترجمة معين رومية، النادي الأدبي الثقافي في جدة، العدد36، 2007، ص 36.

(5) جليكيكا، توشيتس، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ترجمة: سناء عبد العزيز، مجلة فصول، المجلد (2/26)، العدد 102، شتاء 2018، ص 328-329 (بتصرف). وراجع: ويسلنج، لويس، المرجع السابق، ص 329، وراجع: مارلاند، بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ص 13.

الأدب الهزلي، والثيمات الشعريّة، في مهاجمة الهوس الاستهلاكي، بهدف العودة للحياة الأسريّة الآمنة.[1]

فقدّم عدد من النّقاد دراسة البيئة بصفتها مجالًا ثقافيًّا لأسباب مختلفة، من أهمها ما جاء في التراث الإنسانيّ منذ نشأته؛ إذ كانت البيئة هي الحليفة الأولى للإنسان في حلّه وترحاله؛ ومادته الأولى في التعبير والوصف لمكوناتها، ومشاعره اتجاهها، عبر عنها من خلال الخيال الأدبي، ومن الأمثلة على هذا التراث مسرحيّة أوديب التّي جسّدت انتشار الوباء، وقلق الإنسان تجاه هذا الخطر، أما الكتاب المقدّس فقد بدأ بقصّة طرد آدم وحواء من الجنة، كما بدأت الكوميديا الإلهيّة باستغراق دانتي وتأمله للبرية الفاسدة، والملحمة البابلية / السومرية القديمة، وجلجامش، والياذة، وهوميروس، والأوديسة، والملحمة الإنجليزية القديمة بياولف، والرومانسيّة الإنجليزيّة الوسطى، السير أورفيو"[2]، وإلى جانب ذلك ما ورد من تفسير لما قدّمه أرسطو من اهتمام في البيئة، وعلاقته بالفنون والآداب،[3]بوصفها مظهرًا أساسيًّا من مظاهر الحياة الإنسانيّة، الذي يستدعي القلق حيال الأخطار المختلفة.

وبذلك بدأت دراسة الأدب تتجدد في محاولة لإظهار إبداعه في تطوير الوصف المكاني، والإحساس به وفقًا لزمانه، وتعزيز مفهوم الزمكان المتصل في الأدب، كما وصفه ميخائيل باختين (1895-1975)، مُوضّحًا الأبستمولوجيّة بدوائر أربعة تتمثل "بالرواية على الشعر، والزمان على المكان، والزمن الخطي على الزمن الدائري، والكرنوتوب الثقافي على الكرنوتوب المشتق من الطبيعة"[4]، في تصور يُظهر مركزيّة الزمكان في الحياة الإنسانيّة خاصة، والإحيائيّة عامة.

من هنا ارتبط المكان والطبيعة في الأدب عند النّقاد البيئيين بإيحاءات الفلسفة الإيكولوجيّة المنعكسة على "الثّقافة البيئيّة"، التي التحمت بفكر الهيمنة الجندريّة، والطبقيّة،

---

(1) راجع: كوب، لورنس، (كنيث بريك رائد النقد البيئي)، ضمن كتاب: (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 189- 194 (بتصرف).

(2) برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ص 33.

(3) راجع: توسيتش، جيليكا، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 329، وراجع: برانش، مايكل، المرجع السابق، ص 35-34(بتصرف).

(4) الكرنوتوب مفهوم دال على الزمكان، راجع: موللر، تيمو، (إيكولوجيا الكرونوتوب الأدبي: باختين والنقد الأدبي)، ضمن كتاب: (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 175- 177 (بتصرف).

والعرقيّة، الذي جعلهم يقدمون دراسات تهدف إلى ابتكار أدوات ثقافيّة جديدة؛ تسهم في بناء مجتمعات يسودها أيدولوجيات تكسر مبادئ التراتبيّة وتحقق المساواتيّة الإيكولوجيّة.[1]خاصة بعد الاستعمار لما أحدثه من كوارث في حروب دامية، وعنف مقيت، وتخريب مدمر، رفع مستوى التوتر والقلق البيئي؛ باختراق الأيدولوجيّات، لإنتاج قيم أخلاقيّة جديدة من خلال نشر ثقافة تعزز مبادئ المساواة؛ لذا سُلّط الضوء على الموروث الأدبي، بصفته خطابًا ثقافيًّا متوفرًا، في منهجيّة موجّهة حول البيئة وسبر أغوارها، وذلك لأنّ الأدب جزء من الثّقافة، بل إنّه منبع القوّة على حد تعبير شيرلي جلوتفيلتي (1930-2014) في كتابها: (Ecoriticism Reader): إنّ "تعليم القراءة والخطاب النّقدي يطلقان الطّاقة والقوة"[2] فقوّة الأدب تتخطى المعنى الثيماتي (الموضوعات) للوصول إلى المعنى العميق في "أشكال الاتصال الجمالي"، وتطورت لتصل إلى: "الإمضاء التوليدي للنصوص".[3]

وفي عام (1970) كانت ثورة الأرض التي قدّم فيها جوزيف ميكر(1974-....) دراسة بعنوان "كوميديا البقاء على قيد الحياة" برهن من خلالها قدرة الأدب على دراسة النماذج العلميّة، وتبعه ليو ماركس (2001)، وأرنست رينو (1823-1892)، وليامز (1921-1988) بدراسة السياق الإيكولوجيّ في الأدب الرعويّ الأمريكيّ والبريطانيّ، ليبيّن مظاهر التطور وأثر التمدّن.[4]

وكما كانت لثورة الأرض الأهميّة في العمل الأدبي في المجال البيئي، كان أيضًا الأهميّة في تأليف الكتب البيئيّة لتايلور في عام (1972) إذ قدّمت تنبّأ بثورة تغير كل الثّقافة البيئيّة في منظورها الأخلاقي والسياسي والاقتصادي، والاجتماعي، والنفسي، والتقني.[5]

---

(1) راجع: مفهوم:" الثقافة البيئية"، برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ص 34. أما مفهوم: "المساواتية الإيكولوجية"، ص 42-43(بتصرف).

(2) more4by Cheryll Glotfelty (Editor), Harold Fromm (Editor), Michael P. Branch (Contributor), & 2: Ecocriticism Reader The Ecocriticism Reader: Landmarks in Literary Ecology Paperback – May 1, 1996.p: 109.

(3) زابف، هوبرت، (الإيكولوجيا الثقافية اتجاه جديد في النقد البيئي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص158.

(4) راجع: بيل، لورانس، وآخرون، (الأدب والبيئة)، ص 336- 337(بتصرف).

(5) حفناوي، بعلي، (آفاق النقد الثقافي الإيكولوجي اخضرار العلوم الإنسانية)، ص114، بيل، لورانس وآخرون؛ المرجع السابق، ص 337

وفي أواخر الستينات والسبعينات سعت الدراسات للتغيّر والإصلاح، إلا أنّ هذه الدراسات اتّصفت بالفوضى، لعدم وجود المنهج العلمي الواضح[1]، ومنها: ما قدّمه الناقد الماركسي البريطاني ريموند هنري وليامز (1973-....) للأدب الرّعوي؛ ظهر بصورة النّقد الإكلينيكي. كذلك كتاب جوزيف ميكر "كوميديا البقاء" (1974)، الذي دعا فيه للأخلاق البيئية. وبعد عقد من الزمن (1989) دعا غيلين لوف في خطابه يوم ترسيمه رئيسًا للجمعيّة الأمريكيّة الغربيّة للأدب، لتأسيس علم النّقد البيئي، فكان خطابه ملهمًا للشباب الذين قابلهم.

لذا بدأت الدول في نهاية القرن العشرين (1978)، بالاهتمام بالمبادرات الجادّة التي قدّمتها المؤسّسات البيئيّة، بهدف مزج الثّقافة البيئيّة بالثّقافات الإنسانيّة، [2]وعلى رأسها الدراسة النّقدية التّي تسلّط الضوء على الثّقافات والأيدولوجيّات التّي تذوب في الخطاب الأدبي، ويقدمها النّقد الثّقافي في رسائل مُوجّهة تعمل على تقويم الموروث من الأدب، وتطويره في الوقت نفسه. [3]

وعلى الرغم من أنّ ويليام رويكيرت(1926-2006) أول من أطلق مصطلح "النّقد البيئي"، في مقالة "الأدب وعلم البيئة: تجربة في النّقد البيئي"1978م، فإنّ النّقد البيئي في حراكه النّقديّ العمليّ يدين إلى راشيل كارسون (1907-1964) لتأليفها "الربيع الصامت" (1962)، الذي فتح أفقًا واسعًا للدراسة العمليّة.[4] ولعلّ توظيفها للاستعارات المركزيّة عن الطبيعة"[5]، أسهمت في تمثل المصطلح النّقدي، بدءًا من شعريّته في الوصف لأسراب الطيور، انتهاءً بتنبؤاته حول انهيار المنطقة، فمزجت بين الصّور الجماليّة، والمعلومات العلميّة بمغزى مفاده: أنّ الدمار قادم لا محال في حال استمراريّة الفكر الاستغلاليّ، من دون ضبط أو قانون.[6]

---

(1) ويسلنج، لويس، المرجع السابق، ص 366-386 (بتصرف).

(2) راجع: بيل، لورانس، وآخرون، (الأدب والبيئة)، ص 329، ومارلان بيبا، (مقدمة في النقد البيئي)، ص13.

(3) زابف، هوبرت، المرجع السابق، ص158.

(4) ويسلينج، لويس، المرجع السابق، ص368.

(5) كتاب نشر في 1962 للكاتب راشيل كارسون، مهد لبداية مذهب نقدي جديد، لما قدمه من وعي بيئي جديد، وقد وصفه تشير تشريل غلوتفلتي في كتابه دليل القارئ للنقد البيئي بأن العرق والجنس والطبقة موضوعات ظهرت في آخر القرن العشرين، لم يُسمح لها بالتعبير عن نفسها بفعل الضغط الخارجي عليها. راجع: مارلان بيبا، المرجع السابق، ص 10-11(بتصرف).

(6) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص14.

وقد تطوّرت الدراسة الأدبيّة، وأُعيد النّظر في تحليل النّصوص الأدبيّة، مثل أعمال رواة الحج في أوروبا بالعصور الوسطى، وشعر الأماكن الإيرلندي، والأدب الرعوي الأمريكي والأوروبي، والشعر التقليدي عن الطبيعة في اليابان والصين، وأعمال الاستكشاف لرواد النهضة التنويريّة، ثمّ مناقشة نظريّة مثاليّة إيمانويل كانط بالأفكار المتساوية، والمصطلحات الحديثة مثل البراجماتية، والظاهراتية، وأنماط ما بعد البنيويّة، ومن أشهر المؤتمرات: ما نظمته الولايات المتحدة الأمريكيّة، لبحث "النظريّة النّقديّة المرتبطة بالبيئة"(1992)، فتأسست جمعية (ASLE) التي عُنيت "بدراسات الأدب البيئي"، أو "النّقد البيئي" . فضمّت عددًا كبيرًا من المهتمين وصل عددهم إلى ألف منتسب (عضو)، كما أصدرت مجلة دراسات متخصّصة في الأدب والبيئة، أسهمت في إعادة النّظر في النّصوص الأدبيّة بوجهة بيئيّة؛ كما قدّمت دراسة لإعادة النّظر في مثاليّة إيمانويل كانط، والمفاهيم الرومانتيكيّة والبرجماتيّة والظاهراتيّة ولما بعد البنيويّة، بهدف تعديل الفكر التراتبيّ.[1] كما أنّها -الجمعيّة- قدّمت منحًا دراسيّة دوليّة كتحفيز للباحثين، فتفاعلت الجامعات وقدّمت الأبحاث الهامّة في القيمة البيئيّة.[2] في محاولة لإنقاذ العالم، وفقًا لمفاهيم ارتبطت بمصطلح الاستدامة الديناميكيّة، التي تسوّغ لنظام تربوي يَقوده السياسة[3].

لكن الأمر مختلف عند لورانس بويل الذي قدّم مصطلح (الخيال البيئي- Environmental Fantasy)؛ ليجمع بين ما هو مادي من جهة، وما هو روحي من جهة أخرى، شارحًا أهمية المكان في ترك البصمة الروحيّة، ففي وصف الخيال البيئي في المدينة يختلف عن غيره، لذا كان من الضروريّ تحديد "الجغرافيا الثقافيّة للمنطقة"،[4] موضحًا أهمية القيمة البيئيّة، وارتباطها في استشعار الأزمة التي تحتاج منا لوقفة إصلاحيّة، ووافقه بذلك النّقد الأمريكي، إلا أنّ هناك عددًا من النّقاد البريطانيين أعادوا جذور الأزمة لأسباب سياسيّة بحته.

---

(1) ويسلينج، لويس، (الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان)، ص 368، وراجع: كوهن، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص 47، وأيضًا: كوهن، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص 47. (بتصرف).

(2) Buell, Lawrence. 1998. Toxic Discourse. Critical Inquiry 24(3): p 639-640.

(3) Garrard, Greg. 'Towards an Unprecedented Ecocritical Pedagogy', in Teaching Literature: Text and Dialogue in the English Classroom, ed. B. Knights, 2017, P: 189.

(4) راجع: جليكيكا، توشيتس، (النقد البيئي دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 331.

وبتتبع وجهتي النّظر السابقتين يظهر المسار النّقدي البيئي الأمريكي قد عُني بتفسير الخيال البيئي، العاكس للميراث البريّ وغير البريّ، ومن رواده: هنري ديفد ثورو (1817-1862)، ووليام موير(1819-1905)، وثورو وجون (1817-1862)، وماري هنتر أوستن (1868-1934)، ثم إدوارد آبي (1927-1989)، فقد ركزوا على القيمة التعليميّة التّي مثّلت الموروث الثّقافي الأمريكي المتمثل بالتعالي، في وصف العلاقة الفرديّة بالطبيعة. أما ما قدّمته المدارس البريطانيّة ظهر متوافقًا مع ما كان عليه الأدب في تلك الفترة من هيمنة للإيكولوجيّة الرومانسيّة، تقاسم فيها الشاعر الهشاشة والضعف مع الطبيعة، ومن أهم روادها: ويليام وردزورث (1770-1783)مؤلف "التراث البيئي" (1991)، و"أنشودة الأرض" (2000)، إلا أنّ النّقد البيئي البريطاني كان يصب بالمنحى التهديدي، الذي يحذر من هول الأزمة البيئيّة الواقعة بسبب الصّناعة والتجارة والاستعمار.[1]

****

ثانيًا: النّظريّة الأدبيّة والأيديولوجيا:

لعل العلاقة بين النظريّة؛ أيّة نظريّة، والأيديولوجيا هي بمثابة المهاد الأكبر الذي تتولد منه الممارسات البيئيّة التي تخضع للفلسفة البيئيّة؛ ولهذا فإن امتداد المبادئ النظريّة في إطار البيئة- كما ورد فلسفيًّا في المبحث السابق، جاء مرتبطًا بأيديولوجيا وفكر وعقل من إنسان معنيّ بهذه البيئة ومعنيّ أيضًا بالأدب الذي ينتج عنها، الأمر الذي يجعل رصد هذه العلاقة مهمة نقديّة تخدم النّقد التطبيقي في مجال أدب البيئة والطبيعة.

وما دام العقل هو وسيلة الإنسان الأولى في التفكير، فلابد من تطوير نظرياتّه ومناهجه، خاصّة إذا وصل مستوى الوعي إلى إدراك أهميّة مراجعة كل ما وصل من التاريخ. وبالنّظر إلى النّظريات وتمحيص معطيات نشأتها والإرهاصات التّي شكّلتها ومبادئها، بنضج ووعي فكريّ ثابت، بعيدًا عن الوعي اللاّهوتيّ، فإنّه يظهر للدّارس أنّ النّقد الأدبي جزءٌ من المعارف القديمة الأصيلة، التّي تشهد حركة تطويريّة متوافقة مع الحداثة الأوروبيّة، لتنشأ النظريّة الأدبيّة.[2]

---

(1) المرجع السابق؛ (النقد البيئي)، ص 12-13(بتصرف)، وكذلك: هلينا فيدر، (النقد البيئي وإنتاج المسوخية في رواية فرانكشتاين)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص261.

(2) منصورية، فتحي، (النقد الأدبي المعاصر وأركيلوجيا التحول: ما بعد النسق: هيرمينوطيقا ما وراء المنهج)، مجلة النقد الأدبي فصول، المجلد (26/2) العدد 102، 2018، ص 166.

ثّمة إشكالات متعدّدة اقترنت مع نشأة الأدب ودراسته؛ فبين فهم ما هو أدبيّ وما هو غير أدبيّ، أو ما هو كلام يوميّ أو مؤلف علميّ، ظهرت آراء مختلفة تعكس إيديولوجيات متنوّعة واتجاهات متباينة وكلها يستهدف الأدب بأجناسه ونصوصه؛ فمن الأساس البراغماتيّ إلى الجماليّ، ظلّت هذه المكاشفة النّقديّة تتقصّد جوهر الأدب، ومنذ العصور القديمة وما عُرف عن الشعر الغنائي والملحمة والمسرحية، وغيرها من الفنون التّي عرفها الإنسان وميّزها لما لها من حسّ جماليّ ودلاليّ مختلفين، وإلى أن ظهرت مشكلة الأجناس الأدبيّة، وما فيها من تصوير وخيال يناسب كل جنس، بل يناسب كل نوع أدبيّ في الخرافة والسّرد وغيرهما[1] غير أنّ الثابت في كل هذا، ومع ظهور النّقد الجديد، فإن هناك حقيقة منهجيّة دامغة ترى أنه على الرغم من أن الأدب فنّ فإنّ دراسة الأدب عِلم يستقي أصوله وأدواته من مبادئ فلسفيّة عبّرت عنها مناهج نقديّة متعاقبة.

وكان من نتاج هذا الوعي الفكريّ والعلميّ أن نشأت النظريّة الأدبيّة ضمن مناهج العلوم المطوّرة، فمثل ما هو حاصل في الشّكلانيّة، والبنيويّة، والسيميوطيقا، ونظريّة الاتصال والتواصل، ومناهج التحليل النفسي، والاجتماعي، وبهذه المسميات تظهر سيطرة الأيديولوجيّات على فكر أصحاب كل مذهب، أو اتجاه، وإنّ من الجدير بالذكر أنّ النّظريّة البنيويّة، وتتبعها النظريّة التفكيكيّة- على سبيل المثال- قدمتا رؤىً شاملة انطلقت منها منهجيات نقديّة، وتشكلت وفقًا للمرجعيّات الفكريّة، والروافد الفلسفيّة، والمنشأ السيسيولوجي، والسياقات الثقافيّة التي تبنتها.[2] وقد وصف رينيه ديكارت (1596- 1650) الأدب بقوله: كنت عظيم التقدير للبلاغة، وكنت مولعًا بالشعر؛ ولكني رأيت أنّ كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسيّة، لا من ثمرات الدروس".[3]وهذا تأكيد أنّ الأدب وثيق الصّلة بالنفس الإنسانيّة المتعلّقة بأيديولوجيّات تكوينها.

---

(1) راجع: وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ للنشر، السعودية، 1992، ص 36- 39 (بتصرف).

(2) منصورية، فتحي، المرجع السابق، ص 166.

(3) ديكارت، رنيه، (مقال عن المنهج، لأحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم)، ترجمة: محمود محمد الخضري، المطبعة السلفية ومكتباتها، القاهرة، 1930، ص 10.

وليس مستغربًا ما قدّمه كاهن في تحليل العلاقة الأدبيّة والإيديولوجيا[1]؛ في اعتقاده حول النقد أنه لا يقوم على تحليل لعمل أدبيّ يُظهر تجربة لكاتب أو لشاعر، في تفسيرات (لمصادر التعبير)، ولا حتى في بيان السّياقات الثّقافيّة المسيطرة على النّصوص الأدبيّة (شكل الاتصال)، إنما هي توضيح للعلاقة بين ما يقدّمه المؤلف والواقع وفقًا لمرجعيات علميّة محدّدة ومعروفة (غاية المحاكاة)، بهدف الوصول للصلة الحقيقيّة بين المكتوب والواقع أو المستقبل من معتقدات وغيرها.[2] وبالرغم من بروز وظيفة الأدب منذ العهد الأفلاطونيّ، بطرح القيم والأخلاقيات، وتحديد علاقاته بعلم النفس والمجتمع، فإنّ وظيفته الأساسيّة هي الوفاء لطبيعته، كما أكّدتها المدرسة الرومانسيّة في تبني رأي برادلي (A.C Brqdley) أنّ الشعر للشعر.[3]

وبهذا المفهوم بدأ البحث في ماهية الفنّ وأدبيّة الأدب، وامتد إلى النّظر في تاريخ العلوم، فأدّى الوعيّ التاريخيّ إلى استحضار اختلافات ومفاهيم ومعارف ومبادئ وأولويات عديدة، أسهمت في فهم الاختلاف الفكريّ من جيل لآخر، فما قد يعُدّه جيل خرافة، قد يكون عند آخر مُسلمة، وقد وصف آرثر لفجوري (A.Lovejoy- 1872-1962) بأن ما يسبر أفكار الجيل أو مدرسة ما هو الاستدلال أو حيل المنطق، أو الفرض المنهجي؛ لتعبر عن قضية منطقية كبيرة تمثل موضع جدل، ولمدة طويلة، وبهذا الرأي يُؤكّد لفجوري مسألة تنامي الفكر الإنساني بطريقة تراكميّة ومتجددة، عبر عنها توماس كون بتأكيد أنّ "تاريخ العلم سلسلة من النّماذج الإرشاديّة المتعاقبة" فسيطرت المفاهيم

---

(1) الأيديولوجيا أو الأيديولوجية: باليونانية القديمة ἰδέα :إيديا، «فكرة»، و λόγος لوغوس، «علم، خطاب»؛ بالعربية: الأدلوجة، الفكروية، الفكرانية، العقيدة الفكرية، وهي "نسق شامل وكلي لجميع الأفكار، والمعتقدات، والاتجاهات، التي تسيطر على الأنماط السلوكية، في انعكاس الأسس الأخلاقية للفعل البشري الواقعي، فتعمل على توجيهه. إلا أن هذا النسق قادر على تبرير الأفعال والتصرفات، وإضفاء المشروعية عليها، فهي تمثل جهة النظام وجهة الدفاع عنه. والأيديولوجيا اليوم أصبحت نسقاً مرنًا، يمكن مناقشته وتغييره وفقًا للتغيرات الراهنة والمستقبلية، وعلى جميع المستويات المحلية أو العالمية." ظهر المصطلح عند المفكر أنطوان ديستوت دوتراسي Destutt de بمبدأ يصف العقل وعاءً للحس وأساس المحسوسات، راجع: أنتوني جيدنز، "مقدمة نقدية في علم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون"، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002، ص 25. وراجع: عمرو عيلان، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في رواية عبد الحميد بن هدوقة، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001، ص11.

(2) كاهن، شلوم ج، (ماذا نصنع بالتحليل؟ في ظاهرة الاقتراب من الأدب)، ضمن مجلة (في الفلسفة والبحث في الظواهر الطبيعية)، جامعة بورفالو، سبتمبر 1952-يونية1953، المجلد 8، صفحة 237-245، وراجع: إمبرت، إنريك أندرسون، مناهج النقد الأدبي، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1991، ص 15.

(3) وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 54-55 (بتصرف).

الكبرى بروافدها الفلسفيّة على التطور الفكريّ العام، وفي جميع المجالات. وكان المجال البيئي من العلوم المُتأثرة بالفكر الفلسفي فظهر بانعكاسات أيديولوجيّة واجتماعيّة[1]، بدت بدورها في عناصر بناء النّص الأدبي المتعلق بكتابة الطبيعة منذ العهد الأفلاطونيّ.

ويُلاحظ على ما قدّمه النّقد اليونانيّ القديم من تحديد لوظائف الشعر، الملحميّ والكوميديّ، والتراجيديّ وفقًا لنظريتيّ المحاكاة والتطهير[2]، أنّ الأمر خضع في جوانبَ منه للأيديولوجيّة المركزيّة، واستمر فيما تلاها من نظريات نقديّة حديثة وُسم قالبها الأيديولوجيّ بصبغة اجتماعيّة وفلسفيّة جيدة تدعو للمساواة ونبذ التراتبيّة، كما في النظرية المعرفيّة.

وبظهور النظرية التعبيريّة أُعيد النظر في الأيديولوجيا الفرديّة للأدب، وحرّية التفكير والتعبير للمؤلف، لكن سرعان ما انتشرت النّظريّة الكلاسيكيّة والليبراليّة الاقتصاديّة، اللتان قدمتا المجتمع، فقد عدّ النّقد الماركسيّ أنّ الأعمال الأدبيّة، ما هي إلا انعكاس إيديولوجيّ، يُوظف في طرائق التخييل التّي يوظّفها الأديب لاختبار العالم الواقعي،[3] وفي إطار الفلسفة المثاليّة التّي ركّزت على أيديولوجيّات تمركز الذّات الإنسانيّة وُجِدَ السياق الذّاتي المعتمد على تقديم الشعور بوعي عاطفي، ثم مُيّزت المعرفة العقليّة- في ظل الفلسفة الهيجليّة- من غيرها من المعارف الحسيّة، ولكن سرعان ما عاد الاهتمام الفنيّ بالأدب بظهور فلسفة كانط.[4]

أما الأيديولوجيّا التّي رافقت نظريّة الخلق الداعية للاهتمام بالفن ورفض (العلم، أو الدين، أو الأخلاق، أو المجتمع)؛[5] فإنها قدّمت أيديولوجيّات تعي بتكامل الفرد مع بيئته ومجتمعه، تلك التي تكوّنت فيما يُعرف بالنظريّة الواقعيّة، ودخولها ضمن النظريّة الأدبيّة ونشأة النّقد الجديد.

---

(1) راجع: الخولي، يمنى طريف، (فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 264، ديسمبر2000م، ص399-400 (بتصرف) وراجع: لفجوي، آرثر، سلسلة الوجود الكبرى، ترجمة: د. ماجد فخري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1964، ص 50. وكذلك إبراهيم علي، المجال الأدبي والمجال الأيديولوجي، مقال، دفاتر المركز، رقم 7-2004، منشورات (crasc) جامعة وهران، ص58.

(2) راجع: عياد، شكري، (أرسطو طاليس في الشعر)، دار الكتاب العربي، القاهرة،1967، ص52. كذلك: الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ص 44-45.

(3)Marocism and Literary. University of California press. 1976 - pp.16 - 17.

(4) راجع: القلماوى، سهير، (فن الأدب، المحاكاة)، مكتبة الحلبي، القاهرة،1953، ص105، وتليمة، عبد المنعم (مقدمة في نظرية الأدب) دار الثقافة،1976، القاهرة، ص194، كذلك راجع: الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، ص55. وإبراهيم علي، المرجع السابق، ص63.

(5) الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، ص69- ص71، وراجع:(فن الأدب، المحاكاة)، ص139. وص 73.

وبهذه التّنقلات التّي طرأت على النّظريّة الأدبيّة، في إطار اشتغالها وتحديد وظيفتها، فقد استفادت البنيويّة الفرنسيّة من المدرسة الفرانكفورتيّة الألمانيّة، إلّا أنّ النّاقد بيير زيما Pierr Zima، رفض المبالغة في الدراسة النّسقيّة، مستفيدًا من آراء النّاقد تيودور أدورنو Theodor Adorno، في مقاومة الأيديولوجيّا التّي تُكبل النص وتُثقله، والاكتفاء بدراسة الإطار السوسيولوجي بتواصل النّص مع الإطار المجتمعي [1].

وفي ضوء التطور النّقدي، بدأ كسر قيود فهم الأنواع في النظريّة الأدبيّة المعاصرة، بتهميش الأبعاد المرجعيّة للأدب، وفتح الأفق لفهم البيئة والنّص، وفقًا لمنظور أدوات تَتَمثل- بالتّناص والأيديولوجيا- في مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالخطاب البيئي، مثل: الفضاء، ببعديه الزماني والمكاني، كما قدّمت البنيويّة وما بعد البنيويّة ربطًا للخطاب الأدبي مع العالم، من دون التفريق بين النص الأدبي واللا أدبي، بهدف الدمج بين النتاجات اللفظيّة ضمن دراسة موسعة للتّناصيّة[2].

فتجاوز بذلك الأدب وظيفته الجماليّة، وأصبح قوة ثقافيّة تكمن فيما يقدّمه من وظائف إيكولوجيّة انبثقت من إيديولوجيّات حديثة ولدتها عقيدة الاهتمام في مسائل الأزمة البيئيّة، فتحمّل الأدب مهمّة رصد كلّ الأخطاء في المجتمع، وخاصّة المضمرات الكامنة عن الوعي واللاعي فيما يحيط بالعالم من قلق بيولوجي، ثمّ التجديد الثّقافي، في خطابات بيئيّة واعية لماهيّة العلاقات بين الإنسان ومحيطه، ومُفنِّدة لكل المخرجات الفكريّة المؤمنة بمركزيّة الإنسان، وتطويرها في مبادئ تدعو للتعايش في عالم يسوده التمركز الحيوي.[3]

ذلك لأن اختلاف الأيديولوجيا هي السّبب في الصّراع الطّبقي؛ لذا سعى النّقاد إلى تحديد علاقة الأيديولوجيا بكل من علم النّفس وعلم الاجتماع، ثم دراستها؛ لأنّ ما تُؤديه الأيديولوجيات في علم النفس معاكسة لما تؤديه في علم الاجتماع؛ ففي علم النفس تسعى لخلق انسجام شعوريّ[4]

---

(1) راجع: كفافي، محمد عبد السلام، (في الأدب المقارن، دار النهضة العربية)، بيروت، 1972، ص52.، وكذلك: منصورية، فتحي، (النقد الأدبي المعاصر وأركيلوجيا التحول: ما بعد النسق: هيرمينوطيقا ما وراء المنهج)، ص 179.

(2) راجع مقالة كوهن، اللامعة حزن الأخضر: (النقد البيئي تحت منظار النقد)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 135.

(3) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال هوبرت زابف، (الإيكولوجيا الثقافية، اتجاه جديد في النقد البيئي)، ص162.

(4) معالي، حنين، (الرواية بين الأيديولوجيا والفن، الرواية الأردنية أنموذجًا)، ط1، الآن ناشرون وموزعون، عمان، 2020، ص 58، 59، 63 (بتصرف).

بالانتماء الجمعيّ؛ أما في علم الاجتماع فتسعى إلى تحديد الإيديولوجيات الحاكمة للأفراد، وفي الحالتين لا يمكن أن يخلو الأدب من الأيديولوجيا الفرديّة (النفسيّة) أو المجتمعيّة.

لم تكن دراسة علاقة الأدب بالإيديولوجيات إلا طريقًا لمكاشفة القيم والثّقافات الكامنة فيه، على أساس أنّ النّص الأدبيّ جزء من المجتمع لا ينعزل عنه، ولأن الأدب أساس الإبداع الفكري المتولد من أفراد المجتمع، وبهذا تظهر العلاقة المتشابكة والمتقاطعة بينهما في دراسة الثّقافة في التوجهات العصريّة، وفقًا لأربعة منظورات تكوّنت في العلم الاجتماعي، تتمثل في الفينومنولوجيا بدعوتها إلى دراسة الظواهر من دون الرجوع للتاريخ والأفكار المسبقة [1]، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان وما يحمله من إيديولوجيات وتاريخ وثقافة، والبنائيّة والنّظريّة النّقديّة.

لذا فإنّ من الضّروريّ في التعامل مع النّص الأدبيّ التعمّق فيما يحمله من مقاربات ومضمرات، وقناعات وتوجهات،[2]في محاولة لفهم ما يحمله من ثقافة مجتمعيّة تنعكس على السلوك الفردي. وبسبب وجود الأزمة البيئية كان لابد من النّظر للأيدولوجيات بعين فاحصة، للوقوف على ما يتّصل بالفكر البيئي من جهة، ثمّ تبيان الخصائص التّي تُنتجها النّظريّة في سبيل نقد أدبيّ بيئيّ من جهة أخرى، ومن دون الإخلال بما يقدّمه الفنّ من جماليّات، ويكون ذلك بتناول الموروث المتعلق بالنظريّة الأدبيّة وتوجيه قيمه نحو خدمة البيئة بكل مكوناتها البشريّة وغير البشريّة، على النحو الآتي:

ماهية النظريّة الأدبيّة ونشأتها:

في دراسة الأدب لتأسيس قواعد شاملة منتظمة ومتكاملة، كعلم محدّد المعايير والمعارف، ظهرت محاور ثلاث عكست أيدولوجيات أصحابها[3]، هي: الدراسات الأدبيّة، والنّقد الأدبيّ، وتاريخ

---

(1) راجع: ريابوف، (الفن والإديولوجيا)، ترجمة: خلف الجراد، دار الحوار للنشر والتوزيع سوريا، اللاذقية، ط1، 1984، ص12، وراجع: مخلوف، حفيظة، (البعد الإديولوجي في نقد الرواية الجزائرية)، رسالة لنيل الماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009-2010، ص34.، وكذلك: بيتر بيرجر، وغيره، التحليل الثقافي، تقديم أبو زيد، أحمد، مكتبة الأسرة، علي مولا، القاهرة، 2009، ص 23.

(2) كيلو، ميشال، (لغة السياسة)، ص12، نقلا عن عيلان، عمرو، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسير، بنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001ص 31.

(3) من المسميات التي أطلقت على علم دراسة الأدب: فقه اللغة: Phiology، والبحث الأدبي: Literary scholar hip، والنقد scholar، إلا أن بويخ Boekh، عرف فقه اللغة بأنها " معرفة المعروف"، في تماثل مع تعريف جرينلو Greenlaw، الذي يدرس الأدب في لغته المرتبطة بالعادات والتقاليد والحياة السياسية، (التاريخ الأدبي)، بيد أن رواد المدرسة الرومانسية ومعهم

الأدب، وبظهور "النظريّة الأدبيّة" التّي قدّمت دراسة أسّست البناء الأدبيّ وأقسامه، فإنّها شملت في معناها الاصطلاحي نظريّة النّقد الأدبيّ، ونظريّة تاريخ الأدب، وذلك لتقاطع المعارف بينها، وتمازجها، بقدر يصعب على الباحث الفصل بينها. وبطبيعة الحال لا تقوم النظريّة الأدبيّة بمعزل عن الأيدولوجيات المؤسّسة للبناء الأدبيّ الاجتماعيّ والسياسيّ (تاريخ الأدب)، ولا بالأيدولوجيات المحمولة على النّقد والتقييم للمنتج الإبداعيّ (النّقد الأدبيّ).

وعلى الرغم من ظهور علوم منفصلة تدرس تاريخ الأدب (التأريخيّة)، والنّقد الأدبيّ منفصلة كعلم قائم بذاته، فإنّ الدراسات لم تنفصل في جوهرها عن المكوّنات الثّلاثة، وهي: الأدب والتاريخ والنّقد، ومثال ذلك ما قدّمه الدّارسون مثل: إرنيست ترويلتش Ernest Troeltsch (1865- 1923) في تاريخ الأدب، الذي تحول خلال دراسته لبحث في اللّغة عن الأسباب السيكولوجيّة، والاجتماعيّة التي دفعت الكاتب للتأليف، في استسقاء المعاني الميتافيزيقيّة والتوجهات الاجتماعيّة، والعادات والتقاليد؛ ليقف موقف النّاقد المفنّد والمفسّر والمعلّل للأحداث وفقًا للمعطيات اللّغويّة، ومنها أيضًا ما قدّمته دراسة فريديريك بويل Frederick A. Pottle (1841- 1914) في كتاب "مصطلح الشعر" حول "النسبيّة النقديّة"، التي لم تخلُ من تفصيل للتاريخ الأدبيّ في تنقلاته الفكريّة المصاحبة للأخلاق والدين[1]؛ لذا فإنّ دراسة الأدب، لا تقوم إلّا بهذه المكوّنات الثّلاثة التّي تتكامل من أجل فهم أدبيّة الأدب وعلاقته بالقيم.

وفي مقاربة لمكونات النظريّة الأدبيّة، التّي تتشكل من لحمة بين عناصر ثلاثة، هي: **المُنتج** الأدبيّ بخصائصه وأجناسه، **والكاتب** الذي يحمل أيديولوجيات مختلفة وريثة لمجتمعه وثقافته، وأخيرًا **المتلقي** وطرق استجابته؛ لتتحدّد طرق قراءة النّص وتأويله، سواء كانت داخليّة -تُعنى بالنّص نفسه- أم خارجيّة- تُعنى بالكاتب والمُتلقي-، وعلى اختلاف هذه العلاقة كونها في "محاكاة، أو تخيّل، أو انعكاس، أو انطماس، أو ارتباط عضويّ كما في نظريّات الحداثة." [2]

بويخ تبنوا مصطلح علم "الروح القومية"، وقد انفصل علم فقه اللغة في العصر الحديث في علم سُمي "بالفيلولوجيا" راجع: وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 57-59 (بتصرف).

(1) المرجع السابق، ص 57- 66 (بتصرف).

(2) راجع: فضل، صلاح، (مناهج النقد المعاصر)، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط 1، 2002، ص 16 – 17 (بتصرف).

وبظهور الأدب المقارن الذي يمثل دراسة آداب الأقوام المختلفة، كانت الأيديولوجيا [1]من أهم المقومات التي تُبنى عليها المفاهيم النّقديّة، إذ خضعت المؤلفات الأدبيّة للثقافة القوميّة المنتمية لها، بسطوة مؤسساتيّة، أو اجتماعيّة، حددت الخصائص العرقيّة، والمشاعر القوميّة، والمفاهيم القيميّة.

ولتتخذ الأفكار المُؤسسة لثقافة معينة، وأيدولوجيات ناتجة عن فلسفات ومعتقدات بعينها، نشاطًا نقديًّا، يشترط بها العلميّة والموضوعيّة والشموليّة، بحيث تُنتج منهجًا منظّمًا يمكن اختبار فاعليّته، لا بهدف إنتاج تحليل نقديّ فحسب، بل لتطوير أبستمولوجيا معرفيّة، تبحث في أعماق أنساقها الثقافيّة بهدف تفكيكها وتعريتها. وبهذا الوعي العلمي تحدّدت إنتاجيّة العمل النّقدي بشروط ثلاثة؛ تبدأ بـ"التصور المنهجي"، ثم "التنظيم النّسقي"، وأخيرا "التّوصيف العلمي"

بهذه الشروط يتحول الفعل النّقدي من ظاهرة دراسة واقع إبداعي، إلى خطاب نقدي لا يقدم حدودًا أحاديّة ينكفئ على البنيويّة الضمنيّة فحسب، بل يقدم نسقًا يبحث في البِنى الخارجيّة لبناء وتشكلات الخطاب الإبداعي.[2]

فقد تحدّدت وظيفة الخطاب الأدبي في قيود مختلفة الأيديولوجيات، بدأت منذ العهد اليوناني، الذي حدد وظيفة الشعر في نظريّة المحاكاة، بضرورة وجود القيم في المنتج الأدبي، في طابع أيديولوجي اجتماعي وفلسفي. أما الفكر الأرسطي فقد بيّن من خلال نظريّة المحاكاة في التراجيديا تحديدًا لوظيفة تنمية المشاعر وتمثلها ليقدم التّطهير الذي يصبو إليه المتلقي، وفي الأيديولوجيا المؤمنة بالفردانيّة، ظهرت نظريّة التعبير التّي تمنح الفرد حريّة التفكير ثم العمل، تحت شعار: "دعه يعبّر عن ذاته"[3] ومثلها الليبراليّة الاقتصاديّة، وقد وصف شكسبير أهميّة التّعبير في الشعر الجيّد بأنّه الفيض التلقائيّ للمشاعر القويّة، أما نظريّة الخلق فقد آثرت الفنّ الخالص، من دون النّظر لما يقيمه من (القيم، والدين والعلم، والأخلاق)،على اعتبار أنّ الناتج الأدبيّ كائن خلقه المؤلف، من خلال اللّغة (شعريّة النّص) أو (شعريّة الخطاب)[4]، أما (شعريّة

---

(1) وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 74 (بتصرف).

(2)منصورية، فتحي، (النقد الأدبي المعاصر وأركيلوجيا التحول: ما بعد النسق: هيرمينوطيقا ما وراء المنهج)، ص 166.

(3) راجع: علي، إبراهيم، (المجال الأدبي والمجال الأيديولوجي)، ص 58.، وكذلك: عياد، شكري، (أرسطو طاليس في الشعر)، ص 44- 50. وراجع: (فن الأدب، المحاكاة)، ص 105 (بتصرف)

(4) الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، ص 55، 69.

الواقع)،فقد عُنيت بالمجتمع في وعي ثقافي؛ ليكون المتلقي قارئًا للعمل الإبداعي، ومشاركًا في الوقت نفسه.

وحول ربط النّقد الحديث بالفكر البيئي فقد أكّد غلين لوف، النّاقد البيئي، أنّ وظيفة الأدب اليوم هي إعادة توجيه الوعي الإنساني- إشارة للأزمة البيئية- وذلك التزام أخلاقي.[1] وإن كانت الوظيفة الديناميكيّة للشعر- كما وصفها فولفغانغ آيزر- تقوم على أبعاد ثلاثة تتمثّل في الحقيقة والتخييل والتصوير، فإنّ الوظيفة الديناميكيّة للنصوص السرديّة تتمثل في علاقة خطابيّة لمحاور ثلاثة، هي: الوصف الثقافي، التخييلي المضاد، والخطاب الداخلي.[2] وحول الفكر العربي، فإنّ النّقد الأدبي عند العرب عُني بالمسائل الأخلاقيّة والقيميّة في الأدب منذ نشأته،إذ ظهر أثر الأيديولوجيا الدينيّة في المفهوم الأدبي والنّقدي على حد سواء، بضرورة الالتزام بالقيم والأخلاق، لا سيما بعد نزول الآية الكريمة "وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ" (الشعراء: 224-227).

ورغم الاختلافات في آراء الباحثين حول تكوّن الفنّ الأدبيّ، وأساس تشكُّله من عوامل فرديّة بحتة، أو من تأثر التاريخ والعوامل البيئيّة، تلك العوامل التّي تحدّد بأنها نتاج للظروف المحيطة بالمبدع ومجالاتها المختلفة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فإن هناك ما يشبه الاتفاق على أنّ المنتج الأدبي حصيلة فكر بشريّ مرتبط بالجماعة، ووُصف بأنّه "الروح المتغلغلة في العصر والمناخ الفكريّ" والمشتقة من الفنون الأخرى[3]. ولا شك في أن الاختلافات في زوايا الدراسة وموضوعاتها معقدة بسبب الأيديولوجيات المختلفة؛ وهذه الاختلافات المنهجية والأيديولوجية مرتبطة أيضًا بتاريخ العلاقات مع النظريات العامة للمجتمع، والسياسة، واللغة، والمعرفة، والتاريخ، تلك التي تُحدد في إطار سيكولوجي واجتماعي وفكري، كما سيتضح في المبحث الفرعي الآتي:

---

(1) كفافي، محمد عبد السلام، (في الأدب المقارن، دار النهضة العربية)، ص 52، وراجع: كوهن، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص 46.

(2) إن هذه الوظائف هي بالضبط الوظائف التي يستدعيها الناقد البيئي، في حيثيات تأويله النقدي، وفقًا لمبادئ النقد البيئي. راجع: هوبرت زابف، (الإيكولوجيا الثقافية، اتجاه جديد في النقد البيئي)، ص 157.

(3) وليك، رينيه، وارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 100.

النّظريّة الأدبيّة والأيديولوجيات الثلاث:

إذا كانت الأيديولوجيا تُعرف بعلم الأفكار، وما يحمله من قيم وأخلاق، يحققها الفرد بذاته، أو متأثّرًا بجماعته، فإنّ هذه الأخلاقيات والقيم تُعد نتاجًا ثقافيًّا ومجتمعيًّا، أكّده ماركس بتعريفه لها عندما جعلها جزءًا من كيان جماعة في المجتمع أو حزب سياسي، أو طبقة اجتماعيّة..[1] ولأن الأدب وفق تطوراته وتغيراته المستمرة يقع ضمن تيارات تنسجم والأيدولوجيات المُنتمي لها، حدّدها رينيه وأوستن، في ثلاث تيارات هي: علم النّفس (سيكولوجيا التأليف)، وعلم المجتمع (السوسيولوجيا)، والأيديولوجية الفكريّة[2].

وقد ظهر تأثر الأدب بالأيديولوجيّة النفسيّة في كل المذاهب الأدبيّة، بدأً من المذاهب المتبناة للنظريّة الأفلاطونيّة، في محاكاة الحقيقة المثاليّة، والتّطهير عبر الملهاة والتراجيديا، مبيّنًا المدرك المرئي والمدرك الذهني، ليحتفظ الإنسان بأفكار يشعر بها وينمّيها، وفي خاصّية "السينثيا "التّي ترتبط بالأديب وقدرته على الإدراك الحسيّ السمعيّ والبصريّ لكل ما هو حوله، ويوظفها في ترجمة مجازيّة؛ معبّرًا عن ميتافيزيقيا جماليّة، وسواء أكان متأثّرًا باللاشعور الفردي، أم كان متأثّرًا باللاشعور الجمعي في تأثّره بوصف أعماق الشّعور، فقد ذكر كارل يونج (Carl Jung 1875-1961) أنماطًا أربعة تسيطر على السيكولوجيا النفسيّة تتمثل في "التفكير والشعور والاستبطان والحسّ، وعليه ظهر المؤلف الكلاسيكي "الصانع"، والرومانتيكي "الممسوس"، وبين الوعي واللاوعي، فإنّ عمليّة الخلق الأدبيّ تنبع من إدراك الواقع، وصدق العاطفة، وعناصر الخيال.[3]ووفقًا لنظريّة

---

(1) راجع: خليفة، عبد الرحمن، وإسماعيل، (في الأيديولوجيا والحضارة والعولمة)، مكتبة بستان المعرفة، ط 1، مصر، 2001، ص 32 (بتصرّف)، وراجع: العروي، عبد الله، (مفهوم الأيديولوجيا – الأدلوجة)، المركز الثقافي العربي ودار الفارابي، المغرب وبيروت، ط1، 1980، ص 9-10 (تصرّف).

(2) غير أن عددًا من الكتب الاجتماعية صنفتها بالأيديولوجيا العلمية. الأيديولوجيا الفكرية. الأيديولوجيا الطبيعية. وما ينظر في علم الأحياء وطبيعة الحياة البشرية والأيديولوجيا الدينية وغيرها. راجع: وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 99-101 (بتصرف). وراجع: ستيفن، روز، وآخرون، (علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية)، ترجمة: د مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد 148، 1990، ص 7-8 (بتصرف).

(3) وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 120-131 (بتصرف).

المعرفة (الأبستمولوجيا) فإنّ المعرفة بالذّات تتشكّل من صورة المرء عن العالم، بما يخزّنه من مفاهيم حول الكائنات، والطبيعة، والبشر باختلاف أعراقهم وطبقاتهم.[1]

تلك المعارف ناتجة عن الأيديولوجيّة المجتمعيّة، التّي تُكون المعارف الفكريّة والعاطفيّة للفرد، وفيه تتأثّر الذّات بالأفكار الجمعيّة، والأنظمة العقائديّة، والمبادئ المؤسساتيّة، وبالرّغم من إحلال النّظرة الذاتيّة العقلانيّة التّي دعا لها عصر التنوير، فإنّ المضمرات الثقافيّة التّي كانت خلف هذه الدعوة ترمي لبناء الطبقيّة، التّي تحمي البرجوازيّة، بإعمال العقل بدلًا من الدين (اللبراليون، المحافظون، الاشتراكيون)[2]، إلّا أنّ الأيديولوجيّة المجتمعيّة كانت، ولا تزال من اللبنات الأولى في تأسيس الأدب، الذي يحاكي الحياة بمختلف مجالاتها، لذا يهتمّ النّاقد بدراسة الأدب وموقفه من الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة، والاقتصاديّة، وغيرها؛ والناقد الماركسي يمارس نقدًا له أحكام تفسر المضامين الأخلاقيّة، فقد كتب بونالد (De Bonald 1754- 1840) "الأدب تعبير المجتمع"، وبهذه العبارة يتضح أثر الإيديولوجيّة المجتمعيّة في الأدب كونه ناقلًا لسوسيولوجيا الكاتب، أو للمحتوى الاجتماعي ومضامينه، أو لمشاكل الجمهور.[3] التّي بدورها تؤثّر في الأيديولوجيّة الفكريّة التي يتبناها الفرد من فلسفات ومعتقدات يؤمن بها، سواء أكان على صعيد الوعي الشخصي، أم كان على صعيد الهيمنة والسّيطرة المؤسساتيّة أو المجتمعيّة.[4]

وبالرغم مما ذكره رينيه في تصنيف الأيديولوجيات فإنّ دارسين قدّموا أنماطًا عديدة إضافية لما قدّمه رينيه في نظريّة الأدب، لابد من الوقوف عندها في تأمل يتوافق وتطور العصر ومعطياته، التّي تشمل الأدب بأجناسه المختلفة. ومن الأيديولوجيات المذكورة: الأيديولوجيّة الطبيعيّة، وفيها يقدم ستيفن روز(1938-...) توضيحًا لأهمّية الفكر المعاصر بعد الحداثة، ومنتجات الثورة التكنولوجيّة، التّي قدّمت الرفاهيّة الإنسانيّة، في طبقات بشريّة محدّدة، سخرت لخدمتها كل من البيئة ومكوناتها البشريّة وغير البشريّة، في همجيّة استهلاكية، وفقًا للفكر التراتبّي من جهة، ومبادئ "الأنانيّة التكاثريّة" من جهة أخرى، ففي حين أنّ الإنسان جزء من البيئة، فلابد له من

---

(1) مانهايم، كارل، (الأيديولوجيا واليوتوبيا، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: د محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، ط 1، الكويت، 1980، ص 95 (بتصرف).

(2) المرجع السابق، ص 114-120(بتصرف).

(3) وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ص 132-134(بتصرف).

(4) المرجع السابق، ص 153-154(بتصرف).

تحديد علاقته بها، وسواء أكانت هذه العلاقة نِتاج حتميّة بيولوجيّة يكتسب فيها الإنسان كل الأيديولوجيات مما يتعلمه من حوله فهو يخلق صفحة بيضاء، أم كانت في رأي الحتميّة الثقافيّة التّي تؤمن بأنّ الجينات متوارثة يُخلق الإنسان بصفاته وأفكاره[1]، فإنَ النّظر في مسألة الأيديولوجيات الطبيعيّة، أصبح ضرورة عصريّة على المستوى العالمي والثقافي والأدبي[2] الأمر الذي يمكن من خلاله تفسير الظّواهر الاجتماعيّة والفنيّة والأدبيّة، أو يُعين على تفسيرها.

الأيديولوجيا بين النّظريّة الأدبيّة والنّقد البيئيّ:

على ما في الحضور المتعدّد للنّقد البيئي على مستوى مكاشفة الأعمال الأدبيّة الروائيّة والمسرحيّة وحتى السينمائيّة، فإنّ المنطلقات المنهجيّة التّي تبناها النّقاد البيئيون في هذا الإطار لم تكن مغادرةً ميدان النظريّة الأدبيّة، وظهر هذا بوضوح في ما يتعلق بتحليل الأعمال الأدبيّة من منظور نظريّة ما بعد الاستعمار؛ إذ كانت البيئة حاضرة بوصفها فضاءً للصّراع بين مُستعمِر ومُستَعمَر والأمر كذلك مع النِّسويّة وحقل الدرس الثّقافي، ولاسيما عندما تحلّل الأعمال الأدبيّة والفنيّة من خلال البحث عن الأنساق المضمرة، إذ نجد أنّ الأدوات والإجراءات التّي استعملها هؤلاء النّقاد ترتد إلى مبادئ فلسفيّة في النظريّة الأدبيّة التّي تنتمي لها في الأساس، فأولئك الذين أخذوا موقفًا للدّفاع الشّديد عن المرأة وما تتعرّض له من قضايا تتّصل بموضوعات شتّى هم في الأساس كانوا يتوسلون في ذلك بمبادئ الراديكاليّة مثلًا النِّسويّة أو غيرها، وهذا ما يستوجب توضيحه.

منذ أن رأى هوميروس الطبيعة مكانًا للبطولة في الدراما، أعقبه فكر أدبي منوع حول أهميّة الطبيعة وكيفيّة تناولها يعود إلى الأيديولوجيا التّي ينتمي لها كل كاتب وناقد، فظهرت الآراء الكلاسيكيّة حول قدسيّة الطبيعة، ثم مكانها كمعتزل في مؤلفات الهيلينيين، مثل: فرجيل وهوراس، إلى العصور الوسطى التي أقرّت مؤلفات مسيحيّة الوجهة بأهمّية الخلق الإلهيّ للكون، بدأت من أُغسطينوس إلى توما الأكويني، أما كتّاب عصر النّهضة في القرن السّابع عشر: بيكون وديكارت، فقد أسهما في بناء النّظرة الاقتصاديّة على الطبيعة باعتبارها موارد إنتاجيّة، ويليه

---

(1) ستيفن، روز، وآخرون، (علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية)، ص 314-317 (بتصرف).

(2) مراجعة قول غلين لوف (Love.G) الناقد البيئي، بحث (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 46.

القرن الثامن عشر بانتشار شِعرُ روبرت بورنز ومؤلفات غيلبرت وايت، لتأسيس فكر جديد حول الطبيعة، يتوافق مع العقل، أما القرن التاسع عشر، فقد برز الأدب الرومانسي في أوروبا وأمريكا الذي سلّط الضوء على الطبيعة، بنظرة المساواة لا التراتبية، ومن فلسفة غوته إلى كل من وُردزوُرث وإيمرسون، كان النّقد موجَّهًا لاستغلال الطبيعة في خدمة الثّقافة الصناعيّة، إلى العصر الحديث من القرن العشرين، تغيرت النظرة الثّقافيّة لما وصلت إليه البيئة من أزمات كبيرة، صدرت دعوة تقديم رؤية تكامليّة للطبيعة، من مختلف المذاهب الأدبية مثل: د.هـ. لورنس، وألدوس هكسلي، وجون موير، وإدوارد آبي، وبهذا التاريخ يظهر التّطور التأويلي لعلاقة الطبيعة والإنسان، التّي شكّلت التكوين الأدبي، الممثل لأيدولوجيات مارست نفوذًا هيمن على المعتقدات حول المنظومة البيئية ومكوناتها. [1]

لقد ظهر النّقاد البيئيون مهتمين بقضايا نقديّة نابعة من النظريّة الأدبيّة، عُنيت بالأداءات الرومانسيّة، والثقافيّة، والنِّسويّة، وما بعد الكولونيالية، مطوّعين العطاء الأدبي لدراسة نقديّة بيئيّة، في مرحلة ما بعد الحَدَاثة بهدف تصحيح المفاهيم، وتعرية المُسلمات السلطويّة والمؤسساتيّة المُهَيْمِنة والمسيطرة، لا على الطبيعة فحسب بل على جميع مكوناتها ومن أهمها البشر، فكان أن قدّم النّقاد دراسة لتقويض خطاب العرق، والجنس، والطّبقة، من خلال اهتمامهم بفهم التاريخ، وسياق بناء النّص وجوّه، متضمّنًا معرفة المؤلف، والمكان المُنتمي له... ومن هؤلاء النّقاد: ويليام روكيرت، وروبرت ماكفارلين، ولورانس بويل، وشيرل بروغيس غلوتفيلي، وغلين ألوف، ولويزا ويستلنغ، وهارولد فروم، ودافيد كارتر، وجريغوري جرارد ... وغيرهم.

وقد قدّمت النّاقدة شيرل بورغيس غلوتفيلي دراسة استقصائيّة عنوانها: (مجموعة مختارة من النقد البيئي: أعلام في أدب علم البيئة) عام 1966، تبعها ويليام روكيرت في مقاله بعنوان "الأدب وعلم البيئة: تجربة في النّقد البيئي" 1978، وروبرت ماكفارلين في مقالته "حيثما تكون الأشياء البريّة" 2005م، وله أيضًا لوحة بعنوان "مكتبة المناظر الطبيعيّة" مبرهنًا على مشاركة البشر للطّبيعة في المصير نفسه؛ مندّدًا بكل الروافد الفكريّة المؤيّدة للاستغلال والتبعيّة، ومطالبًا

---

(1) ويسلنج، لويس، (الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان)، ص366-368(بتصرف). كذلك راجع برانش، مايكل، النقد الإيكولوجي، الطَّبيعة في النظريَّة والممارسة الأدبيَّتين، ترجمة: معين رومية،
http://www.maaber.org/issue_june08/literature2.htm

بوضع مبادئ لضبط النّفس، وتحديد قوانين المعاملات بأشكالها المختلفة، مؤسّسًا لتراث أدبيّ بريطاني؛ يعي المشكلة البيئيّة، وموظفًا للمنهج البيئي في دراسة النصوص الأدبيّة، كما شرح دافيد كارتر David karter، في كتابه "النظريّة الأدبيّة"[1]، مبادئ النّقد البيئي، في فقرات مقتضبة بيّن فيها أهميّة الثّقافة في الأدب عند رايموند ويليامز، وفسّر النظريّة البيئيّة الجديدة.

ومن الكتب التّي استعرضت تاريخ النظريّة في بريطانيّة وأمريكا، كتاب "النّقد البيئي الأدبيّ" 1994م لكارل كروبر Karl Kroeber، [2] كذلك شرح المبادئ البيئيّة، في دراسته للشّعر الرومانسي عند "ووردزوورث"Wordsworth" ، ومؤلف مسرحيّة بعنوان الحدود (The Borderers 1797)، مثّلت مأساة شعريّة وصفت الصّراع الحدوديّ بين الإنجليز واسكتلندا [3]، متجاوزًا حدود الرومانسيّة التقليديّة في وصف الطبيعة ومشاركتها الشاعر لأحاسيسه، إلى موضوعات في الحالة الإنسانيّة من خوف وهلع، بسبب ما تقدّمه العلاقات البشريّة من حروب ودمار يشمل الإنسانيّة برمّتها لا الطبيعة فحسب.

ومن أهم النّقاد في هذا المجال شيرلي كلوتفيلي Cheryll Glotfelty وهارولد فروم Harold Fromm مؤلفا كتاب "القراءة النّقديّة البيئيّة (The Ecocriticism Reader) ولورنس بويل مبتكر الخيال البيئي(The Environmental Imagination) وكتاب (مستقبل النّقد البيئي: الأزمات البيئيّة والخيال الأدبي) وكذلك جوزيف مايكر Joseph Meeker مؤلّف (كوميديا البقاء في الحياة The Comedy of Survival) عام 1974، الذي تميّز بشرح الرؤى الفلسفيّة، وآثارها في الفكر النّقدي، مفسرًا تقاطع النّقد الأدبي مع النّقد البيئي، وموضحًا مأزق البيئة الغربية لما تحمله ثقافتها من فصل بين البيئة والثقافة كونها علمًا طبيعيًا ومصدرًا للموارد المُوظّفة للرفاهيّة البشريّة. فقدّم تفسيرات توضّح أثر الخيال البيئي في المعتقدات السائدة، وأهميّة تحويل مسار الأدب لأدب يُعنى بالطبيعة ومواردها في فكر جديد يلغي التراتبيّة.

---

(1) كارتر، ديفيد، (النظرية الأدبية)، ترجمة: د. باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1، 2010م، ص:152-153.

(2) Karl Kroeber: Ecological Literary Criticism, Romantic Imagining and the Biology of Mind, 185 pages, paperback, Columbia University Press, 1994.

(3) Stephen Gill, William Wordsworth: A Life, Oxford University Press, 1989, pp. 132–133

ومزج "لتيموتي كلارك Clark Timothy" " ما بين النّقد الأدبي التفكيكي والنّقد البيئي في كتابه: "من أجل نقد بيئي تفكيكي"2008م، مُطبقًا منهج جاك ديريدا (1930-2004) في محاولة لتقويض المفاهيم الغربية اتجاه البيئة.

أما جرارد فقد عُني كتابه "النّقد البيئوي"، بتأصيل دقيق لعلم النّقد البيئي؛ إذ شرح معناه الاصطلاحي، وتاريخ نشأته، واتجاهاته، ومبادئه، كما قدم تحليلًا لنصوص وخطابات إبداعيّة، وإعلاميّة، وسياسيّة، موضّحًا مقدار الأزمة البيئية التي تجاوزت كونها أزمة علمية، وصولاً إلى كونها أزمة ثقافيّة؛ لذلك وجب العناية بالبيئة، التي تحيط بنا، من حياة بريّة، والسكن، والحيوانات، والأرض وغيرها... [1] فقد فنّد كل الروافد الفلسفيّة، وشرح أثرها في الأدب، وكيفيّة استبدالها بالمعتقدات الجديدة التي تضمن الحفاظ على البيئة.

وبالرغم من تهميش البعد المرجعي والأيدولوجيات البيئيّة، في ربطها مع النظريّة البيئيّة، فإنّ الأدب منح البيئة الامتياز بالتّناص، والخطاب الفضائي، الذي أظهرته البنيويّة وما بعد البنيويّة بهدف دمج النتاجات اللفظيّة في دراسة التّناصيّة؛[2] ذلك لأنّ ما توسّلت به القوانين النّقدية في فلسفة أرسطو الموضّحة لأهميّة الشعر وما فيه من جماليّة مبتكرة، لم تقتصر بوصف العالم، بل قدّمت تنبؤات عن المستقبل، في انسجام لغويّ يميزه الإيقاع في شكله البنائي، ولا يخلو من القيمة في مضمونه وفقًا لرؤى أفلاطونيّة[3]، محددًا مسار النّقد في استراتيجيات عمليّة تحفر في النصوص من الداخل في متنها، ومن الخارج في تاريخها، وعلاماتها.

وعليه فإنّ أعمال النّقد البيئي تهدف لتحول شعبيّ لطرق التفكير في علاقتنا مع كوكب الأرض بكل ما فيه، ذلك لأنّ أيّ إرادة سياسيّة أو اقتصاديّة تعمل على تقويض معتقدات استهلاكيّة كحل للأزمة البيئيّة، لن تنجح إلّا إذا كانت نتاج فكر سليم، يتحكّم في سلوك الجنس البشريّ اتجاه البيئة .

---

(1) راجع: جرج جراد، (النقد البيئي).

(2) راجع: كوهن، مايكل، (اللامعة حزن الأخضر.. النقد البيئي تحت منظار النقد) التي تتعامل مع هذه الأسئلة. دورية: التاريخ البيئي Environmental History" (كانون الثاني 2004) ص9-63(بتصرف). وراجع: هوبرت زابف، (الإيكولوجيا الثقافية، اتجاه جديد في النقد البيئي)، ص 135

(3) راجع أرسطو، (فن الشعر)، ص11-27 (بتصرف).

نظريّة الأدب والأيديولوجيات الرومانسيّة:

لقد دُرس الأدب "الرعويّ "وعُولج في نطاق الدراسات الاقتصاديّة الحرجة، خاصة في أمريكا الشماليّة؛ [1] لذا كان من الأولى معالجة النصوص الأدبيّة لفهم العلاقة بين الإنسان "والطبيعة "في النصوص القديمة من جهة، والعمل على بناء نصوص جديدة تستجيب لاهتمامات العلوم الإنسانيّة فيما يتعلق بتقاطع الأخلاق البيئيّة، والجماليات الفنيّة (خاصة الأدبيّة) من جهة أخرى، فقد مثّل الموروث الأدبي الرومانسي التلاحم بين الإنسان والطبيعة في فطرته الثقافيّة.

فبدت دعوى هاريسون في: "أننّا لا نسكن الأرض، بل نسكن اللغة،"[2] مؤكدة العلاقة الوطيدة بين الأدب والبيئة، ومشيرة إلى شاعرية رومانسية ظهرت عبر الزمن في الحنين للطبيعة وتآلفها، وإشراكها في أحاسيس الأديب وهمومه في مختلف الأنواع، ومنها الأدب الرعوي، الذي انتشر في أوروبا بداية القرن السادس عشر، كامتداد للشعر الرعوي اليوناني واللاتيني القديمين.[3] وعلى مدار ما قدمته النّظريّة الأدبيّة من جهد يتقصى فهم دور السياق التاريخي في التّفسير، بالاستفادة من فهم العناصر اللّغويّة واللاواعية للنص. كان ذلك مجالاً مناسبًا للحديث عن أجواء سردية ودرامية وغنائية ناسبت الأدب الرعوي.

ومن أهم دارسي الأدب الرعوي الناقد تيري جيفورد (Terry Gifford)، الذي صنّفه إلى ثلاثة أشكال أولها: الرعويّة الكلاسيكيّة، التي تبلورت في التراث جنسًا أدبيًّا في فترة من الزمن الممثلة للفساد على شاكلة الهيلينيّة، إذ تميزت بالأهازيج والتغني بالريف ممجّدين مثاليّته، الأمر الذي اتّضح في مصطلحات خاصّة بذلك، مثل: القصيدة الرعويّة؛ أي راعي البقر المغني للأهازيج، والرعويّة، بمعنى أعمال ثيوقريطس، واتّسمت هذه الأهازيج بالمثاليّة بوصف العمل الشاق، والسخرية من العلاقات الإنسانيّة وغير الإنسانيّة غير السوية.

وقد تميزت أعمال(ثيوقريطس) بالجماليات التّي أسّست لشعر المكان، مستعينًا بالاستعارات والصور البلاغيّة التي تصف النزوح للطبيعة، كما أضاف فيرجل (70-19 ق.م Virgil) بالوعي

---

(1) Fiona Becket , Terry Gifford, Culture, Creativity and Environment, Website Brill, https://doi.org/10.1163/9789401204781_002, P7.

(2) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 60.

(3) ومن رواد الشعر القديم: ثيوكوتيس اليوناني، وفرجيل اللاتيني، راجع: مجدي، وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1974. وراجع أيضًا: جرارد، جريج، المرجع السابق، ص 46.

الذاتي بما تحمله المدينة من أذى وفساد، كما قدّمت الرعويّة الكلاسيكيّة الحنين للماضي، بوصفه الزمن الأفضل، ووصف استجابة الطبيعة للمشاعر البشريّة، في الخيال الشعري، بـ"التشخيص"، وقد قسّمت الرعويّة الكلاسيكيّة ثلاثة أقسام وفقًا لتصنيف زمني، هي: **المرثاة** التي تتميز بالحنين للماضي والوطن، **والرعويّة** التي تحتفل بالوفرة البيئيّة، **والمثاليّة** التي تتطلع لحاضر مشرق[1].

ويقابل الرعويّة الرومانسيّة البريطانيّة الرعويّة الأمريكيّة؛ فالأولى تناولت انفصال الإنسان عن القرية وأثر المدينة فيه، محدّدة مُعاناة الراعي السياسيّة والاجتماعيّة، وكذلك ما عكسته الثانية (الرعويّة الرومانسيّة الامريكيّة) من عبوديّة في المزارع، والإعدام الريفيّ للعبيد، كما عالجت المشكلات النِّسويّة والاستعماريّة، مثل: "ترسيخ الحنين الاستعماري، والتحديق الذكوري العاطفي لمنظر طبيعي يُوصف بالأنثويّ وعلاقته بالقمع والدمار"[2]

من هنا ظهرت أهميّة النّقد السياسي البيئي في مجال الدراسات الأدبيّة والثقافيّة. الذي تقاطعت فيه السياسة وما ارتبط معها من الطبيعة تحت ما يعرف بـ "الخيالي"، "الإبداعي"، والنظرية الأدبية، في محاولة للجمع بين العمل النقدي، والإبداعي، في سياق مشروع يدرك تمامًا الضرورات الأخلاقيّة، فقد قدّم فال بلوموود مقالًا يُظهر فيه وعيًا، يتحدّى الخطاب الفلسفي المهيمن على مستويات المحتوى واللّغة، وتميز السياسة البيئيّة الحاليّة، في نزع مكانة الذّات البشريّة من خلال الخطاب الأدبي،[3] الذي تقاطعت فيه النظريّة الأدبيّة مع النّقد البيئي، في احتوائها الخطاب البيئي، في امتداد لفهم مضمرات وأنساق تتصل في النظريّة المعرفيّة في النسق الثقافي، ما بعد الاستعمار، والنظريّة النسويّة.

***

(1) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص47-51 (بتصرف).

(2) جرارد، جريج، المرجع السابق، 53-69(بتصرف).

(3) Culture, Creativity and Environment,p8

ثالثًا: النّقد الأدبي البيئي ومأزق الممارسة:

"كل شيء يبدأ بالوعي، ولا قيمة لشيء من دونه،"[1] لذا فقد هدفت دراسة الاستجابات النقديّة لهذا الفرع الجديد من النّقد العربي سد فجوتين معرفيّتين؛ تقع الأولى في دراسة المبادئ الأساسيّة للنّقد البيئي بما يلائم الدراسة العربيّة في محتواها الأدبي وموروثها الشعريّ، من دون إخضاع كإخضاع بروكرست، وذلك باقتراح حقل معرفيّ متخصص يؤسّس لمبادئ واضحة للنّقد البيئي تتقاطع والنظريّة الأدبيّة العربيّة ولما لها من خصوصيّة، أما السبب الثاني فهو عناية النّقاد بما يحمله الموروث العربي من معالم بيئية، من دون الخوض في الإشارات و المضمرات الكامنة فيه لعلاج الأزمة بين البشر والبشر أنفسهم في مسائل العرقيّة، والطبقيّة، والجندريّة من جهة، والمسائل المتعلقة بين البشر وغير البشر من جهة أخرى. في نظرة عميقة للسلطة المؤسساتيّة المسيطرة على المسار البيئي.

غير أنّ هذا المسار التطبيقي للنّقد البيئي في الدّرس العربي يتطلب الوقوف على منهجيّة هذا النّقد وخطابه كما هو تالٍ:

النّقد البيئي؛ المنهجيّة والخطاب:

وبعد تناول هذه المباحث الثلاثة، بات من الواضح أنّ وضعيّة النّقد البيئي أصبحت مستقرّة إلى حد معقول في البيئات الغربيّة، وإن لم يكن الأمر محدّدًا وواضحًا في البلاد العربيّة، لهذا يستلزم الأمر عرض منهجيّة النّقد البيئي من خلال منظورين يخدمان المجال التطبيقي للنّقد البيئي، وهما:

منهجيّة النّقد البيئي بين الأداة والإجراء:

تلكم محاولة غير نهائية لتناول النّقد البيئي ضمن إطار منهجّي لا غنى عنه، وخاصة في مجال النّقد التطبيقي، ذلك الذي يبدو هدفًا ستكشف المباحث التالية قيمةً تأسيسيةً له، قد تثمر، إلى حد ما، عن منهج محدد له ضوابطه وإجراءاته.

---

(1) قول ألبير كامو، راجع: عبد السلام، عبد الرحمن، (وعي الشعر، دراسات محكمة في التأسيس والتطبيق، أبو تمام، محمود درويش، أدونيس)، دار النشر للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى، 2020، ص 7.

وعلى اعتبار أنّ النّقد البيئي ثيمة تربط بين الطبيعة والثقافة المتمثلة بالأدب، فإنّه يفاوض بين العلاقات الإنسانيّة وغير الإنسانيّة، في مسار يدعو للعدالة، والأخلاق البيئيّة، [1] وبهذه المنطلقات أسّس النقاد مجموعة من المبادئ التي وضّحت طرق النّقد البيئي للنصوص الإبداعيّة البيئيّة.

لقد ظهرت المبادئ التّي يرتكز عليها النّقاد في النّقد البيئي مرتبطة بما يؤمنون به وينتمون إليه من اتجاهات، فقد ظهرت مبادئ بويل واقعيّة الوجهة،[2] في حين كانت مبادئ الناقدين النرويجي آرتينايس والأمريكي جورج سميسيونس في رؤية للبيئة العميقة كما وضحها جرارد[3]، وفي رؤية "الماركسيَّة البيئيَّة" تمثلت حيثيّات النّقد بارتكازها على ثلاثة محاور، تمثّلت في الفوقيّة والسيطرة والاستغلال، تلك المحاور التي تمارس على البيئة بجميع مكوناتها حتى على البشر أنفسهم في أشكال مختلفة للظلم العرقيّ والطبقيّ[4]... كما أضاف عدد من النّقاد إسهامات في وضع المبادئ العامة للمنهج.

وفي محاولة لتحديد المبادئ الرئيسة للنّقد البيئي، كانت هناك أسئلة حول النظريّة الأدبيّة والحقيقة البيئيّة، شكّلت هذه الأسئلة فضاءً نقديًا ارتبطت به، أو تولدت منه، بعض المبادئ أو الإجراءات المتصلة بما يعرف بالنّقد الأدبي البيئي، مثل الأسئلة التي ظهرت في دراسة لدانا فيليبس وغيرها، ومنها: أين تتحقق الإيكولوجيا؟ كيف نتعرف الإيكولوجيا الزائفة؟ ما حقيقة الإيكولوجيا بقدر ما تكون موجهة عن طريق الأدب؟ كيف يوجه الأدب بشكل أفضل تلك الحقيقة؟

بالإضافة إلى ذلك كان لإمبرتو إيكو مجموعة من التساؤلات من أبرزها: هل حقيقة الإيكولوجيا تكمن في الأدب؟[5] كيف يتمثل نص الطبيعة؟ وما الدور الذي تؤديه الوضعيّة

---

(1) (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 50 (بتصرف).

(2) فيليبس، دانا، (النقد البيئي والنظرية الأدبية وحقيقية الإيكولوجيا)، ص 104.

(3) جيليكا توسيتش، (النقد البيئي. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 330، وراجع: جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 16-32 (بتصرف).

(4) راجع: جرارد، جريج، المرجع السابق، ص28-29، وما ذُكر في:

https://ssrn.com/abstract=1955082 or http://dx.doi.org/10.1146/annurev-environ-111109-144855 :

Buell, L., Heise, U. K. and Thornber, K., "Literature and Environment", Annual Review of Environment and Resources, Issue 36, 2011, p. 429. Retrieved.

(5) فيليبس، دانا، (النقد البيئي والنظرية الأدبية وحقيقية الإيكولوجيا)، ص 99-100(بتصرف).

الفيزيقيّة ضمن حبكة الرواية؟ وهل تكون القيم المجسّدة في النّص منسجمة مع الحكمة البيئيّة؟ وكيف لاستعاراتنا عن الأرض أن تؤثر في طريقة تعاملنا معها؟ وما علاقة المكان بالمعتقدات حول العرق، والطبقة، والجندر؟ وهل حقًا هناك فرق فيما يكتبه الرجال عن الطبيعة بالمقارنة بالنساء؟ وكيف يكون للأدب تأثير في طبيعة العلاقات البشريّة أمام العالم الطبيعي؟ وهل، بمرور الوقت، اختلف مفهوم البرية؟ وما تأثير علم البيئة في الدراسات الأدبيّة؟ وكيف ينفتح العلم ذاته على التحليل الأدبي؟

لقد أسهمت التساؤلات في فهم الدراسة الأدبية من منظور جديد، فقد بيّن لورانس بويل تكوين النص البيئي المتمثل في حيثيات أربعة: تشكلت بالبيئة غير البشرية، وبالانشغالات البشرية وغير البشرية، وأخلاقيات النص البيئوية، وأخيرًا النص الذي يتبنى فكرة وجود الطبيعة بوصفها سيرورة لا بوصفها إطارًا للنشاط الإنساني. لتشكل هذه الحيثيات المعايير الأساسية لكتابة الطبيعة،"[1] فقد اقترح أربعة معايير نقدية هي: "حضور البيئة بوصفها أساس التاريخ الطبيعي، وأن مصلحة البشر لا تمثل المصلحة الشرعية الوحيدة، بل اعتبار البيئة جزءًا من التوجه الأخلاقي للنص، وأخيرًا: فهم البيئة في النص بوصفها عملية لا شيئا ثابتًا أو مفترضًا."[2]

فلم تظهر منهجيّته النّقديّة باستغلال الواقعيّة فحسب، بل بدت كمهمة إنقاذ، إذ كان أساس العمل النقديّ عنده قائمًا على مبدأ: "روح الالتزام بالممارسات البيئيّة"، مفسرًا مفهوم الطبيعة التمثيليّة بأنها حالات أيدلوجيّة، لا يصلح اعتبارها فنتازيا أو رمزًا اجتماعيًا، كما بيّن في كتابه: "الخيال البيئي" مبادئ المساواة، في دراسته الموسوعية في معالجة الأعمال الأمريكية، إلا أن مبادئ بويل لم تفِ بالغرض الشمولي للنقد البيئي.[3]

أما مبادئ البيئة العميقة التي وضعها آرتينايس، وجورج سميسيون، تمثّلت في أنّ سلامة الحياة البيئيّة بجميع مكوناتها البشرية وغير البشرية إنما هو ازدهار وذو قيمة، كذلك ثراء أشكال

---

(1)Atashi, L., "An Ecocritical Reading of Melville,s "Bartleby the Scrivener" , International Letters of Social and Humanistic Science, Vol. 73, 2016, p. 8, Retrieved from

(2) راجع: (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 50، وراجع: (النقد البيئوي)، ص 66، وراجع: Buell, L. (1995). The environmental imagination: Thoreau, nature writing, and the formation of American culture. Harvard University press. p7-8.

(3) فيليبس، دانا، المرجع السابق، ص 104- 107(بتصرف).

الحياة وتنوعها يمثلان قيمًا أساسيّة في الحياة؛ ذلك لأنّ الإنسان ليس لديه الحق في الحد من الثراء والتنوع، وتقتصر استفادته بما يحقق حاجته الحيوية، وربط ازدهار الحياة الإنسانيّة بخفض عدد السكان، مقرنًا الازدهار الحياتي بعدد السكان، ونعت التدخل البشري في العالم غير البشري بالإفراط، وتفاقم التسارع، فدعا إلى تغييّر السياسات؛ لتأثيرها المباشر في البِنى الاقتصاديّة، والتكنولوجيّة، والإيديولوجيّة. وتغيير الأيديولوجي وتعديل مبادئها في تقدير الأحياء، محملًا أولئك الذين يشتركون في النقاط السابقة بالالتزام المباشر أو غير المباشر بتنفيذ التغييرات [1].

وإلى جانب ما قدّمه بويل من منظور حول المساواة مع الطبيعة، كان هناك تنظيمًا لمبادئ بيئيّة ظهرت عند آخرين من خلال الحثّ على التغيير الذاتي للمعتقدات السائدة حول البيئة، ثمّ الإقرار بأهميّة المكان الذي لقبه بويل بالـ (أين). وينسب جرارد إلى علماء البيئة العميقة الذين قدّموا قيمة جوهريّة إلى جميع البشر وغير البشر، بأنهم مهتمون في أسلوب حياة مستدامة، إذ قدم نقدًا بيئيًّا ارتكز على عدد من المعارف كالنظريّة الأدبيّة والثقافيّة والفلسفيّة والاجتماعيّة، ليتميز نقده البيئي بالعلميّة والموضوعيّة، وبدراسته للنصوص في شكلها اللّغوي واختيار الألفاظ، إلى تحليل الخيال والاستعارات، في محاولة لبيان إستراتيجيات الإقناع والأساليب البلاغية، مرورًا بتحليل الخطاب واستنباط الأنساق المضمرة في معانيه، سواء أكانت أنساقًا ثقافيةً أم كانت مؤسساتيّة[2].

كما وردت بعض المبادئ المتصلة بالبيئة ونقدها، منها ما يتقاطع مع معايير سنايدر في المنظومة الأخلاقية البرية، ولا سيما في تناوله لأربعة معايير هي: الحاجة إلى الالتزام في مكان محدد، واعتبار البرية هي المعلم الأول للإنسان، وربط البرية بما هو مقدّس، ثم النظر للبرية بوصفها دليلًا على التشاركية والديمقراطية."[3]

وأخيرا يمكن استنتاج وتحديد المبادئ الأساسيّة في النّقد البيئي وفق ما هو آت: **الانسجام مع الأبدية**.[4]، **الاستراتيجية النّقديّة شكل من أشكال المقاومة البيئيّة، ولع النقد البيئي بالتنوع البيولوجي والولوج إلى المناطق المحظورة للدفاع عما يرد للطبيعة حضورها،**

---

(1) توسيتش، جيليكا، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 330.

(2) راجع جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 68

(3) المرجع السابق، ص 96 (بتصرف).

(4) بوستنيكوف، فيكتور، (الشِّعر الإيكولوجي)، ص 66.

النظرة الرومانسية الحالمة للطبيعة الآمنة غير المهددة؛ لتعزيز إيجابيات البيئة، **الطبيعة والحرية، النظرة إلى شعرية النص الأدبي وكأنها شعرية معرفية، الأنسنة البيئية للطبيعة، الأنا والآخر، الخيال البيئي، التوحد مع البيئة** ووعي إيكولوجي، الافتتان بالطبيعة، **التركيز على المعنى الروحي وتغليبه على المادي**، عمق المعنى الفلسفي.. إلخ.

لكن العلاقة بين النص الأدبي والطبيعة، في وعي بيئي مقصود، تُبنى على ما يُعرف بالحكمة الإيكولوجية، في الحفاظ على البيئة؛ لذا فإنّ ما قدّمته مبادئ النّقد البيئي يجسد محاولةً لفهم الوعي بحالتيه؛ الوعي الظاهر والمدون في الأدب وفقًا لقصديّة المؤلف، والوعي الخفي الذي يتبيّنه الناقد بالغور في أسبار النصوص، ليبحر فيها باحثًا عن المعتقدات الراسخة بهدف تقويمها، فقد قدّم سكوت سلوفيك[1] في دراسة له ما يشبه الدليل الفني البيئي للأدباء، حين ينتجون نصوصًا أدبيةً تكون البيئة هي الثيمة الموضوعيّة لها؛ وفسر مفهوم القصديّة وقدّم أساليب فنيّة متنوعة حول أنماط الكتابة عن الطبيعة؛ بهدف إحداث الأثر في المتلقي، وزيادة وعيه بأسئلة البيئة. كما أضاف الشاعر روبنسون جيفر ضرورة اتخاذ استراتيجيّة الإزاحة من المركزيّة البشريّة لغيرها، ونبذ الأنويّة البشريّة، وبالانتقال إلى ما بعد الأنسيّة، سيرسخ الإحساس بالعلاقة بين النص والطبيعة، وصولًا إلى وعي إيكولوجي يُسهم في تعزيز قيمة البيئة وضرورة التصدي للأخطار المحدقة بها وخاصة في العصر الحديث، وكذلك الوعي الجمعي في ملمح النستولوجي.[2] الذي قُسّم إلى نوعين هما: الجماعي والفردي، ليمثل الملمح الجماعي هروب الحاضر، بانشغالهم في الماضي السعيد- وفقًا لرأيهم- أما الملمح الفردي فقد عبّر عنها بوصفها التجربة الشخصيّة بالشعور بالعجز أو الفقد أو الشيخوخة؛ فيتذكر ماضيه المليء بالإنجازات والنجاحات.

---

(1) سكوت سلوفيك عالم النفس البيئي ألّف كتابه (التماس الوعي في كتابات الطبيعة الأمريكية) في عام 1992م، راجع: برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ص 46-48(بتصرف).

(2) راجع: مصطفى محمد، هناء، (جماليات المكان في شعر الاتجاه الرومانسي: دراسة في النقد البيئي)، مجلة سرديات، العدد 30، 2018، ص205-208 (بتصرف).

وبهذا يتّضح أنّ الموضوع الحقيقي للكتابة البيئيّة "كتابة الطبيعة"[1] ليست الطبيعة، بل ما تسلّط الضوء عليه من خلال الطبيعة للبنيّة الاجتماعيّة الحديثة[2]، التّي حُرمت من الطبيعة، كنتيجة للتّطور الاقتصادي، وخاصّة في الاهتمام بتحديد المصير للمجتمعات من الجانبين البيولوجي والروحي معًا، على اعتبار أنّ مصير البشريّة والطبيعة لا ينفصلان؛ لذا كان توجه الباحثين في دراسة النّقد البيئي، للأعمال الأدبيّة المفعمة بوصف المكان، سواء أكانت من القديم الموروث، أم من الحديث، يسعى لفهم التمثلات البيئيّة في الممارسات الأدبيّة.

الخطاب النّقدي البيئي ومأزق الاصطلاح:

أصبح تحليل الخطاب إطارًا يعيد النّظر في الاتجاهات والتقاليد المتعلقة بالمقاربات النظريّة والمنهجيّة للخطابات "القديمة" و "الجديدة" بهدف تحديد الآثار الخطابيّة[3]. ليكشف عن مأزق الاصطلاح في المقاربات والدراسات المختلفة، وبالرغم من الاتفاق المنهجي في التحليل، فإن التسميات اختلفت باختلاف السلطة المهيمنة على فكر الناقد المحلل للخطاب البيئي.

وقد بيّنت كارين وينكلر أنّ تعدد التسميات المصطلحيّة يعود لتشعب الاتجاهات النقديّة.[4] وانشغال النّقاد بتأسيس النظريّة النقديّة البيئيّة وأدواتها، أدى لتفاوت في المسميات الاصطلاحية، وبالرغم من أنّ هذه المسمّيات لا تنمّ عن تغيير في مبدأ اشتغال النظريّة، بل تعكس ثقافة النّاقد وقدرته على توليد المصطلح، فإنّ ذلك يعود إلى تداخل علومه المنوّعة وتخصصاته المختلفة، أو لكونه يضمّ معاني ماديّة وروحيّة في الوقت نفسه.

وباستقطاب مصطلح النّقد الأدبي للبيئة مترادفات تشمل: الأصل، الجنس، الطبقة، والعرق، شكّل أزمة تعريفيّة، يمكن وصفها بأنها مأزق في الفهم الاصطلاحي؛ وهو ما ظهر مع بداية

---

(1) ناصر، ديما، (العودة إلى النقد البيئي، من الأدب البيئي إلى السياسة البيئية)، ص 269.

(2) Lopez, Barry "We are shaped by the Sound of Wind, the Slant of the Sunlight" High Country News 30:17(14 September 1998) p1.

(3) Peter H. Feindt, Discourse analysis of environmental policy revisited: traditions, trends, perspectives, Sina Leipold, Georg Winkel & Reiner Keller, Published online: 10 Sep 2019, P 445. https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/1523908X.2019.1660462

(4) بدران، محمد أبو الفضل، (أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية)، ص195. Scholars Embark on Study of Literature About the Environment by Karen J. Winkler the Chronicle of Higher Education 9 August 1996: A8+

تأسيس المصطلح وخاصةً عند تحديد ماهيّة النّقد المطلوب، عمّا إذا كان النّقد قائمًا على تحديد الجماليّات الفيزيائيّة، أم أنّه نابع من دراسة الأخلاق البيئيّة، وطرحت تساؤلات تتعلق بالنّصوص المستهدفة للتحليل؛ نصوص تراثيّة قديمة ، أم نصوص حداثيّة وما بعد حداثيّة؛ فبرزت مسميات متعددة بتعدد الاتجاهات النّقديّة واختلافاتها، ومن أهمها: الدراسات الثقافيّة الخضراء(green cultural studies)، و"كتابة الطبيعة"، و"النّقد البيئي الأدبي" environmental literary criticism"، و"الشعريّة أو البويطيقا البيئيّة (ecopoetic)، الأدب البيئي (eco- literature)، والنّقد البيئي أو الإيكولوجي أو الأخضر و"علم التبيؤ" كما ذكره جرج جرارد في كتابه النّقد البيئوي، والدراسات الخضراء النّقد البيئوي- نقد التبيّؤ/ النّقد الأدبي البيئوي(Eco-Criticism)[1]، فتنوعت التسميات وفقًا للغات والبيئات، لكنها حافظت على تناول الأدب من منظور بيئي يسترشد بمجالات أخرى، مثل: علم البيئة، والتصميم المستدام، والسياسة الحيوية، وتاريخ البيئة، وحماية البيئة، والايكولوجيا الاجتماعية. كذلك فإن لمسميات النقد البيئي في الأدب مصطلحات توازيها في العلوم، مثل: علم البيئة، ويقابلها دراسة الأدب نقده، وعند الإيكولوجيا هو علم البيئة العميقة، أما البيئة المادية فيقابلها: التصور البيئي وإعادة التصور، وظهر له اسم التنوع البيولوجي؛ أي الثقافة البيئية العالمية، وكان يوازيه مصطلح البيئة الثقافية، أما مرادف التلوث، فهو الخطاب السام والمخاطر الأدبية، أو التلوث اللغوي.[2]

ولقد تأسس المصطلح النّقدي الجديد، الذي ينطلق من مقاربات واستراتيجيات معنيّة بمظاهر البيئة، وقائمة على أسس ومبادئ تدعو للمحافظة على البيئة، أطلق عليه النقد الإيكولوجي أو النقد البيئي؛ ليشكّل منحًى جديدًا في علم النّقد الأدبي، الذي يدرس الأدب بصور أيدولوجيّة وفكريّة جديدة مرتبطة بالبيئة ومكوناتها، كمسار متطور للنّقد الثقافي والنسقي.[3]

---

(1) راجع: توسيتش، جيليكا، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 333، وراجع: توسيتش، جيليكا، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص 333.وكذلك لورنس بيل، أورسولا ك. هيس/ كارين ثوربنر، (الأدب والبيئة)، ص 336، وناصر، ديما، (العودة إلى النقد البيئي: من الأدب البيئي إلى السياسة البيئية)، ص269، ألفت شيرلي كلوتفيلي و"هارولد فروم "في. "The Ecocriticism Reader

(2) جيليكا توسيتش، (النقد البيئي: دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ترجمة سناء عبد العزيز، مجلة النقد الأدبي فصول، ص 329.

(3) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، الفصل الثالث، ص 68.

وبالنّظر إلى الأدب العربي، نجد أنّ بدايات النّقد البيئي وصلت متأخرة، ففي (1989) عُقد اجتماع رابطة الأدب العربي في أمريكا، سُلّط الضوء فيه على كيفيّة استخدام مبادئ إيكولوجيّة لدراسة العمل الأدبي. [1]، ولكن الاهتمام بالدراسات الأدبيّة البيئيّة في المشهد العربي الأدبي والنقدي، اهتمام محدود، وهو ما يعكس وعيًا متأخرًا لدى المبدع من جهة، ولدى الدّارس الأدبي في العربية من جهة أخرى؛ ومما يؤكّد ذلك أنّ كثيرًا من الدراسات النّقديّة التّي ربطت بين البيئة والأدب كانت دراسات فنيّة في المقام الأول والأخير، ولم تنلْ الطبيعة في علاقاتها أو حضورها مع الأدب شعرًا ونثرًا، الخطوة النّقديّة المرتبطة بوعي إيكولوجي؛ لأنها كانت علاقات رومانسيّة فنيّة غير مدفوعة- في كثير من الأحيان، إن لم يكن في جُلّها- بموقف أيديولوجي يستشعر الخطر على البيئة ومُقدّرات الحياة.

ويكفي المتتبع لتلك الدراسات التّي حملت عناوينها مفردات مستهلكة، مثل: (الطبيعة في شعر فلان)، و(الطبيعة في الشعر العربي) وغيرهما،[2]يكفيه أن يدرك مدى البون الشاسع لها مع النّقد البيئي، بل إنّ الحديث عن سمة (الأنسنة) للطبيعة في الشعر عُد لدى الشعراء سمةً حداثيّة ذات إطار تجريبي في الإبداع الشعريّ، ولم تستثمر إيكولوجيا بما ينبئ عن وعي بالبيئة.

إنّ تلاحم العلاقة بين الثّقافة البيئيّة والنّقد البيئي يتجلّى في ملامح الوعي القيميّ الجديد، والأخلاق البيئيّة التّي تعِد بحل الأزمات البيئيّة وأهمها "الإبادة البيئيّة"، وإنّ من أهمّ المجالات الثقافيّة التّي تصدّت للموضوع هو المجال الأدبي، فقد عُدّ قوةً إيكولوجيّة، وجماليّة تحمل في طياتها ثنائيّة العقل والجسد، في بعديها المفاهيمي والإدراكي، في رصد الأفكار والتجارب، بوعي انعكاسي للمجتمعات، وما تقدّمه من إنجازات للسيرورات المعقّدة، والدينامية الحياتيّة.

---

(1) ضياء الرحمن، محمد، (مقاومة بيئية في شعر محمود درويش)، ص 172.

(2) هناك دراسات كثيرة تحمل هذه العناوين، منها: (أدب الطبيعة) لمصطفى السحرتي، مطبعة التعاون، الإسكندرية، 1937، كتاب (شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي)، لجميلة شحادة الخوري، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1946، وكتاب (شعر الطبيعة في الأدب المصري)، لعوض الغباري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،1986، كذلك (الطبيعة في الشعر المملوكي)، لموسى علي موسى النجادي، جامعة الخليل، 2006... إلخ.

مأزق النّقد البيئي التطبيقي مأزق النّقد العربي:

وبالنّظر إلى التاريخ العربي في مجال النّقد الأدبي، الذي علا ازدهاره في المعارك الأدبيّة- مثل الطائيين-، والتعصب النّقدي، مثل الدراسات حول المتنبي، والتحيزات الفكريّة حول الشعر الجاهلي وغيره، الذي قدّمه طه حسيّن وخصومه حديثًا -تظهر مفارقة في التطور النّقدي بين القديم والحديث، ففي الوقت الذي ظهرت فيه تجلّيات نقديّة تتوافق وطبيعة اللّغة العربيّة والأيديولوجيات المنتميّة لها قديمًا، يقابلها اليوم تأخر نقدي بسبب أزمات ثلاث، يتمثّل أهمّها في أزمة النّقد العربي من جهة، وأزمة النّاقد من جهة أخرى.

وتتمثّل الأزمة النّقدية في التبعيّة المرتبطة بالاصطلاح والأسلوب والفكر، بشكل يصل لتلاشي ما يميّز الهويّة العربيّة، في حالات نسخ مباشرة، وفقًا لمبدأ "ولع المغلوب باتباع وتقليد الغالب له"[1]، فظهرت أخطار التبعيّة النقديّة في النسخ المباشر، والذوبان في الثقافات المختلفة وإسقاط ما فيها على الأدب العربي، فبدا الناقد مفتونًا فيما يقدّمه الغرب، ويسقطه مباشرة على الأدب العربي، وهذا استغراق قد يصل إلى مسوغات خطيرة لغلق بوابات التراث والترفع عنه.

غير أنّ غياب المدرسة النّقديّة عند العرب، كان سببًا في تلك التبعيّة، فقد افتقد الناقد للوعي بالمرجعيات الفلسفيّة والثقافيّة؛ مما أدّى إلى تراجع الفكر النّقدي وافتقاره لنزوع استقلالي، وأدّى إلى فقدان المنهجيّة المناسبة للحركة النقديّة؛ مما زاد في الأزمة النقديّة فتنةً بالنّقد الغربي ظهور ممارسات يمكن نعتها بالفوضويّة وغير الموضوعيّة، في تقليد مُستغرق في التقليد والشكليّة؛ مما أدّى إلى غياب التكامليّة النقديّة، بالتركيز على الأداة وإهمال المضمون، وميل لغة النّاقد إلى الاستهلاكيّة عند بعض النّقاد، وللتعقيد والاصطلاحيّة المعقدّة عند آخرين.[2]

وبالإضافة لذلك ظهرت أزمة فهم المصطلح (النّقد البيئي)، متوافقة مع الأزمة الغربية التي بيّنتها كارين وينكلر من خلال مجموعة من التساؤلات التّي بدأت بضرورة فهم وتحديد سبب

---

(1) محمود، د. عبد الرحمن عبد السلام، الغواية الأولى، بكارة المعنى على الخاطر، أزمة النقد الأدبي -أبو تمام الطائي-أبو الطيب المتنبي، مكتبة الأدب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2019، ص19-21 (بتصرف).

(2) الغواية الأولى، بكارة المعنى على الخاطر، أزمة النقد الأدبي -أبو تمام الطائي-أبو الطيب المتنبي، ص19-24 (بتصرف).

الدراسة؛ أهي لبيان الجماليّات الفيزيائيّة، أم لدراسة الأخلاق البيئيّة؟ وبصيغة أُخرى، هل النّصوص المستهدفة القديمة أكثر مناسبة من النصوص الحديثة؟[1]

وهنا لقيت النظريّة البيئيّة الجديدة من منظور النّقاد العرب موقفين معبرين عن وجهتي نظر، شأنها في ذلك شأن أيّ جديد قادم إلى واقع الثقافة العربيّة، مثلت الوجهة الأولى المعارضة النقديّة، الرافضة لاحتساب النّقد البيئي جزءًا من النّقد الأدبي، على اعتبار أنّ النظريّة البيئيّة تخضع لمبادئ تتنوع فيها المجالات العلميّة والبيولوجيّة المختلفة، أما الثانية فكانت مجسدة في التّبعيّة بإقحام المصطلح الغربي[2] في الممارسات النّقديّة، وبالرغم من تفاوت وجهتي النّظر فإنّ الاعتراف بضرورة النّقد البيئي أصبح أمرًا واقعيًّا، لما تقتنيه طبيعة العصر، وما طرأ عليه من تطورات وتغيرات إلكترونيّة، وتكنولوجيّة، فضلًا على أنّ تمازج العلوم وتوحدها يفرض دراسة المقاربات الأدبيّة بمناهج نقديّة وعلميّة جديدة تلبّي حاجة العصر، وما فيه من ثقافات و إيديولوجيات ، وقيم.

وفي مقابل أزمة الممارسة في النّقد الأدبي، يظهر جليًّا أزمة النّاقد العربي، الذي انغمست ذاته العربيّة منذ نشأته في واقع التمازج الحضاري، تلك الذّات التّي تتحدّد فيها ثقافته، والفلسفات المنتمي إليها، لتظهر أزمة التأدلج التّي تحدّد رأيه حول القضايا العصريّة البارزة: (الهوية، والنهضة، والحداثة).[3]

إنّ ما يقع فيه النّاقد من أزمة نقديّة ما هو إلا نتاج المثاقفة والتبعيّة، التي باتت مفروضةً على الثقافات (الشرقيّة، والسلافيّة، والإفريقيّة، والصينيّة)، تحت وهم الانفتاح الثقافي، من أجل نهب خيرات الدول، وتجريدها من الفكر بفرض أيديولوجيّات تحكم أدبها كـ (آداب ذيليّة).[4]

---

(1) مثلت دراسة (مظاهر التفاعل الأبستمولوجي والإيكولوجي في بلورة مصطلحات النقد العربي القديم) لوليد عثماني نموذجًا حقيقيًا لمشكلة فهم المصطلح، إذ لم تظهر في البحث كاملا مسألة (الإيكولوجي) المُشار إليها في العنوان إلا في رصد الأماكن التي ترد في الشعر العربي القديم. راجع: مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة العدد 7، 2014، ص (21- 30).

(2) النقد الأدبي المعاصر وأركيولوجيا التحول، ما بعد النسق: هيرمينوطيقا ما وراء المنهج، ص 163(بتصرف).

(3) الغواية الأولى، بكارة المعنى على الخاطر، أزمة النقد الأدبي -أبو تمام الطائي-أبو الطيب المتنبي، ص25-27 (بتصرف).

(4) المناصرة، عز الدين، النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاولي للطباعة والنشر، ط1، عمان الأردن، 2005، ص43.

وتتمثّل أزمة النّقد الأدبي في مجال النّقد العربي من جهة، وأزمة النّاقد من جهة ثانية، ففي أزمة النّقد العربي غياب لتمثل اللّغة النّقديّة المنهجيّة السليمة، في غياب للتكامل النّقدي، الذي يفتقد المنهجيّة الصحيحة والمناسبة لخصوصيّة النصوص العربيّة من ناحية، واللّغة العربيّة من ناحية ثانية، لافتقار النظريّة الأدبيّة والتبعيّة النقديّة للغرب.

وبتبني النّقاد رؤىً واعيةً بأهميّة التجديد في النظريّة الأدبيّة، وبالنّقد الأدبي، بما يتوافق مع اللّغة وبيئتها من دون تبعيّة مفرطة، أو رفض تام، وفقًا للفلسفة النتشيّة وكذلك التي تقتضي بمراجعة المفاهيم التقليديّة،[1] والدعوة لاكتشاف المعرفة بالاختراق الثقافي، واعتماد الفنّ طاقة ديناميكيّة، وليست مجرد وظيفة، بدأت الدراسات النقديّة بالتجديد والتطور، فظهرت دعوات لدعم البيئة وحمايتها، وذلك لما واجهه النّقد البيئي من معارضة ورفض كبيرين. [2] ليس على مستوى الوعي العربي فحسب، وإنما على مستوى الواقع الغربي الذي صدّر النّقد البيئي نفسه.

وبالرغم من هذه المعارضة فإنّ الأدب العربي قد زخر منذ نشأته بموضوعات بيئيّة، مما ساعد رواد النّقد البيئي على إعادة دراسة النّصوص الأدبيّة القديمة والحديثة، في بحث حول الإرهاصات النّقديّة للبيئة متأثرين في ذلك النّقد العربي ودوره في كشف الخطابات الأدبيّة لتحليل الأنساق المضمرة حول البيئة والخطاب السام في النّصوص. [3] وكما صرّح لوبيز بسميّة الخطاب لما آلت إليه الطبيعة، بإزالتها كنتيجة للتطور الاقتصادي الحديث."[4]

وهنا بدأت مسؤوليّة النّقد البيئي، في مناقشة المفاهيم والمبادئ البيئيّة التّي لا تتوقف عند علاقة الإنسان بمن حوله، بل تتعداها إلى علاقة الإنسان بالإنسان، لتشمل البحث في الطبقيّة، والعرقيّة، والجندر.

---

(1) علّق نتشيه في كتابه (أفول الأصنام) على فكرة محاكاة عام المثل، بأن الإنسان لا يجب عليه التمثيل لعالم لا يراه، وهو قادر على بناء عالمه، وأخلاقياته، واعتبر موقف أفلاطون وأتباعه سلبيًا اتجاه الحياة. بهدم العالم القائم على المفاهيم التقليدية. راجع: (أفول الأصنام)، ص 31-34(بتصرف). وراجع: (الإيكولوجيا الثقافية اتجاه جديد في النقد البيئي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 153.

(2) (العودة إلى النقد البيئي: من الأدب البيئي إلى السياسية البيئية)، ص 11.

(3) جيليكا توسيتش، (النقد البيئي.. دراسة بينية في الأدب والبيئة)، ص329.

(4) Lopez, Barry (998) , "We are shaped by the Sound of Wind, the Slant of the Sunlight" High Country News p1 (14 September 1998)30:17، راجع: ناصر، ديما، (العودة إلى النقد البيئي، من الأدب البيئي إلى السياسة البيئية)، ص 269.

وبهذا البعد النّقدي الإجرائي وجب الالتفات في عمليات التأويل لجملة المبادئ التّي يقوم عليها النّقد البيئي بوعي لمعطياته، لمقاربة الأعمال الإبداعيّة القديمة والحديثة بشكل يفي بأهداف المنهج الجديد وصولًا لحل الأزمة البيئيّة، في تسليط الضوء على المفاهيم البيئيّة التي يتضمنها النص. **ويمكن إجمال مظاهر المأزق النّقدي البيئي المعاصر في المشهد الأدبي العربي، في خمسة مظاهر هي:**

كلاسيكيات التأويل:

وفي تتبّع مسار الدراسات النّقديّة البيئيّة للشعر العربي، قدّم عددٌ من الدراسات تحليلًا كلاسيكيًا لمظاهر الطبيعة في الشعر العربي، في دراسة متحفظة ومحدودة الأفق، كأنّها مقيّدة في شرح ما جاءت به الأبيات الشعريّة من مظاهر للطبيعة، من دون سبر أغوار التأويل بصبغة النّقد البيئي وأهدافه الداعيّة إلى البحث في عمق الأزمة من ناحية، والبحث عن حلها من ناحية أخرى.

وفيما قدّمته دراسة: مقاومة بيئية في شعر محمود درويش (2016)[1]، للباحث ضياء الرحمن، تحليلًا نقديًّا لثلاثة دواوين، بهدف تطبيق مبادئ النّقد البيئي في مكاشفة لأنواع المقاومة التّي لقبها بالخضراء.

وبالرّغم من محاولة الدراسة تقديم مظاهر الطبيعة الفلسطينيّة، وعنايتها بالمقاومة في محاولة لكشف علاقة تكامليّة ضد الظلم والاستبداد، فإنّ التحليل النّقدي يُعدّ تحليلًا كلاسيكيًّا لا يتعدى شرح محتوى النّص الأدبي، في تعداد لمكونات البيئة وشرح كيفيّة مقاومتها، من دون وضوح لرؤى الأيدولوجيات الموجّهة التّي طوعها الشاعر في لغته الشعريّة المسترسلة في تكافل الطبيعة مع المقاومة، وبالرّغم من أنّ جوهر القصائد كان في نسقه البيئيّ يسلّط الضوء على الأنا والآخر في قدرة البيئة بالتّفريق بين هوية المحتل، وهوية صاحب الأرض لإثبات الحقيقة، وملكيّة السكّان الأصليّين للأرض، بتعاطفها معه والمقاومة من أجله، في تمازج كامل يصل لدرجة الوحدة مع الطبيعة لا أنسنتها فحسب، فإنّ النّاقد لم يثبت هذه المبادئ، ولم يقف عليها، بعين واعية، لكنه اكتفى بمحاولة تحليل تفاعل الطبيعة مع المقاومة، ليعززّ أجندةً تاريخيةً وسياسيّةً، في الحق الفلسطينيّ بالحريّة، من غير أن يقرأ النّص بأبعاده الكارثيّة التي أوقعت البيئة بالأزمة المعقّدة

(1) ضياء الرحمن، محمد، (مقاومة بيئية في شعر محمود درويش): (عاشق من فلسطين) و(يوميات جرح فلسطيني) و(المزامير)، مجلة الدبيل، مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، مجلد 1، العدد1، 2016.

بأنساق مؤسساتيّة، تحكم للاحتلال اليهودي بالتفوق وإنّ شمل أذاه للبيئة بجميع مكوناتها الإنسانيّة وغير الإنسانيّة.[1]

ليس مستغربًا أن يمرّ التحليل النّقدي البيئي في مرحلة التباس، لافتقار المرحلة النّقديّة للتأصيل الدقيق الذي ينجو بالتأويل من مأزق الكينونة، التّي تتمركز حول الإنسان وفهمه للطبيعة وما تقدّمه له من معطيات وانعكاس لمشاعره، لا لأنّه يندمج معها في تفانٍ يصل للوحدة، أو المساواة، بل في وصف يظهر بكينونة بشريّة، يغلب عليها السيادة، ووفقًا لدعوى هيدجر فإنّ الإنسان يفترض أن يكون راعيًا للكينونة لا سيدها. [2] تلك الكينونة التّي توسع معناها في موضوعات المقاومة الفلسطينيّة لتشمل بالإضافة إلى مواجهة الاحتلال، مواجهة التطبيع، بإثبات الهويّة الفلسطينيّة؛ لذا كان من المفترض التوسع في تأويل النسق البيئي المضمر، الذي تجاوز اتباع الطبيعة في المقاومة، بل إنها تثبت الولاء لصاحب الأرض والهوية.

المثاليّة المنهجيّة المقيّدة في إطار:

يستند النّقد البيئي إلى منهج تأسس عند نقاد الغرب بعدد من المبادئ، في خطوات تحليليّة، ومفاهيم نقديّة متصلة بالإجراءات، لمقاربة النصوص والخطابات البيئيّة، وفهمها وتفسيرها، وقد مثلها بحث الدكتور بدران[3] تمثيلًا دقيقًا، إلا أنه اتسم بالتعداد أكثر منه بالتأويل، فقد استنتج المبادئ النقديّة، من قصيدة أمل دنقل، دون النّظر في غور الإشارات التّي تضمنتها النصوص والتّي تحيل النّاقد إلى إطار البنية النسقيّة للمفاهيم النقديّة البيئيّة في النّص، فقدّم شرحًا لألفاظ القصيدة وصورها المجازية في معزل عن السياق التاريخي للشاعر، بهدف ربط ما قدّمه من مبادئ بيئية في سياقات سياسيّة واجتماعيّة، لتشخيص الحالات التّي أدّت لإشراك الشاعر الطبيعةَ صعوبة عيشه، وألمه الذي جسّدهما في أبيات تصور أوجاعه، واغترابه بانشطار الذّات وتوحدها مع الطبيعة، فبدا التحليل فنيًّا ينحو قليلًا صوب التحليل الثّقافي.

---

(1) مثال قول الشاعر في دم الشمس، ص183.

(2) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص45.

(3) بدران، الدكتور محمد أبو الفضل، (أهمية النقد الأدبي البيئي، في الدراسات النقدية)، ص 193- 203.

وكان من المفترض أن يُقدم الباحث تأويلًا منفتحًا على حيثيات النّص، وتحديد المضمرات الدّالة على الحاضر والمستقبل في بيان كل من الأزمة والحل وذوبان هوية الشاعر مع الطبيعة أو اتحادهما، بيان لفوضى الحركات الاجتماعيّة والسياسيّة التّي يعيشها.

السيميائيّة البيئيّة وتمثلات النّقد البيئي:

إنّ اهتمام الدارس العربي في السيميائيّة البيئيّة كمنهج للتحليل النّقدي البيئي، كما في بحث: الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهرة صفار زاده، 2018.[1] ما هو إلا رصد لإشارات بيئيّة وردت في النص الشعري، من ألفاظ وصور وتراكيب، في حين أنّ تقنيات النّقد البيئي تتجاوز مرحلة الحصر والتعداد للظواهر الطبيعيّة، في أشكالها السيميائيّة، لتصل للانزياح الذي يبيّن مدى المشكلة البيئيّة وكيفيّة حلها، فهو ينتقل بمسار ويظهر ما فيه من توتر فكريّ واجتماعيّ وسياسيّ، أو غموض يتمثل في معطيات أيديولوجيّة تسيطر على المُنتج الأدبي، وذلك في محاولة لمكاشفة ما فيه من صراع بيئي، إنسانيّ ولاإنسانيّ.

وبالرّغم من اقتباسه فكرة العنونة في الجانب التطبيقي من كتاب النّقد البيئوي (لجرارد)، باختيار العناصر البيئيّة: (الشمس، التربة (الأرض)، الشجرة، الماء هو عنصر الحياة، الزهرة، الليل)، فإنّ هذه العتبات شكّلت تعبيرًا سطحيًّا لم يتمثّل المبادئ النقديّة البيئيّة، بل توقف عند تفسير مفهوم الطبيعة كونها عنصرًا تمثيليًّا، لا حالات أيدلوجيّة، وبهذا يكون المأزق التحليلي متمثلًا في تصريح بويل: إذ لا يصلح اعتبار النّقد "فنتازيا أو رمزًا اجتماعيًّا." [2] ذلك لأنّ النّقد البيئي يتجاوز العلامة السيميائيّة ليصل للنسق البيئي المضمر، الذي يكاشف العلامة والتاريخ للنص بكل حيثياته الاجتماعيّة والسياسيّة.

بين الرومانسيّة والرومانسيّة البيئيّة:

لقد مثّلت المدرسة الرومانسيّة مفتاحًا لتقديم النّقد البيئي، ففي مكاشفة لأثر الطبيعة في الآداب باختلاف الثقافات المتعدّدة، مهّدت لدراسة كتابة الطبيعة، التّي تحمل معها أنساقًا ثقافيّةً متنوعةً بتنوع الأيدولوجيات، ومما قدّمته دراسة (جماليّات المكان في شعر الاتجاه الرومانسي:

---

(1) رومي بور، علي، وغيره، (الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهرة صفار زاده)، آداب الكوفة، مجلد 10، العدد: 37، 2018.

(2) فيليبس، دانا، (النقد البيئي والنظرية الأدبية وحقيقية الإيكولوجيا)، ص 104- 107(بتصرف).

دراسة في النّقد البيئي) 2018[1]، في تحليلٍ بيّن خصائص المدرسة الرومانسيّة، من دون النّظر في قوة الطبيعة التّي يلجأ لها الشاعر في ولع التناغم من خلال الإعجاب بصمود الطبيعة وقوتها،[2] تلك التّي نعتها شيلر: "امتدادًا للعالم البشري".[3]

وفي استدعاء الذائقة الرومانسيّة للقصيدة تظهر نداءات تتردّد في صدى عالم لغير البشر، وفقًا لتصنيفات سكينر للشعر البيئي وفقًا لخصائصه لأربع أصناف، تُصنّف القصيدة بأنّها "أدب وشعر المكان: الطوبولوجي"، الذي يُصور المكان في إشارة إلى ما هو خارجه، ضمن "ثيمات وموتيفات التقليد الرعوي"،[4] لتشمل حلًا ينشأ من خلال دراسة ما في القصيدة من مجاز لغوي يحمل أثرًا فكريًّا عميقًا في علوم البيئيّة. وبذلك تتضّح ضرورة تنمية الوعي البيئي، وروح المسؤوليّة لدى الناقد بمكاشفة لما في النّص الشعري من مفاهيم ومعاني مضمرة.

إنّ ما يدعو له النّقد البيئي في دراسة للمقاربات الماديّة، والجدليّة الثقافيّة في الأدب، تحتم على الناقد تمحيص النّظر في التماثلات المترنّحة في النّص، لمكاشفة ما فيه من تناقض أو تشويه فكري، من خلال المعنى، والعلاقات. ومثال ذلك: قول الشابيّ في قصيدة الغاب:

وجداولٌ تشْدو بمعسولِ الغِنا وتسيرُ حالمةً بغيرِ نظـــــامِ
ومخاوفٌ نَسَجَ الزَّمانُ بساطَها مِنْ يابسِ الأَوراقِ والأَكمامِ
وحَنَا عليها الدَّوْحُ في جَبَروتِه بالظّلِّ والأَغصانِ والأَنْسامِ[5]

(1) مصطفى، هناء محمد، (جماليات المكان في شعر الاتجاه الرومانسي: دراسة في النقد البيئي)، ص205-208 (بتصرف).
(2) جرارد، النقد البيئوي، ص 54.
(3) المرجع السابق، ص 57.
(4) ويستعير سكينر مصطلح: توبولوجي، من "جد راسولا"، ليصف النوع الثاني، ويفيد سكينر من عمل الفنان والكاتب روبرت سميثسون لصياغة مصطلح النوع الثالث: الشعريات الأنتروبولوجية، والنوع الرابع، "الإثنولوجي"، الذي ينذر باهتمام نقدي لاحق في البينات القصيدة، راجع: ريدك، يفون، تيد هيوز، (النقد البيئي، والشعريات الإيكولوجية)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 315-316(بتصرف).
(5) مصطفى، هناء محمد، (جماليات المكان في شعر الاتجاه الرومانسي: دراسة في النقد البيئي)، ص 211.

وبهذه الأبيات يتطرّق النّاقد لشرحها بسطحيّة[1]، من غير النّظر في التصنيفات الموضوعاتية[2] التّي قدّمت أيدولوجيّات عميقة في القصيدة، ومنها قول الشاعر: بغير نظام/ جبروته: وهنا ثنائيّة سياسيّة تظهر بين متناقضين في مسألة الخضوع: بين مفهوم المتعة المرافقة للانفكاك من قيود النظام من جهة، والجبروت الذي يخضع الآخر له بقوته وحنانه -بالوقت نفسه- من جهة أخرى، لتظهر مفارقة فكريّة تحدد العلاقات وما بينها من ملابسات أيدولوجيّة. وبتأثر الشاعر باستخدام الألفاظ السلطويّة للتعبير عن الطبيعة وانسجام مشاعره معها، في مكاشفة أيدولوجيّة للسطوة المؤسساتيّة على الفكر اللّغوي والسلوك الانفعالي، الذي ينعكس على الاستعارات والتخييل الموظفين عند الشاعر، وبالرغم من أنه رومانسي الوجه؛ فإنّه وقع في فخ السطوة المركزيّة، والشعور بالتراتبيّة بطريقة غير مباشرة، يظهر من خلال اختيار الشاعر لألفاظ القصيدة، وبهذا التفسير يبتعد الناقد المحلل للقصائد عن الغوص في أغوار الألفاظ لاكتشاف ما فيها من ثقافات تؤثر بالمفاهيم المنتشرة والقيم المسيطرة على الشاعر، ومن يستجيب لمؤلفاته.

المضمر البيئي بين التحليل والتأويل:

في حين اعتبار السرد الانعكاس البيئي والاجتماعي، في مؤلفات قدّمت لتجارب مختلفة، فقد عُنيت دراسة: (نسق النِّسويّة البيئيّة في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي (2019)[3]، بالكشف عن المفاهيم النظريّة للنّقد البيئي، ثم تحليل الرواية في ضوئها مع بيان الأنساق المضمرة

---

(1) نص التعليق على الأبيات من البحث: "في هذه الأبيات أحسّ الشاعر ذلك الإحساس المرهف وتساءل هل وجدت بيتًا بُني من الشذى والظل، والأضواء، والأنغام، والسحر؟! ولكن لماذا بنى هذا البيت انه لم يُبن لنا إلا للحب والأحلام والإلهام وكأنه بُني له وحدة. أرأيت جداول تشدو بالنشيد وذلك النشيد معسول؟! وكأنه يريد أن يقول انه ماء هذه الجداول عسل وهذا البيت ليس خاليًا مجدبًا، ولكنهم مليء بالسحر والتجدد، وترفرف عليه النسائم، كأنها أجنحة الملائك، لما تحفه بالرحمة العناية، وهو ليس وحيدًا في الغابة مع الجداول كأنهن فتيات حالمات يتخطرن على أبسطة طبيعية صنعتها يد الله سبحانه وتعالى من الأوراق اليابسة، تزينها الزهور المتفتحة، ويشبه الأدواح بالألم التي تحنو على أبنائها، وتضمهم في ظلها وتحتضنهم بين أغصانها. هكذا أشعر بمدى إحساس الشابي بالأمان والسعادة في ظل الطبيعة". المرجع السابق 211

(2) فيدر، هلينا، (النقد البيئي وإنتاج المسوخية في رواية فرانكشتاين)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 262.

(3) السلطاني، إيمان مطر، (نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، 2019.

في العبارات والجمل المرتبطة بالطبيعة والمتعلقة بالمرأة في نقد يظهر لبسًا في التفريق بين النّقد النِّسوي، والنّقد النِّسوي البيئي، وخاصة عند الوقوف على تطبيق أدوات النّقد النِّسوي.

ولما كان من المفترض أن يخدم التأويل النّقد البيئي في بيان العلاقة الإنسانيّة بالقرية كما في بحث (دراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح 2012) [1] الذي سلّط الضوء على علاقة الإنسان الحميميّة بالطبيعة، المتصفة بالنقاء، والوفاء، مفرقًا بين القرية والمدينة، وكان النّقد البيئي في هذه الدراسة مقتصر على تعداد المبادئ، من دون الغوص بما فيها من أنساق ثقافيّة، وتاريخ ارتبط بتكوين القصص، فبدت الدراسة تحليليّة لا تأويل فيها، ولا بيان للمخاوف التّي يجدر على النّاقد البيئي مكاشفتها، في محاولة لحل الأزمة البيئيّة.

وفي المقابل أظهر بحث (العدل والظلم في المسرح، دراسة نقديّة بيئيّة، Environmental Justice Injustice in Marie Clements's Burning Vision: An Eco-Critical Study)[2] تحليلًا جيدًا في دراسة الآثار العميقة التّي يخلفها الغزو النووي، واستعماره للبيئة بجميع مكوّناتها البشريّة واللابشريّة، من خلال مسرحيّة (الرؤية المحترقة) التّي عرضت فيها الظلم البيئي وآثار ذلك على السكان الأصليّين للمنطقة، وبهذه الدراسة نوع جديد من الاستغلال البشري، الذي لا يضر فيه البيئة فحسب بل يتعدّاه للبشريّة أيضًا، وقد حاولت الباحثة آمال تقديم التحليلات البيئيّة الشاملة لمفاهيم ومبادئ النّقد البيئي.

بدا الأدب يمثل قوة إيكولوجيّة، فيما يقدّمه من خطابات ثقافيّة متمثلّة في إبداعات جماليّة، يمكن تأويلها لمكاشفة ما فيها من أيدولوجيّات تحدد الوعي البيئي للأزمة، وثمّة نموذج وظيفي طوره النّقاد في تحليل الأدب السردي باعتباره إيكولوجيّة ثقافيّة، لكسر الأفول المتحجّرة للتحليل اللّغوي، في رؤى جديدة للنّصوص السرديّة، تحدّد وظيفة الاشتغال النّقدي في ثلاث حيثيات تتضمن دراسته من الداخل والخارج على حد سواء، فيعمل أولًا على تفكيك الخطاب أيدولوجيًا واصفًا القوى المهيمنة، لتفتيت السّطوة المركزيّة المهيمنة على الفكر المتسبب في الأزمة البيئيّة سعيًا لإيجاد الحلول الجذريّة لها، ثم يدرس الخطاب التخييلي المضاد، الذي يسلط

---

(1) أبو ملحمة، محمد بن يحيى، (دراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح)، التواصل، جامعة عدن- نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي، عدد 28، 2012.

(2) العدل والظلم في المسرح، دراسة نقدية بيئية، Environmental Justice Injustice in Marie Clements's Burning Vision: An Eco-Critical Study، فيولوجي سلسة في الدراسات الأدبية واللغوية، العدد 74، جامعة عين شمس، 2020.

الضوء على كل ما هو مهمش[1]، أو مُبعد ثقافيًا، لأسباب مؤسساتيّة بأشكالها المختلفة، لمكاشفة الحقائق ومواجهتها، وإن كانت صادمة ومخيفة، وأخيرًا يقدم الخطاب الداخلي الجديد، الذي يقدّم ثقافة متحولّة تجمع بين المعرفة والجمال.

(1) (الإيكولوجيا الثقافية اتجاه جديد في النقد البيئي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) ص 160-161(بتصرف).

الفصل الأوّل

النّقد البيئي والنّظريّة الأدبيّة: تقاطع واختلاف

كان تأثير الأيدولوجيّات في تطور النظريّة النقديّة الأدبيّة واسع النطاق؛ فقد غيرت اتجاه الدراسة الأكاديميّة للنّص الأدبي، ووضعت ما يشبه أجندة جديدة للنّقد والتحليل، والتأويل، ظهرت ثمارها في توظيف حقول ومعارف وعلوم، ومنها: علم اللّغة، والفلسفة، والتاريخ، والدراسات الدينيّة، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيّا، والأفلام، والدراسات الإعلاميّة، والدراسات الثقافيّة، وعلم الموسيقى، والجغرافيا، والاقتصاد، والقانون، والبيولوجيا، وعلوم الفيزيائيّة، والعلوم الاجتماعيّة، والإنسانيّات.

كما أظهر الدرس النّقدي تشابكًا مع مجالات علميّة وتجريبيّة مثل: علم الأحياء التطوري، وعلم الأحياء الاجتماعي، والعلوم الإنسانيّة التطوريّة، الأنثروبولوجيا الفيزيائيّة والثقافيّة، وعلم الأحافير، وعلم الآثار المعرفي ، وعلم الأخلاق، وعلم البيئة السلوكي، وعلم النّفس التطوري، وعلم الحيوانات الأساسيّة، وعلم النّفس المقارن الذي يقارن ما بين البشر والحيوانات الأخرى، وعلم النفس التنموي، وعلم نفس الأسرة، وعلم الأعصاب الإدراكي، والعاطفي، والاجتماعي، والنّظريّة الشخصيّة، وعلم الوراثة السلوكيّة، واللّغويات، ونظريّة الألعاب (النمذجة الرياضية للتفاعلات الاجتماعيّة).[1]

وعُني النّقد الأدبي الحديث في تحديد الاحتياجات الإنسانيّة الأساسيّة والمشتركة، مثل: **البقاء والجنس والمكانة**، ليبيّن توظيف هذه الاحتياجات في وصف سلوك الشّخصيات المصورة في النّصوص الأدبيّة، وتحدّد الجهد النّقدي من خلال التفسيرات المتصفة بالشموليّة، منها - على سبيل المثال - البحث في التفسيرات السببيّة لفهم التكيّف عن طريق الانتقاء الطبيعي، انطلاقًا من فرضيّة مفادها أنّ العقل يطور علاقات التكيّف مع بيئته، وباعتبار أنّ الأدب أصبح موسوعة معرفيّة تشمل جميع العلوم بالإضافة إلى جميع مجالات الحياة؛ فقدّم النّقاد العمل الأدبي وما يحتويه من قيمة علميّة وأخلاقيّة من خلال دراسة **النّغمة، والأسلوب، والموضوع**.[2]

---

(1) Carroll, Joseph. "Literary study and evolutionary theory." Human Nature 9.3 (1998): 273-292.

(2) Carroll, Joseph. "A rationale for evolutionary studies of literature." Scientific Study of Literature 3.1 (2013): 8-15.

وبإثارة التساؤلات حول النّصوص الأدبيّة، ودراستها من الداخل إلى الخارج، بدءًا من فهم اللّفظة، والمعجم الدلاليّ مرورًا بفهم التاريخ، وانتهاءً بالمضمرات الثّقافيّة في النص، وما تحملها من إشارات للماضي والحاضر، بالإضافة إلى تنبؤات المستقبل[1]، فقد أصبحت دراسة الأدب لا تُعنى بفهم الوصف أو التاريخ، بل إنها تهتمّ بفهم الأيدولوجيّات، والمعتقدات العميقة بهدف نشر الوعي بالسلوك البشري بغرض تقويمه وتحسينه، في فكر قيميّ أخلاقيّ جديد يناقض بعض الموروث في مسائل المركزيّة البشريّة، ويفنّد موضوعات الهيمنة، والعنصريّة، والتَّنَمُّر، والطبقيّة، في إطار البيئة وما يتصل بها.

وبهذا، كانت للنّقد البيئي رؤى جديدة حول النّقد الأدبي، في تمظهر قراءات ذات إجراءات وأدوات تطبيقيّة في الممارسة الأدبيّة ذاتها؛ حدّدت التداخلات الفكريّة الخاصّة في مجال النظريّة الأدبيّة، كما في النظريّة المعرفيّة التّي تُعنى بدراسة العلوم الإنسانيّة بأسلوب شمولي مكاشف لما يُعرف بالغطاء الاجتماعي، والفساد الاقتصادي، والهيمنة السلطويّة... إلخ.

وبما أنّ ما يحمله العقل هو ما ينتجه من ذلك الأدب، فإنّ المنظور الثّقافي الحيوي هو الأشمل في احتوائه على جميع الموضوعات التّي ولدتها المدارس الأخرى في النّظريّة الأدبيّة؛ والمعنيّة بدراسة السلوك البشري. ولأن أيّ كائن حيّ هو نتاج التفاعل بين ما هو موروث فإنّ التأثيرات البيئيّة؛ إنما هي منتجات للتّكيّف،[2] وقد ظهرت في أدب الطبيعة لتوصيف الواقع والخيال، وتؤكّد كون المعنى المحفور في عقول البشر نتيجة تجاربهم وأحاسيسهم وتصوراتهم؛ مما يؤدّي إلى فهم السلوك الإنسانيّ والسيكولوجيّ النفسيّ[3] له.

وكان الفضل في الالتفات للنّقد البيئي لا يعود إلى تطور دراسة العلوم، في تشابك التخصصات فيما بينها وحسب، بل إلى أهمية أدب الطبيعة الذي قدّمه لنا الموروث الفكريّ والأدبيّ عبر العصور. وسواء أكانت دراسة هذا الأدب بطرق علميّة وفق دراسات نصيّة مستغلقه أم كانت

---

(1) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال مايكيل كوهين، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص64.

(2)Carroll, Joseph. "A rationale for evolutionary studies of literature." Scientific Study of Literature 3.1 (2013): 8-15

(3)Carroll, Joseph. "Minds and Meaning in Fictional Narratives: An Evolutionary Perspective Joseph Carroll University of Missouri—St. Louis." (2017).

دراسات تأويليّة تسعى لاستنباط الرؤية الإنسانيّة وعلاقاتها بحاضر ومستقبل هذا العالم، فإنّ ما قدّمته بعض الدراسات في مجالها التطبيقي كرّس التزامًا مؤسّساتيًا، وفسادًا اقتصاديًّا، وهيمنةً بشريةً، وهوسًا في استغلال الطبيعة، ونظرة راديكاليّة، من هنا ظهرت التقاطعات بين النّقد البيئي والنظريّة الأدبيّة والنظريّة المعرفيّة؛ لتحاول سدّ هذه الثغرة، ولتعيد الاعتبار للبيئة، ليس على المستوى الإيديولوجي فحسب، وإنما على المستوى الواقعي أيضًا، وهذا على اعتبار أنّ الأدب ظاهرة اجتماعيّة في واقع الأمر.

ولعلّ هذا ما يتّضح مع لورانس بويل الذي رأى أنّ النظريّة النقديّة مرتبطة بالبيئة على اعتبار أنّها دراسة للعلاقة بين الأدب والبيئة بروح من الالتزام بمبدأ براكسيس البيئي"[1]كما أنّه صاغ مصطلح خلط بين البيئة والأدب والخيال هو: الخيال البيئي: وعرفه بأنّه رد إمكانيّة الجمع بين البيئة الماديّة مع موقف يشير إلى وجود الجغرافيا الثقافيّة للمنطقة، وهذا هو السبب في وجود الخيال الحضري أو خيال الجزيرة، حيث يؤثر المكان في المنهج الروحاني".[2]

ومن هنا، كان لابدّ من تحديد عوامل التلاقي بين النظريّة الأدبيّة والنّقد البيئي، لتتّضح المبادئ الأساسيّة للنّقد، ولتحقيق فائدته المتمثّلة في نشر مقاربة في التأسيس لثقافة جديدة تدعو إلى المساواة ونبذ التراتبيّة لحل الأزمة البيئيّة.

أولًا: النّظريّة الأدبيّة والنّقد البيئي مقاربة في التأسيس:

وبين المعنى واللّغة ارتباط يصل إلى الفكرة الممهّدة للعمل والإنتاج، ولأنّ: "أول الفكر آخر العمل، وأول العمل آخر الفكر"،[3]المرتبط بالإيديولوجيّة الذاتيّة والجمعيّة، وبما أنّ جميع الأنساق الثقافيّة البيئيّة (الإيكولوجيّة الثقافيّة) تَعدّ الإبداع من أهم العناصر الثقافية، ومركزها في الفنّ والأدب، فإنّ ارتباط الأدب بالإيديولوجيات الثقافيّة المختلفة يمثل ضرورةً للأنساق الثقافيّة، لما يقدّمه من تجديد لديناميكيتها، واستمراريّة لقوتها التطوريّة، ولأن العمليات الإبداعيّة من النصوص التخييلية مرتبطةً بسيرورة الحياة، فإنّه من المهم دراسة الإطار الإيكولوجي الثقافي

(1) (النقد البيئي تحت المنظار)، ص 48، (بتصرف).

(2) فيليبس، دانا، (النقد البيئي والنظرية الأدبية وحقيقية الإيكولوجيا)، ص 104.

(3) ابن قتيبة، (أدب الكاتب)، تحرير: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985، ص 8-9.

المُكون لها، كما طبقته وندي ويلر(Wendy Wheeler) في تفسير السيميائيّة الثقافيّة للغة عند تشارلس ساندرز (Charles Sanders Peirce 1839-1914).[1]

ثمّة صراع فكري ينازع النّقاد حول ماهيّة (النّقد البيئي)، وأصالة نشأته، وفي ضوء هذا الصراع كان لابد للنّقد البيئي من مرجعيّة علميّة تحدد اتجاهاته حول مفهوم الثقافة والطبيعة، وعلاقتهما بالنّقد البيئي، أي منهما الأصل في تكوين البناء النّقدي، هل الطبيعة ملجأ الثقافة؟ وبمعنى آخر هل الطبيعة إنشاءٌ ثقافي؟[2] وفي امتداد التساؤلات العميقة حول ماهيّة النّقد البيئي، يقع التساؤل عن اعتبار ما يدرّس في الأدب والطبيعة.

وفي الحقيقة، فإنّ دراسة النّقد البيئي تُبنى على رؤى متنوعة، وتساؤلات عميقة، تبدأ بماهيّة الأدب العربي وعلاقته بمبادئ النّقد البيئي؟ وهل النّقد البيئي في حقيقته جزء من النظريّة الأدبيّة؟ أو هل هو تطوير لممارسات نقديّة منفتحة على تخصصات عديدة، ومتبلورة في علم نقدي فاق النّقد الثقافي وتجاوزه في مزج للمكونات الحياتيّة؟ وغيرها من التساؤلات التي انطلقت من دراسات تستهدف في الإنتاج الأدبي السمات البيولوجيّة للسلوك الإنساني، في تمظهراته المختلفة.

وفي هذا امتداد لفلسفة أرسطو في تداخل الاختصاصات، وإنّ ما قدّمته التطبيقات الأرسطيّة في قراءة النّص بشكله البنائي الأولي، وفي اختيار الألفاظ الدّالة على البيئة، ما هو إلّا فهم لمستويات الاتصال السيميائي بما يحمله من الأنساق البيئيّة (الإيكولوجية). عبر مستويات المجاز في اللّغة والخطاب والفنّ. تلك القراءة "الاستعاريّة" كما قدمها غريغوري باتسون (Gregory Bateson 1904-1980) عرضت الأدب بوصفه شكلًا ثقافيًّا تداوليًّا، يمثل الفنّ في تحديد التشابهات والاختلافات التّي تُكون السيرورة البايوسيميائيّة[3]. وبهذه المسألة الارتباطيّة بين الأدب والنّقد البيئي؛ ظهرت تساؤلات عديدة تتطلع إلى فهم التقاطعات والتشابه بينهما مثل: ما هو الدور الذي تلعبه البيئة الماديّة في الخطاب الأدبي؟ وهل تظهر القيم الأخلاقيّة متوافقة مع الحكمة البيئيّة؟ كيف تؤثر الاستعارات عن الأرض في طرق استجابة الجمهور للتعامل معها؟ كيف توصف كتابة الطبيعة نوعًا أدبيًا؟ هل ما يكتب في الهويّة، والعرقيّة، والطبقيّة من كتابات الطبيعة؟ وهل

---

(1) راجع هوبرت زابف، (الإيكولوجيا الثقافية، اتجاه جديد في النقد البيئي)، ص158.

(2) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال مايكيل كوهين، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص54(بتصرف).

(3) راجع: (النقد البيئي تحت المنظار)، ص: 55-59 (بتصرف).

ما يكتبه الرجال عن الطبيعة يختلف عن الكتابة النِّسويّة؟ ما تقاطعات التلاقي والتأثير بين كتابات الأزمة البيئيّة والنظريّة الأدبيّة المعاصرة؟ وما مدى علاقتها في الثقافة الشعبيّة والسلطة؟ وما الأثر الخطابي؟ ما تأثير علم البيئة الدراسات الأدبية؟ كيف يكون العلم البيئي متاحًا للتحليل الأدبي؟ ما التلاقح الممكن بين الدراسات الأدبية والخطاب البيئي في التخصصات ذات الصلة مثل التاريخ والفلسفة، وعلم النفس، والتاريخ، والفنّ، والأخلاق؟

وعلى الرّغم من النّطاق الواسع للبحث في مستويات متفاوتة من التطور، قدّمتها التساؤلات التّي طرحها النّقاد في محاولات فهم التقاطعات بين النّظريّة الأدبيّة والنّقد البيئي، فإنّ النّقد البيئي يشترك في الافتراض الأساسي بأنّ الثّقافة البشريّة مرتبطة بالعالم الماديّ، ويتّضح الترابط بين الطبيعة والثقافة، من خلال القطع الأثريّة الثقافيّة للّغة والأدب؛ كخطاب نظري، يبيّن العلاقات في إشارة إلى ارتباط النّقد البيئي والتاريخ البيئي[1]، سواء أكان في مكمن الثّقافة المكونة له، أم كان في تأويل العلامات والشيفرة الثّقافيّة عبر الزمن.

ولأنّ النّظريّة الأدبيّة تبحث بشكل عام في العلاقات بين الكتاب والنّصوص والعالم، فإنّ معظم النّظريات الأدبيّة، ارتبطت ب "العالم" كمرادف للمجتمع في المجال الاجتماعي، إلّا أنّ النّقد البيئي يوسع دائرة الدراسة من فكرة "العالم" ليشمل المحيط البيئي بأكمله. وبقانون باري كومون (Commune) الأول للإيكولوجيا البيئيّة، "كل شيء مرتبط بكل شيء آخر"، ينتج عن ذلك أنّ الأدب لا يطفو فوق العالم المادي في بعض الخيال والاستعارات الجماليّة، بل يؤدي دورًا في نظام عالميّ معقد، تتفاعل فيه الطاقة والمادة والأفكار[2]. ويظهر تمرّدًا عليه. لا بالقول فحسب، بل في الفعل أيضًا، بوصف الخطاب الأدبيّ صانعًا للحدث مؤثّرًا في المستقبل، لا واصفًا للواقع وأحداثه فقط، ذلك؛ لأنّ مدركات الأفراد والجماعات تختلف في فهمها للخطاب الواحد؛ وفقًا لما تحمله من إيديولوجيّات ومعتقدات متباينّة.

---

(1) المرجع السابق، ص 52.

(2) راجع مقدمة كتاب: Cheryll Glotfelty (Editor), Harold Fromm (Editor), Michael P Branch (Contributions by) Ecocriticism Reader; Landmarks in Literary Ecology, University of Georgia Press, 1996,p:ix.

وبالنّظر إلى تعريفات النّقد البيئي فإنّها قد اتّفقت في المعنى القائم على مبدأ الكلانيّة (الشامل)،[1] باعتبارها دراسة منشقّة عن الفلسفة البيئيّة، تقدّم الهرمنيوطيقا (التأويل) للكيفيّة التّي تتشكل بها الطبيعة في النّص الأدبي، ومدى ارتباطه بالثّقافة الإنسانيّة من جهة، والفكر السياسيّ من جهة أخرى، وذلك من خلال الخطاب الثّقافي، والأدبي الإبداعي والنّقدي، الذي ينشر القيم الفطريّة، ويدعم تقبل الآخر.

وبشموليّة النّقد البيئي في محتواه الفكري، وتقاطعاته المعرفيّة الواسعة مع جميع العلوم، وكياسته الفطنة باحتواء أغلب المجالات الحياتيّة، اتسمت النزعة النقديّة البيئيّة بتميزها للسلوك الأدبي في مبادئ وإجراءات، تطورت عن النظريّة الأدبيّة في فروعها، وظهرت جليّة في النّقد الثقافي، والنّظريّة النِّسويّة، وما بعد الكولونيالية.

النّظريّة الأدبيّة من اللسانيّة إلى النّسق:

مرّت النّظريّة الأدبيّة بمراحل تطور متباينة الأشكال، افتقرت بعضها إلى الشموليّة عندما أظهرت الاهتمام بالبنية من دون النّظر إلى التاريخ، أو العكس، وبالرّغم من الارتباط المباشر للأدب بتمثلات الحياة في جميع مجالاتها، وعلى كل الأصعدة: السياسيّة، والاجتماعيّة، والتاريخيّة، والفكريّة، والاقتصاديّة، وغيرها، فإنّ النّقد الأدبي لم يجمع بين هذه العوامل جميعها، إلا بما مهّده النّقد الثّقافي، لظهور ما يُعرف بالنّقد البيئي؛ ذلك لأنّ النّقد البيئي لم يعد نقدًا مختصًّا بالطبيعة فحسب، بل إنّ مجالاته امتدت لتشمل جوانب حياة الإنسان، بعلاقاتها الذاتيّة، ومع الآخر، والإحيائيّة والكونيّة، وبالرّغم من خروج النّقد البيئي من عباءة النّقد الثقافي، فإنّه فاقه بشموليّة محتواه وإجراءاته، ومجالات بحثه، وتحليله، وتأويله، وهو ما يستوجب قدرًا من التوضيح.

فمنذ أن اتجه الأدب مع التيارات الفكريّة والعقليّة، خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بالتوهج في أوروبا؛ لتأسيس عصر النّقد وإلى أن تبلورت شذرات رؤى نقديّة تميّزت بامتزاجها مع المعارف المختلفة، وفق أبستمولوجيا العلم الحديث، ظهرت **النظريّة الأدبيّة** بتدرج

---

(1) الكلانية: مأخوذة من الكلمة اليونانية: holos ὅλος، بمعنى الكل، أو التام والكامل، أو الشامل، ففي الدراسة البيئية شمولية للأنظمة الطبيعية من علم المادة والبيولوجية، والكيمياء، والاجتماع، والاقتصاد، والعلوم العقلية، واللغوية...إلخ. المرجع: Oshry, Barry (2008)، Seeing Systems: Unlocking the Mysteries of Organizational Life, Berrett-Koehler

متسلسل ودقيق حتى وصلت إلى النّقد البيئي، وجرى هذا التسلسل وفقًا لبدايات تحكمها الأيدولوجيّات المؤسساتيّة، في دعوة لنشأة علم النّقد بتجرّد تام عن التاريخ والمحيط للمؤلف، والاكتفاء بدراسة النّص نفسه، فاهتمّت المدرسة الشكلانيّة في روسيا ببنية الكلمة، التّي تطوّرت على يد رومان جاكبسون[1] (1896-1982) باتّخاذ النّص وسيلة التحليل الأولى ضمن قاعدة "موت المؤلف"، ومن الجدير بالذكر أنّ هذه النظريّة الألسنيّة كانت مهادًا للنظريات الأدبيّة،[2] ذلك لأنّ تتبع النّص الأدبي لا يمكن إلا بفهم بنيته ومكوّنه الأساسي، البنية اللّغوية، وإستراتيجيات بنائها، لتكون نصًّا بلغة فاعلة انحرفت عن سياقها التقليدي والمباشر[3].

وتطور البحث في الأدب من البنية إلى السياق، بظهور المناهج المهتمّة بعالم النّص وتاريخه، كالمناهج الاجتماعيّة، التّي نشأت كردّ على ما قدّمته البنيويّة من تحيز لغوي، وتهميش للمؤلف، بنزوع النظريّة الاجتماعيّة لمفاهيم جديدة، بيّنت أنّ "ما يصل له الوعي الفردي إنما هو نتاج عن المجتمع".[4]الذي نشأ فيه المؤلف ليعكس العالم[5] من جهة، ورغبات من فيه من جهة أخرى، وتبعتها نظريّة النّقد النّفسي الحديث، التّي تكثّف البحث في العمق النفسي باستبطان ما فيها من صفات وإيديولوجيّات، وبهذا الوعي الشموليّ ظهر النّقد البيئي يجمع بين مفاهيم الانعكاس والتطهير في رغبة ملحّة للتطوير السلوكي والفكري.

وبظهور النظريات الحديثة التّي أفرزتها الحداثة، وما بعد الحداثة في عدد من النظريات التّي تجردت من الروافد الفلسفيّة والنقديّة الموروثة عند الغرب، مستندةً إلى عدد من المرتكزات

---

(1) عبد المطلب، محمد، (ذاكرة النقد الأدبي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2008، ص79-89 (بتصرف)، وراجع: سيلدرن، رامان، (النظرية الأدبية المعاصرة)، ترجمة: جابر عصفور، عرض: محمد بريري، ضمن مقال في مجلة فصول، العدد1، 1991، ص180.

(2) الغذامي، عبد الله، (الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998، ص 28.

(3) المرجع السابق، ص 8.

(4) راجع بارت، رولاند، (هسهسة اللغة)، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1999، ص 77-83 (بتصرف)، كذلك راجع كتاب: بارت، رولاند، (درس السيكولوجيا)، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط2، 1986، ص 84.

(5) أيزابرجر، آرثر)، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية) ، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 603، ط1، القاهرة، 2003، ص48.

الأساسية،[1] تميزت بما جمعته من تنوع في مجالات مختلفة منها: الفكريّ، والفنيّ، والجماليّ، والأدبيّ والنقديّ، إذ قامت هذه المجالات على مبادئ ومعايير واضحة، يمكن حصرها في ستّة عشر مبدئًا:

وكان أولها التقويض الذي تبنّته نظريّة (ما بعد الحداثة) لتفكيك أفول أصنام المركزيّة، وتحطيم الأيدولوجيّات القائمة على الموروث؛ ليحلّ محل هذه الفلسفات مبدأ الفلسفة العدميّة، فقي الوقت الذي سعت فيه الحداثة في مدارسها البنيويّة والسيميائيّة إلى مبدأ الكونيّة، كان مبدأ ما بعد الحداثة هو التعدّد، والاختلاف، فقد قدّمت تفكيكًا للمقولات المركزيّة، وتقويضها، مثل: مصطلحات المناهج النقديّة؛ كالدال والمدلول، واللّسان والكلام، وغيرها؛ لتصل (ما بعد الحداثة) بذلك إلى تفكيك كل ما هو منظّم، أو متعارف عليه، مستعينة بهيمنة الصّورة، في تطوير لوسائل الإعلام، عبر الصّورة البصريّة في اتجاه يُعنى بدراسة العلامة السيميائيّة بجانب اللّغة، بل إنّ الصّورة البصريّة فاقت اللّغة في التحصيل المعرفيّ[2] ومن الطبيعي أن يكون مبدأ التشكيك هو المرتكز الثاني الذي ينبش في المعارف والمسلمات اليقينيّة، بانتقاد وتفنيد الخطابات المؤسساتيّة، المهيمنة على الخطاب والمعرفة بالإضافة إلى السلطة؛ ليُحيل هذا التفنيد والتشكيك للفلسفات الغربيّة، في دعوة إلى الرجوع للعقل، ومن روادها التفكيكي جاك ديريد (Jack Derred).

هذا بالإضافة لمبدأ الغرابة والغموض اللذين تميزت بهما ما بعد الحداثة من آراء، وأفكار، ومواقف أيضًا، في توظيف التأويلات المختلفة لحقول معرفيّة وثقافيّة منوعة، إلّا أنّ التّناص كان من أهمّ مبادئ ما بعد الحداثة، التّي امتازت بامتصاص العلوم السابقة، والاستفادة مما ترسّب منها في الذاكرة، كما بيّنه ميخائيل باختين (M. Bakhtine 1895-1975) ذلك من خلال الانفتاح على كل من المعنى، والسياق، في تفاعل، وتعايش، كانفتاح يتصف بالإيجابيّة.والتعدديّة، وإعادة الاعتبار لا للسياق فحسب، بل للنّص الموازي، فاتحة الأبواب للنظريات الجديدة مثل: النظريّة

(1) حمداوي، جميل، (نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة)، شبكة الألوكة، ص20-23 (بتصرف).

(2) وقد قدّم دولوز (Gilles Deleuze) اهتمامًا في الصورة السينمائية في كتابيه: "الصورة الحركة "(1983) "والصورة الزمان"(1985) ، وقسم الصورة إلى ثلاثة أنواع، هي: الصورة الإدراك، والصورة الانفعال، والصورة الفعل، معبرًا عن العالم بأنه عالم مخادع، يشبه خداع السينما التي تضلل المشاهد في عناصر الزمان، والمكان، بخداع الحواس. راجع: المرجع السابقة، ص 21.

التأويليّة، والنظريّة الجماليّة للتلقي، والنظريات الماديّة والثقافيّة، والنّقد الثّقافي، ونظريّة ما بعد الاستعمار، والتاريخانيّة الجديدة...إلخ.

وبهذا قدّمت ما بعد الحداثة هدمًا لحدود الأجناس الأدبيّة وقواعدها، وفتحت الباب لكل جديد من الأعمال، كما سمحت بالدلالات العائمة التّي تتّصف بالغموض، وإمكانية تعدد التأويل، على مبدأ ما فوق الحقيقة الذي ينكر وجود المسلمات، فقد عدّ جان بودريار (Jean Baudrillard 1929- 2007) الحقيقة وهمًا، أما نيتشه (Neitsze) فقد ربط تأخر الحقيقة بالأخطاء اللّغوية، كما قدّم رأيًا في الحقيقة الإعلاميّة، مفاده أنّ الحقيقة في مجالات الإعلام ما هي إلا خطابات خداع، أو تضليل، أو إيهام، أو تفخيم، أو تلطف.

وأخيرًا، دعت ما بعد الحداثة للتخلص من المعياريّة، والتزمت القانوني، وممن تبنى هذا المبدأ ميشيل فوكو (Michel Foucault1926 – 1984) إذ بيّن تعددية الدلالات في النّص الواحد، ورفض تحديد منهجيّة نقديّة أدبيّة، واصفًا هذا الفعل بأنّه "وصفة سحريّة" لفهم النصوص الأدبيّة وتحليلها.[1]

وبهذا يُفسّر نشأة المدرسة التفكيكيّة في أوروبا، مرتكزة على تحليل للّغة والدّلالة، أما منهج التلقي فقد منح القارئ فرصة في النقد[2]، ليتطور إلى نظرية الاتصال، وبظهور المنهج التأويلي الذي زاوج بين دراسة الكلمة والعلامة، في حيثيات التحليل الجمالي والتاريخي[3]، فتح بابًا أمام النظريّة المعرفيّة التّي أضافت للتأويل دراسة غور النّص وما فيه من المضمرات كونتها الأيديولوجيّات الاجتماعيّة والنفسيّة والمؤسساتيّة، عبر دراسة للنّقد الثّقافي، فتبعه النّقد المتخصص في عالم النّسويّ، والنّقد ما بعد الاستعمار (الكولونياليّة)[4].

ذلك من خلال تشكيل أطر الدراسة الأدبيّة على أساس يسمح للذائقة النّقديّة البيئيّة الخروج عن ثوابت القراءة، بتوسيع الأفق التحليليّ والتأويليّ في فهم الأيدولوجيّات المرتبطة بالبيئة.

---

(1)حمداوي، جميل، (نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة)، ص20-23 (بتصرف).

(2) درويش، أحمد، (النص والتلقي، حوار مع نقد الحداثة)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2015، ص27، ص34.

(3) راجع: جينيفر. م. ليمان، تفكيك دور كايم، (نقد ما بعد بنيوي)، ترجمة: محمود عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013، ص25، روث فوداك، ميشيل ماير، (مناهج التحليل النقدي للخطاب)، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل، مراجعة: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014، ص307.

(4) راجع: جابر عصفور، (مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي) ، ط5، 1995، ص10- 21(بتصرف).

النّقد الحديث بين النّظريّة الأدبيّة والنّقد البيئي:

لقد أظهرت دراسة مجموعة من الكتب اهتمامًا نقديًّا من نوع جديد، فقد جاء في كتاب "الأرض العذراء 1950 "لهنري ناش سميث، وعي بين الغرب المتخيّل، والحقائق المرموز لها، والعوامل البيئيّة. أما كتاب ليو ماركس (Leo Marx1919 -2022) "الآلة في الحديقة التكنولوجيا والمثاليّة الرعويّة في أمريكا 1964" قدّم افتراضًا بأنّ الثّقافة هي التّي تقدّر قيمة الأرض وفقًا لرغبتها، كما قدّم كتاب "التحري والإمبراطورية 1966 " لمؤلفه وليم غوتزمان(William Gutzman) فرضيّة مفادها أنّ الثّقافة تجد ما تريده وتفتش عنه، أما في مسألة البحث بين الرابط البنيوي بين العقل والأرض كان في كتاب "البريّة والعقل الأميركي" 1967 لمؤلفه لورديك ناش(Lordic Nash)، وغيرها من الكتب التّي نوقشت خلال المؤتمرات والأبحاث؛ لتصل إلى نتيجة توضّح الأساس في دراسة النّقد البيئي المُعتمد على الأفكار المُتغيّرة، والأيدولوجيّات المتبدّلة، والمتطوّرة بتطور السياسات المنتمية لها، تلك الدراسة تُسائل معنى الاستجابة بحكمة، والعيش الأفضل، سعيًا للبقاء، وأضافت أنيت كولودني (Annette Kolodny 1941-2019) إلى ذلك مفهوم علاماتِ الجنوسة، وتبنته النّاقدة البيئيّة تشريل غلوتفلتي في تحرّي أنواع المعرفة التّي تُنتج قيم الجنوسة المرتبطة في أماكن محدّدة.[1]

كل هذا التنوع في مسارات الكتابة الضاربة في عمق المجالات البيئيّة المختلفة، يشكّل مستوى جديدًا للواقع النّقدي، ذلك من خلال تعدّد المعارف وتكثيف المحتوى الأدبيّ بالفضاءات المعرفيّة وما ينطوي عليها من قيم تمزج بين المفاهيم الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة في أدوات أدبيّة لتبيان الثيمة وإدراك معطياتها، لا على المستوى الجماليّ فحسب، بل الوقوف عند فحواها الفكريّ والفلسفيّ.

وبتركيز النّقد البيئي على فهم التعبيرات الأدبيّة والفنيّة للتجربة الإنسانيّة، وثقافته التّي تحدّد المتعة في الوفرة، والشعور بالحزن عند الحرمان، ومخاوف الألم بسبب الفقدان، وغيرها من المشاعر التّي رصدها النّقد البيئي في أجندة ثقافيّة محدّدة؛ تكاشف مكنونات الذّات متراوحة بين الثّقة والخوف، لا لتُشكل استجابات فجائيّة، بل لتُبلور اللّغة والاستجابة من إفرازات الثّقافة

(1) كوهين، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص: 43- 44 (بتصرف).

الذاتيّة، وما تحمله من وعي فرديّ وجمعيّ؛ وهنا برزت أهميّة النّقد البيئي في الكشف عن هذه المكنونات اتجاه البيئة.

وبتتبّع النّقد البيئي تتضح الأيدولوجيات الأخلاقيّة التّي أسهمت في تأسيسه؛ بهدف بناء منظومة قيميّة جديدة، شرحها جفري غالت هارفام (Jeffrey G. Harfam 1946-...) مبينًا ضرورة تحويل المفاهيم الأخلاقيّة لمواقف فكريّة يتبناها النّاس[1]، وبهذه الإشارة تظهر نقطة التقاطع بين النّقد البيئي والنظريّة الأدبيّة، التقاطع الأخلاقيّ الذي يمزج بين المتعة والجدل، في محاولة للفهم سوسيولوجي الإنسان؛ لتتحوّل **النظريّة الأدبيّة** إلى نظريّة مؤنسنة.

وفي مقارنة بين ما يعتقده جيلين لوف وما قدّمه ليو ماركس الذي أكّد الهيمنة المتزايدة في حضارات الآلة (الماكينة) خاصّة في أميركا، معلنًا نهاية الطبيعة؛ إذ بنى رأيه في مفارقة الإبداع الأدبي: الذي أطلق عليه تسمية "النزاع الجذري لثقافتنا"، كما أكّد جيلين لوف أهميّة الوظيفة الأدبيّة، في إعادة نشر الوعي الإنساني وتوجيهه.

وبتقديم النّقد البيئي استقصاء أدبي يشمل غير البشر في سياقات إنسانيّة، تقوم عليها دراسة الخطاب النّقدي ما بعد الحداثي، ظهرت بين الاختصاصات الشبه ديالكتيكيّة[2]، ما يلقي الضوء حول التعبير الفعلي الاجتماعي، الذي وصفه بورديو بالنزعة الاجتماعيّة والمؤسساتيّة؛ في محاولة لترسيخ المؤلفات بشكل ثقافي مألوف، ذلك لأن النّقد البيئي معنيّ بالرد عن أيّ صدامات ناجمة عن الجدل الثّقافي والعلمي، وفق منهجيّات نقديّة واضحة ومدروسة، في رؤى جديدة للمهمة الأخلاقيّة للنظريّة الأدبيّة.

وممن كتبوا في لقاء النظريتين البيئيّة والأدبيّة، لورنس بويل في مقالته"منبر آداب البيئة " مبينًا العلاقة بين دراسة الأدب وعلاقته مع البيئة الماديّة، التي ترجع إلى التاريخ، كما ضاعف عدد المشاريع المنتمية للنّقد البيئي لكي تشمل اعتماد نماذج التّأمل الأدبي المتمثلة في اعتبارات بحثيّة، مثل: الإيكولوجيا، والبايولوجيا التطوريّة، والبحث العلمي الاجتماعي، الجغرافية، والإيكولوجيا الاجتماعيّة[3] وفي المقابل اعتماد الأدب في تأملات بيئيّة أخلاقيّة قيميّة لفهم المركزيّة البشريّة،

---

(1) المرجع السابق، (النقد البيئي تحت المنظار)، ص 45.

(2) المرجع السابق، ص 48.

(3) المرجع السابق، ص 54.

وتوظيف التحليل الأدبي بأشكاله النصيّة والتاريخي لفهم التجربة الإنسانيّة، كذلك اقترح بويل إضافة دراسات لإعادة النظر في مبادئ المحاكاة أو الإحالة، المطبقة على الأدب البيئي، والتركيز على دراسة البلاغة الجديدة المتمثلة في صيغ الخطاب البيئي، مثل: التكافؤ الإيديولوجي للجنوسة، والهويّة، والعرق، والتوسع وصولا لبلاغة الإعلام البيئي والخطاب الحكومي المؤسّساتي البيئي وغيرها. كما حثّ على البحث في العلاقة بين الكتابة البيئيّة والممارسات الحياتيّة والتعليميّة.

ويمكن جمع النّقاد الذين اهتموا في المجال البيئي وفقًا لمجال اختصاصهم، فكان من نقاد ما وراء المشهد الطبيعي: سميث، وماركس، وناش، وجورج ليفين، وجيليان بير، أما في نقد الرواية ونظرية دارون؛ ليو ماركس، وريموند، وليمز، ولورنس بويل، وتيري جيفورد، وفي مجال الرعويّة؛ ظهر سيمون شاما، وروبرت بوغ هاريسون، أما في مجال النقد البيئي وفقًا لدراسات ثقافية تظهر الناقدتان: أنيتا كولودني، وآن ونستون سبيرن، كذلك دانيال بوتكين مؤلف كتاب "التوقعات غير المنسجمة" الذي طرح أسئلة كونيّة هامة، ومثل المؤرّخة باتريشا نلسون ليمريك صاحبة كتاب "ميراث الغزو"، ومن المؤرخات النِّسويّات كل من ودونا هاراوي، وبلافر هردي، كما قدّمت جنيفر برايس، وديفد مازل، كتاب "قرن من النّقد البيئي المبكر "الذي ورد فيه تفصيلًا لبيئيين وآرائهم مثل: جون بوروز، ومابل أوسغوود، ونورمان فورستر، وألدو ليوبولد ولويس...وغيرهم.[1]

وكانت شعريّة النّص في الفضاء النّقدي مجالًا مهمًّا أبرز التقاطع بين النّقد البيئي ونظريّة الأدب، وخاصّة عند الحديث عن أدبيّة الأدب في دراسة النّصوص معنى وتأويلًا، وفي تحديد آلية النّقد البيئي الذي يتقاطع مع **النظريّة الأدبيّة** في بيان وتحليل شعريّة النّص، والتحقق من أدبيّة الأدب، في دراسة النّصوص لا في معناها فحسب، بل في تأويل المعنى، حسب رؤية تيزفيتان تودروف (Tzvetan Todorov 1939- 2017) للحوار الباطني، وفقًا لشخصيّة النّاقد ومعتقداته الإيديولوجيّة، الشخصيّة والزمانيّة المرتبطة بالعصر الذي ينتمي له، وبهذا لا يكون التأويل نسق النّص، بل يتجاوزه لنسق النّاقد، ونسق المجتمع، وهنا يظهر التطوّر والتحول من المعنى للتأويل، ومن بنية النّص إلى معناه ومقاصده.[2] وهذا ما قدّمه النّقد البيئي، بتجاوز المعنى إلى التأويل الذي

---

(1) المرجع السابق، ص 55-54 (بتصرف)

(2) راجع: تودروف، تزفتان، (مقولات السرد الأدبي)، ترجمة الحسين سبحان، وفؤاد صفا، ضمن كتاب (طرائق تحليل السرد الأدبي)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1991، ص 39-40، وراجع: العشيري، د. محمود، (شعرية القصيدة في المبادئ المحايثة للنص الشعري، دراسة في سقط الزند)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2017، ص 35.

يمتد إلى تخصصات مختلفة ومتنوّعة المجالات، تتيح لفهم العلاقات الإحيائيّة بشكلها المكتوب، وإحالتها لمرجعيات ثقافيّة تنتمي لها، في محاولة لفهم الحاضر، ونشر الوعي بأهميّة البيئة، كمقاومة للهوس الاستهلاكي والهمجيّة الاستغلاليّة لمواد البيئة الطبيعيّة.

ففي الوقت الذي ظهرت فيه مقاربة الدراسات العربيّة بالتوازي مع الدراسات الغربيّة كدراسات مبتدئة، كان النّقد البيئي عند الغرب أداة لتدريس الطبيعة عبر مؤلفات المدرسة الرومانسيّة بما فيها من شعريّة اللّغة، التّي تُعنى ببنية الألفاظ والمعجم اللّغوي، والحقل الدّلالي الذي تنتمي له، في محاولة لاستمالة المتلقي، متوحدة مع الطبيعة فكان هناك اهتمام بدراسة النّصوص القديمة والحديثة، لمقاربة أثر الطبيعة وانعكاسها في الجمهور عبر شراكة كونيّة، وإحيائيّة تجسدت في بلاغة الأدب العربي باختلاف أزمنته، وظهرت في مجالات متعدّدة من التشابه والامتداد بين النّقد البيئي والنظريّة الأدبيّة.

وتتضح هذه التقاطعات بشكل أكبر مع امتداد الدرس الثّقافي عبر النّقد البيئي وخاصّة مع آليات النّقد النِّسوي، والنّقد ما بعد الاستعمار، ليشمل النّقد البيئي في دراسته المجالات الثلاثة، في شموليّة تبدأ من فهم الروافد الفلسفيّة المنعقدة عليها الأيديولوجيات الفكريّة، انتهاءً بالسلوك المسيطر على المكونات الإحيائيّة، في حالاتها الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والعلميّة، والثقافيّة، والإعلاميّة، والفنيّة، وغيرها...

إن ما قدّمه النّقد البيئي من شموليّة معرفيّة، في وقت تجلّت فيه أزمات الأبستمولوجيا (علم المعرفة) الواقعيّة، أسهم في فتح أبواب النّقد المقاوم للانغلاق المعرفي والهرمنيوطيقي في الأدب، ورغم الانفتاح في المقاربات التأويليّة، فإنّ عددًا من النّقاد البيئيين الواقعيين أهملوا مبادئ التأويل الأدبي، ليركزوا على ما قدّمه الأدب من قيم بيئيّة، وقد نعتهم دانا فيليبس"بالفشل"[1]، ويُعزى ذلك لما قدّموه من تحليلات سطحيّة لا تتجاوز الإشارة النسقيّة، في حين أنّ **النظريّة الأدبيّة** التأويليّة لا يمكن أن تقوم من دون أن تتصدر اللّغة مركزيّة دراسة النصوص ونقدها.

(1) أوبرمان، سريال، (نحو ممارسة ما بعد حداثية النقد البيئي النظري)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص129 (بتصرف).

النظريّة السرديّة والنّقد البيئي:

اهتم النّقاد في دراسة الثيمة السرديّة التّي قدّمت "نهاية العالم" مرتبطة بالنّقد البيئي، كان هذا تقاطعًا مهمًا بين الأدب والبيئة، ظهر في مفاهيم نظريّة السرد. وقد صرّحت تشريل غلوتفلتي في كتابها "دليل القارئ للنّقد البيئي "أنّ النّقد البيئي ما هو إلا دراسة للعلاقة بين الأدب والبيئة، مقارنة هذا النوع من الدراسات بأدب النِّسويّة الذي يبحث في العلاقة بين الأدب والوعي الجنوسي"[1]، كما أنّ النّقد الماركسي بحث في علاقة الأدب والوعي الإنتاجي والاقتصادي، كذلك قدّم إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق المعرفة، السلطة، الإنشاء 1978"[2]، دراسة للخطابات الأدبيّة الخاصّة بعد الكولونيالية بوعي سياسي واجتماعي.

إنّ الوعي بأهميّة الأرض كمركز لمقاربته في الدراسة الأدبيّة، أمر حتميّ يمثّل حاجة عصريّة، تدعو لإمعان النّظر فيها وتلبية أهدافها الإرشاديّة، كما تقدّم في النظريّة النِّسويّة، ونظريّة ما بعد الاستعمار.

ورغم أنّ المدى النّقدي للبيئة واسع الأفق، فإنّ النّقاد سعوا لاستنطاق مجموعة من الأدوات النقديّة التّي أثبتت أنّها ديناميكيّة لا استاتيكيّة، للعمل في ذلك الحقل من الداخل والخارج، ومن ذلك ما بدأ في موجات ثلاث، أولها ما اقترحه بويل في مقالة عن (جينالوجيا النّقد البيئي) لدراسة مجاز "الموجات" المتمثّلة بموجة الكتابة عن الطبيعة، وثانيها تضمّنت نصوصًا تمزج بين علاقة البيئة والعدالة الاجتماعيّة، أما الموجة الثالثة فقد ركّزت على النّقد ما بعد الكولونيالي، وكان للموجات الثلاث رواد كتبوا في النّقد البيئي وخاصّة الإيكولوجيّات ما بعد الكولونياليّة عند أليزابيث ديلوغري، ولدى جورج هاندلي السرديّات الجينالوجيّة، ورغم تخبّط هذه المرحلة النقديّة فإنّ المؤلفات السرديّة التّي توظّف التعبيرات السرديّة للقيم البيئيّة أسهمت في ظهور حقل "الخيال البيئي" الذي أسّس مبادئ الجماليّات البيئيّة، القائمة على المبادئ الأخلاقيّة، التّي تُحقق "روح الالتزام بالممارسات البيئيّة"[3]، ففتحت أفق التساؤلات حول البؤر الأساسيّة للأدب في التفريغ الدرامي، على نحو ربط بؤر الشخصيّة بالقناع، وبالسرد، وبالوعي، وبهذا الحشد

---

(1) موريلا، إيرين جيمس وأريك، (مقدمة للنقد البيئي ونظرية السرد)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص24 (بتصرف).

(2) المرجع السابق، ص24.

(3) فيليبس، دانا، (النقد البيئي والنظرية الأدبية وحقيقية الإيكولوجيا)، ص 104

الفكري حول قوة التفريغ الدرامي قدّمت أورسولا هايس مقالها: "حس المكان وحس الكوكب" 2008، مبيّنة وظائف السّرد وطرائق نقل البؤرة السرديّة البيئيّة من المحليّة إلى العالميّة.

ولأنّ التحليل النقدي للأعمال الأدبيّة يقوم على أسس بناء النّص وعلامته وتاريخه، في البحث عن التصورات وحقائق الاضطهاد البشري: الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، فهو يندرج في قائمته كل تدمير بيئي ينطوي على تعقيدات مرتبطة لا في الحقل الاقتصادي فحسب، بل في الاجتماعي والسياسي أيضًا لارتباطه بمنظورات أيديولوجيّة عميقة.

وعند مراجعة التخييل البيئي المتحول عن التعبير الجمالي الواقعي الهادف لإعادة التشكيل للوعي الاجتماعي بشكليه الفردي والجمعي، يظهر الوعي الموصوف عند - نانسي إيسترلين، وهايس - بالبايوثقافي الجامع بين تطور التاريخ والعلم المدرك كما هو في النظريّة الأدبيّة، الدراسة للاشتغالات السرديّة، مثل الكوميديا، والمقالات حول الطبيعة، والقصيدة الرعويّة، وغيرها، فجدّدت الانتباه حول مسائل النّقد البيئي في الشعريات؛ الشعريّة السرديّة.

إن مزاوجة النّقد البيئي مع نظريّة السرد تمت بالفعل في عدد من الاتجاهات المختلفة، وتمثلت مظاهرها فيما اتصل بأهميّة الماديّة الجديدة، وقد فسّر أيوفينو وأوبرمان ذلك بأنّ "النقد البيئي المادي يتعقب مسارات" السرديات المادية"؛ وبوصف أدق هما يتعقبان "المادّة التّي جرى قصّها"[1].

وكما تُعد المقاربة في إدراك الفضاء والزمان من تقاطعات المزاوجة بين النّقد البيئي **والنظريّة السرديّة**. ويؤكّد سلوفيتش أنّ النّقد البيئي لا يقوم من دون سرد، يرتقي بإدراك لسؤال يطارد كل ثيمة سرديّة: لماذا نكتب؟ وأين نحن في العالم؟[2]

وبهذا تقترح أيوفينو: "إعادة تأهيل السرد"، على أسس قصصيّة تظهر أهميّة المكان في جذب الانتباه إلى القيم والمسؤوليّات البشريّة، وباعتبار أنّ السرد ممارسة حياتيّة مرتبطة في المكان، فمن الطبيعي انجذاب النقاد إلى الأبستمولوجيّا السرديّة المرتبطة بالمعارف البيئيّة بصفة

---

(1) موريلا، إيرين جيمس وأريك، (مقدمة للنقد البيئي ونظرية السرد)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص28.

(2)المرجع السابق، ص26.

حميميّة للأماكن المنتمية لها، كما وضحها دانيال ويلكات؛ إذ إنّ النظريّة من هيكل ارتبطت بإحكام علميّة لها علاقة -بطبيعة الحال- مع النزاعات البيئيّة.

وعليه فإنّ الثمية السرديّة قد هيمنت عليها اتجاهات فضائيّة -هي في غالبيتها طبغرافيّة-، تكمن في تحديد المكان والزمن السردي، الذي وضحه مقال دافيد هيرمان [1]"المرجع الفضائي في المجالات السردية"2001 ومقالة ماري لور ريان "مكان السرد وزمانه: تمثيل الطوبوغرافيا المستحيلة في الأدب"، كذلك قدّم كتاب لرايان كينيث ومواز أزرياهو "سرد الفضاء/ فضائيّة السرد: حيث تلتقي نظريّة السرد مع الجغرافية" 2016 تفسيرًا للاعتبارات النقديّة البيئيّة في تمايز الفروق بين المكان والفضاء.

وفي نتاج التقاطعات، يتجلى التحام العلاقة بين السرديّة والنّقد البيئي في علاقات قيميّة أخلاقيّة، لها مجالات مختلفة، عبّرت عنها تمثّلات للعلاقات البشريّة مع البشر لبيان الخصائص الإنسانيّة، وكذلك علاقة البشر وغير البشر لتعزيز صفات التعاطف والتقبّل وتوثيقها، من خلال العناية بالشخصيّات المختلفة؛ لعلاج جوهر السرد القائم على التساؤل حول الراوي، والمغزى.

ثمة قضايا نقديّة لكل من السرد والنّقد البيئي يمكن استثمارها في الوصول إلى خطاب بالغ الأهميّة بالنسبة لفن السرد من منظور بيئي، وتتمثل هذه القضايا في ما يُعرف بـ: فضاءات السرد، مركزيّة التبئير، الزمكانية -الكرنوتوب-، وهذه كلها أدوات تشكّل خطابات، يستفيد منها النّقد البيئي في تحديد مواضع المركزيّة ومفاهيم الاستغلال وطرق علاج الأزمة البيئيّة، أما القضايا البيئيّة المساندة للسرد، التّي تُعالج بمبصرات سرديّة هي: الجنس، والمشهد، والقياس، والمركزيّة، فتلكم ثيمات لخطابات تسلّط الضوء على القيود الفكريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، وذلك في محاولة لمكاشفة النزعات الفطريّة المتعلقة بالبيئة، وربطها بتعقيدات الوعي البيئي المُتضمنة في السياقات المباشرة وغير المباشرة في الثيمة السرديّة، وهو ما يتضح في الآتي:

الخطاب البيئي والمدرسة الرومانسيّة:

لقد تجلى تفاعل الأدب مع الطبيعة في الحركة **الرومانسيّة** التّي نشأت في القرن الثامن عشر، ردًا على المدرسة الواقعية، باتخاذ المشاعر ووصف الطبيعة وسيلة للهروب من المركزيّة العقليّة،

(1) المرجع السابق، ص29.

وبدخول القرن التاسع عشر ظهرت تحوّلات في العلاقة البشريّة مع الطبيعة؛ كنتيجة للثّورة الصناعيّة في أوروبا، إذ وُظفت الطبيعة ومكوناتها للبحث العلمي والدراسات الميدانية، في استغلال غير مسبوق، ليؤدّي إلى الإبادة وخلل الاتزان، وهنا كان للأدب الرومانسي أهميّة تقنيّة في محاولة إعادة الوعي البشري بضرورة نبذ الاستغلال واستنزاف الطبيعة، وحثّه على المقاومة لحماية الكوكب.

فقد قدّم جوناثان بيت كتابًا بعنوان "الإيكولوجيا **الرومانسيّة**" 1991 دراسة للعلاقة بين الأدب والبيئة، ثم تبعه شكا ب. م. داوسون بدراسة أعمال وليم وردزورث كموضوع لفهم القيم البيئيّة، ليتّخذ النّقاد دعوى تبني النّقد بفكره البيئي للنّصوص بهدف مكاشفة ما فيها من مبادئ بيئيّة، فتعدّدت الدراسات في الأدب **الرومانسي** -البريطاني والأميركي-، كذلك ما بعد الكولونيالية وما وراءها. ومن أهمّ الأعمال **الرومانسيّة** كتاب "أغنية الأرض"، وكتاب "المرأة المجنونة في العليّة"، "والأنطولوجيا النقديّة"... وغيرها.

كما ظهرت الشرعيّة الأولى في دراسة النّقد البيئي من نتاج الأدب **الرومانسي**؛ لأنّ هذا النوع من الأدب أولى أهميّة في فهم العلاقة بين الإنسان والآخر والطبيعة، في محاولة لتحديد المعرفة والسّلطة، ومخرجات الثّورة الصناعيّة، في تحدي فهم "طبقات التنظير المتضارب للعلاقات الديالكتيكيّة (بين الشخصيات والأفكار وبقيّة النّصوص.. إلخ). وسياق إنتاجها، كذلك العلاقة بين الولادة والجسد (نقود نِسويّة وجنوسيّة وتحليليّة نفسيّة)، لفهم (النقود التاريخانيّة واللّغويّة والتحليليّة النفسيّة)، في سياسة ثنائيّة الخلق أو المخلوق/ الخالق (نقود لغويّة، تاريخيّة، هوياتيّة، ما بعد كولونياليّة)، التّناص والتربيّة (نقود تاريخانيّة واستجابة القارئ) والعلم والإنتاج (نفود نِسويّة وتاريخانيّة وماركسيّة)"[1] ودراسة هذه العلاقات رغم تداخلها، أسهمت في تحديد الشخصيّات وبيئتها، وماهيّة المركزيّة، وأخيرًا العواقب المترتّبة عنها، فهو نقد كشفيّ يفنّد الظلم بأنواعه وأشكاله؛ على اعتبار الأدب الرومانسي خزين قيمي، وتنويري، فيه المعارف ذاتيّة، تقاوم التقسيم المتعمد والهيمنة البشرية، في إدراك ووعي ذاتيّين.

وبتتبع السياقات التاريخيّة يظهر التباين في القيم الرعويّة، وهو تباين يميل إلى تشويه التاريخ البيئي والاجتماعي وإرباكها، كما أنّه يمهّد لمشاعر الاغتراب، والألم، والفقد، بعد الثّورة الصناعيّة[2]،

---

(1) فيدر، هيلينا، (النقد البيئي وإنتاج المسوخية في رواية "فرانكشتاين")، ص 262-263، (بتصرف).

(2) جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 51-62 (بتصرف).

أما الرعويّة الرومانسيّة فقد أشار شيلر في مقالته (عن الشعر الساذج والعاطفي التأمّلي) إلى الفوقيّة الإحيائيّة، بأنّها حالة من العاطفة الجيّاشة والحنين للطبيعة، بصفتها حالة فطريّة، تميز بها القدماء بأصالة غير معلنة، وقد وافق كلير أفكار (الحركة الخضراء)، في الوقت الذي كانت فيه دعوى ويليام لبلاغة الوصاية، تدور في محور المركزيّة البشريّة، وقد وصفت هذه الرعويّة الرومانسيّة بالأعمال الهابطة، أو كما وصفها كلير بالهشاشة، لما لها من تحيزات سياسيّة ظهرت في الثقافة البريطانيّة، خاصّة بعد الحرب العالميّة الأولى.

وكان للرعويّة الأمريكيّة دور في تقييم الكتابات الطبيعيّة، جعلها حاملة لأيدولوجيّات سياسيّة، تدعو إلى تملك الأراضي، موظّفة مبدأ المركزيّة البشريّة، كما كان لهما دعوة في "ترسيخ الحنين الاستعماري"[1]غير أنّ كتاب المدرسة الفرانكفورتيّة الأمريكيّة ممن لهم أصول أفريقيّة، قد وثّقوا لتجربة العبوديّة بوجع بيئي تشهد به أعمال شتى.

وبتقاطع الخطاب البيئي في تشكيل وعيه مع المسارات الفكريّة والفلسفيّة والثقافيّة المعنيّة في الحقول الأكاديميّة من جهة والسياسيّة من جهة أخرى، في القرن العشرين، أسهم في مسار نقد الحداثة[2]. وبالرّغم من التوجّه العلمي للبحث في الخطاب البيئي لما ظهر من تهديد العيش البشري واللابشري، فإنّ الحداثة قدّمت العقل وما ينتجه من علم، على الفكر الديني والأسطوري، وبهذا القدر كان للبيئة حضور بالغ القيمة والخطورة في رمزيتها.

مدرسة فرانكفورت والنّقد البيئي:

إنّ الصّراع الحاصل بين التنويريّة والعقلانيّة حول الهيمنة الإنسانيّة، من خلال التقنية والهيمنة العلميّة، كان علامة نزع الطّابع المقدّس عن العالم؛ ليصبح خاضعًا بكل ما يحتويه للقياس والتجريب والتكميم[3]، وقد صرّح ماكس هوركهايمر، وأدورنو بما وقع فيه التنويريون من

---

(1)المرجع السابق، ص 67.

(2) العبيدي، عبد الحميد، (محاولة في فهم تقاطعات الخطاب البيئي مع مسار نقد الحداثة)، ص 116. وراجع: Ariane Debourdeau, «Aux origines de la pensée écologique: Ernst Haeckel, du naturalisme à la philosophie de l'oikos,» Revue française d'histoire des idées politiques, no. 44 (2016) , pp. 33–62.

(3) بومنير، د كمال، (النظرية النقدية لمدرسة فراكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت)، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان الرباط، ط1، 2010، ص 16 (بتصرف).

شرك سِحر الأسطورة في الاستفادة منها في جوهر مادّتهم، بالرّغم من دَعوتهم للقضاء عليها[1]، وفي مفارقات دالّة على الصّراع بين العقل واللاعقل، ظهر لأقطاب التنوير شعار الأنوار، وكان من رواده إيمانويل كانط في دعوته لاستخدام العقل[2]، وأنّ القصور في استخدامه نابع من الخوف وعدم الشّجاعة.

أما روّاد **مدرسة فرانكفورت**، مثل: ماكس هوركهايمر، وأدورنو، فقد بيّنوا المفارقة في تبنّي العلم وتقنياته، والوحشيّة والعصبيّة بالوقت نفسه، مثل النازية التّي نصّبت أصحاب الجنس الآري في قمّة الهرم الإنساني لأفضليّتهم.[3] وهدفت تلك المدرسة إلى تحرير الإنسان، الذي لا يتحقّق إلا بالنّقد العميق للفلسفات المهيمنة على الفكر الإنساني، متخذين من الطبيعة وسيلة للتعلّم، على عكس ما قدّمته الفلسفات الأخرى التّي سيطرت على الطبيعة بشكل استغلالي، وكانوا في ذلك مؤمنين بأنّ "السلطة والمعرفة مترادفان".[4]

وانطلقت دعوة المدرسة الفرانكفورتيّة إلى نبذ السيطرة على الطبيعة بوصفها أدوات وتطبيقات للمعارف العلميّة، كذلك نبذ التّسلّط على الإنسان ومعاملته كالآلة في تصنيفات طبقيّة وعرقيّة، ووظّفت عددًا من المصطلحات في ذلك مثل: "التشيؤ، والبيروقراطية، والأداتية، والتنميط، في وصفهم للعصر الحديث المتقدم تكنولوجيا عند كلّ من الرأسماليّة والاشتراكيّة".[5]

وبمتابعة **مدرسة فرانكفورت** لمشاهد الفلسفات المختلفة فسّرت سبب العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وخاصة في ذلك الجانب الذي تسوده هالة من المخاوف الأسطوريّة واللاعقليّة البدائيّة، وذلك بإخضاعهم للطبيعة والتجائهم إلى التكنولوجيا للتحرّر من الرّعب البدائي، وهذا هو المبدأ الذي سعت روّاد التنوير إلى تغييره تحت ما يُعرف بـ"عقلنة الرعب الميثولوجي"[6].

---

(1) هوركهايمر، ماكس، وأدورنو، ثيودور، (جدل التنوير)، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006، ص 32.

(2) كانط، إيمانيويل، (ما الأنوار؟)، ترجمة: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، ط1، تونس، 2005، ص 57.

(3) مصدق، حسن، (يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 2005، ص57.

(4) هوركهايمر، ماركس، وأدورنو، ثيودور، (جدل التنوير)، ص24.

(5) (النظرية النقدية لمدرسة فراكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت)، ص 19- 20 (بتصرف).

(6) المرجع السابق، ص 22، وراجع: (جدل التنوير)، ص 37. (بتصرف).

وبهذا فتحت أبواب صناعة الثقافة عند التنويريين أبوابها للإعلام، والأعمال الفنيّة، مسلّطة الضوء على: الترويج للمنتجات، والتسلية[1]، والتنميط، كأداة أيدولوجيّة مؤثرة في استجابة الجمهور بفكرهم وسلوكهم، وبهذا أفرغت سيطرتها على كل من الإنسان والطبيعة معًا. فظهر كلّ من الأدب والأعمال الفنيّة في تقهقر أمام هذه الحداثة التكنولوجيّة، وبدأ في التراجع المرتبط بالتراجع القيمي والإنساني.[2] ومن الدراسات النقديّة التنويرية في تحليل الأدب القديم، دراسة ملحمة هوميروس، التي أثبتت أنّ شخصيّة أوليس في ما هي إلّا رمز لقيم التنوير، في سعيه للبقاء من خلال السيطرة.

وبدأت المرحلة الكانطية المحفّزة لاستعمال العقل، وتأثر هيجل بالفلسفة الكانطيّة، إلا أنّه وظّف العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة جزءًا في الدراسة النقديّة، بل أضاف مجال التاريخ الإنساني في بناء الوجهة النقديّة، ثم جاء المبدأ الديكارتي (ديكارت.....) قائمًا على مفهوم الذّات العارفة (الإنسان)، وبهذا الفكر النّقدي تأسّس مبدأ إخضاع كل مكونات البيئة (الإنسان والطبيعة) للتجربة؛ مما أدّى إلى عجز هذا المذهب عن احتواء المسائل الإنسانيّة والاجتماعيّة، كما أنّها عجزت عن تقديم إدراك للغائّيات النهائيّة، لكل من المعطيات الحسيّة والماديّة؛ وبهذا فقد أخفقت بتحقيق معارف قيميّة أو أخلاقيّة.[3]

وكما أُشير بأنّ مبدأ "السلطة والمعرفة مترادفان" مبدأ استغلالي شامل للإنسانيّة والطبيعة معًا؛ لذا قدّمت المدرسة الفرانكفورتيّة، أو حاولت تقديم موازنة بين المعايير العقليّة والمعايير الماديّة؛ لإنتاج منظومة أخلاقيّة، في بناء فلسلفة للحق، وذلك بعد فهم المجتمعات والإمكانيّات، لتحديد الباثولوجيّة المجتمعيّة، وإنتاج معايير نقديّة واضحة، تمثل الشكل اللائق للحياة، تلك التّي تتميز بالعدل والسلام، وتخلو من القمع والتراتبيّة.

وعليه فإن كانت نقاط التقاطع بين النّقد الأدبي في النظريّة الأدبيّة في التحليل التأويلي الذي يبدأ من اللفظة واختيارها إلى الصور، التّي تبيّن ثقافة المؤلف، في محاولة تأويليّة لفهم العلاقة بين الانسان والبيئة؛ ولرصد حالات القيميّة الحالية والمستقبليّة كطريقة لحل الأزمة،

---

(1) رسمت السلطات فكر أيديولوجي يدعو للتسلية واستهلاك المنتجات، وفرض النمط الموحد لطرق العيش، بهدف السيطرة على الإنسان والتأثير عليه، راجع: (جدل التنوير)، ص 159.

(2) بومنير، كمال، (النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت)، ص 24 (بتصرف).

(3) المرجع السابق، ص 28-29 بتصرف.

خاصّة أنّ الأدب معني في الثقافة الإنسانيّة، والقيم الأخلاقيّة، والمضامين الثقافيّة، فإنّ الاختلاف ظهر في شموليّة النّقد البيئي؛ ليصل إلى جميع المجالات العلميّة، والفنيّة، كالعلوم الاجتماعيّة، والسياسيّة، والفلسفيّة، والاقتصاديّة، وفي الفنّ، والسينما، والرسم، والنحت أيضًا.

كما أنّ النّقد البيئي عُني بما في النّص الأدبي من انعكاس فنيّ، ووصف للعالم، فهو معنيّ أيضًا بالمستقبل وما يحمله الأدب من تنبؤات، على المستوى اللغة المكتوبة من جهة، والمعتقدات الفكريّة التّي يتبناها النّص من جهة أخرى. وهنا تظهر أهميّة النّقد البيئي، في عصر امتزجت فيه العلوم، إذ تبرز هذه الأهميّة في التحليل الدقيق للخطابات الأدبيّة وغير الأدبيّة، وحملها محمل الجد في قدرتها على تغيير مصير الكون بما فيه من كائنات ومكونات، فهو (النّقد البيئي) يحمل على عاتقه كل المشكلات التي تقف في وجه البشريّة، بدأً من فهم الذّات انتهاءً بالكون، في هدف حل الأزمات والوصول للحياة المثاليّة.

***

ثانيًا: النظريّة المعرفيّة والنّقد البيئي:

في إطار ما يتّسم به العصر الحديث من معارف وعلوم تتقاطع لتأثر وتتأثر ببعضها؛ بطريقة تعزّز قدرًا من الامتزاج بين هذه العلوم، وتحقّق التداخل في روافدها وهو الأمر الذي طال الفنون والآداب، وخاصة الكتابة الأدبيّة التّي يتداخل فحوى نصوصها بشكل ملحوظ ولا سيما مع التطور التكنولوجي والرقمي، اللذين أفضيا إلى معانٍ جديدة ومبتكرة في النصوص الأدبيّة من جهة، وفتحا الباب أمام العلوم العرفانيّة للنقد الأدبي من جهة أخرى، لذا كان هناك تطور اعتمد على السياقات العَرضية والمتسارعة؛ وهو ما ظهر بقوة في تتبع ما هو جديد بعد نظريّة: "ما بعد البنيويّة"، حيث تفسّر النصوص من منظور معرفي وبطرق التفكير التفكيكيّة[1]، التي تقدم فهمًا عميقًا تصل إلى معاني الألفاظ ومضامينها ودلالاتها النسقيّة، في محاولة لبناء ومراجعة الثقافات البشريّة.

والثبات في النظريّة الأدبيّة أنها أفضت بحقول معرفيّة مختلفة؛ لارتباط الأدب بالمعارف ارتباطًا عضويًّا، فهو نتاج فلسفيّ، واجتماعيّ، وأنثروبولوجيّ، ونفسيّ. فقد قدّم الناقد البريطاني

Spolsky, Ellen. "Darwin and Derrida: Cognitive literary theory as a species of post-structuralism." Poetics (1) Today 23.1 (2002): 43-62.

تيري إيجلتون في كتابه "مقدمة لنظريّة الأدب" مسائل دراسة التاريخ وتفسيره، في فهم الماضي وتأويل المستقبل يمكن إنتاج المعرفة وتطويرها[1]، إذ بدأ في تحديد القواعد الأساسيّة في فهم الأدب وما ينطوي فيه من الإيديولوجيات والظواهر الاجتماعيّة، بالإضافة لما تحمله من القيم، في مختلف الأجناس الأدبية، من غناء ودراما، والرومانسيات الشعبيّة، على اعتبار أنّ الأدب ليس "فرادة تخيليّة". [2]

ذلك لأن مسار التاريخ ذو اتجاهات مختلفة، في كل منها تحويلات اجتماعيّة وسياسيّة وفكريّة، تنعكس على الحياة الإنسانيّة وثقافته ومنه المنتج الأدبي، وقد اهتم رولان بارت بالتاريخ ووصف مهمة الأديب بتمثيل العالم والشهادة على ما فيه، من خلال وصفه ومكاشفة مضمراته.[3] وبهذا فإنّ مهمة النّاقد ليست التفسير والشرح للكلمات فحسب، بل يتعداه إلى دراسة ما يحيط به من تاريخ متسارع التطور في جميع المجالات، لفهم المشكلات ومكاشفة القيم في النصوص الأدبيّة؛ ذلك لأنّ لكل نص أدبي خطابات مضمرة تندمج فيه، وتتعلق به.

ومن هنا ظهرت **النظريّة المعرفيّة** المتصلة بالنظريّة الأدبيّة، تلك التي تحلل النصوص لا من الناحية الجماليّة فحسب، بل في ضوء علاقاتها بالأيديولوجيات، والتاريخ، والظروف والاقتصاديّة، والسياسيّة، والبناء الاجتماعي، والتوجهات الفكريّة، والعلاقات البيئيّة والعلميّة والمعرفيّة، من خلال التحليل، وعمليات التشريح النصيّة، والتأويل. وإن أهم ما اتصل بهذه النظريّة هو تحليل الخطاب الثقافي، وخطاب ما بعد الاستعمار، والنظريّة النِّسويّة في محاولة لمكاشفة الأنظمة العقليّة، وغير العقليّة[4]، المضمرة في الخطابات المجتمعيّة بقدر ما فيها من تعقيدات، وتناقضات.

---

(1) Terry Eagleton, Literary Theory: An Introduction Blackwell Pulishing Oxford London 2008 p 190-191

(2) راجع: إيجلتون، تيري، (نظرية الأدب)، ترجمة: ثائر ديب، دراسات نقدية عالمية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص 25-45 (بتصرف).

(3) راجع: كولر، جونافان، رولاند بارت، (مقدمة قصيرة جدًا)، ترجمة: سامح سمير فرج، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة، 2016، ص24 (بتصرف). وراجع أيضا:

Jean-Paul Sartre, Qu'est-ce que la littérature? (Gallimard, 1948), pp. 334, 345, 341; What is Literature? (Methuen, 1970), pp. 206, 212-13, 210.

(4) Zunshine, Lisa. "Introduction to cognitive literary studies." The Oxford haearth:of cognitive literary studies (2015):p:1

فقد قدّم آلان ريتشاردسون في عام 2004. مصطلح "المعرفي" كمصطلح واسع، لاهتمامه بالمعالجة العقليّة النشطة، وغير الواعية إلى حد كبير، لفهم السلوك، نظرًا لذلك فإنّ مصطلح "العلوم المعرفيّة "يشمل "الدراسات النِّسويّة "أو "الدراسات الثقافيّة "، التي "يرتبط بعضها ببعض بشكل فضفاض من خلال مجموعة من الاهتمامات، والولاءات، والنقاط المرجعيّة المشتركة، وكذلك من خلال النماذج المشتركة والمنهجيات؛ ليُظهر طبيعته الديناميكيّة والعلائقيّة. التي يراها ريتشاردسون على أنّها "العامل "الجامع بين النقاد، والأدبيين، والمنظرين المهتمين بشكل حيوي بالعلوم الفكريّة، وبالتالي فإنّ النظرة الحواريّة اللامركزيّة قد شكّلت مسار المناهج المعرفيّة للأدب على مدى العقد الماضي، فعلى سبيل المثال، قد زادت العضويّة في مجموعة المناقشة الرسميّة لجمعيّة اللغات الحديثة حول الأساليب المعرفيّة للأدب من 250 في عام 1999، وهو العام الذي تم تنظيمه فيه، إلى 700 في عام 2009، و2000 في عام 2013).

وبين ثنائيّة الأصالة والمعاصرة، يقع النّقد العربي الحديث في طريقين متنافرين، يدعو الأوّل للاحتفاظ بكل ما هو موروث، ويتّجه الثاني لمبدأ التطوير والتغيير في إطار يوافق النّقد العالمي.[1]وبالرغم من المُشكل الذي يواجه النقد العربي في تطوره المنهجيّ والترجمة وبناء المصطلح، فإن منهج التأويل كان جزءًا من النقد القديم الموروث، إذ اعتمد آليات ثلاثًا تقع في المنطق المسموع، ثم الشرح والتفسير، يتبعها الترجمة[2]، إلا أنّ عددًا من النقاد العرب الحداثيين، واكبوا التطور النقدي وألفوا الكتب في نقد ممنهج ومعياري.

وهنا يظهر النقد البيئي شديد الصلة بالمفاهيم النقدية المعرفيّة، لاحتوائها دراسات نقديّة تشمل المفاهيم الجماليّة، بالإضافة إلى العلاقات الإنسانيّة وفقًا لظروف محددة لكل نظريّة، غير أنّ النقد البيئي زاد عليها شموليّة التحليل للعلاقات الإنسانية وغير الإنسانية من دون تحديد الفضاء الزماني أو المكاني؛ للبحث في أزمة البيئة، بهدف إيجاد الحلول المناسبة لها، باعتبار الأدب خطاباً قيميًّا وثقافيًّا.

---

(1) راجع: حفناوي بعلي، (مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة)، عمان الأردن، ط1، 2008، ص9. وراجع: مصطفى السيوفي، منى غيطاس، (النقد الأدبي الحديث، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية)، القاهرة، مصر، ط 1:2010-2011، ص 69.

(2) ظهر عدد من النقّاد العرب مثل: عبد الله الغذامي مؤلف كتاب النقد الثقافي، ومطاوع صفدي، ومحمد البنكي، وغيرهم... راجع كتاب: حمداوي، جميل، (نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة)، ص 49-51.

وبالاتصال المعرفي بين الغرب والشرق، وبانتشار العلوم والمعارف في العالم، تأثر النقد العربي بالاتجاهات والمدارس الغربية المختلفة، وبالرغم من التواصل العلمي والتطور الحداثي للنقد عند العرب، فإن مأزق الهوية النقدية بما يتناسب مع اللغة والثقافة والموروث الأدبي والفكري، لا يزال قائمًا، بل يحتاج منا إلى وقفة علمية تستفيد مما هو مُطور، وتقدمه بما يناسب اللغة والموروثات.[1]

ولأن الفلسفة كانت الرافد الأول للعلوم الطبيعيّة والإنسانيّة عبر العصور، وكان مما عُني به الباحثون موقف أفلاطون السلبي اتجاه الحياة، وتمرده على الشجرة المقدّسة القائمة على البعدين، الأفقي للأرض والرأسي للسماء، وتقوم هذه الشجرة على عشر دوائر تمثل الخالق ومكونات الحياة (الماء – الهواء – النّار).

ثمّ تدرّجت المعارف والفلسفات إلى أن وصلت إلى دعوة لاكتشاف المعرفة، من دون الاعتماد على الثوابت، وتفكيكها لفهم الأدب باختراقه ثقافيًّا ضمن دائرة جديدة للوعي ترتكز على الوعي المعرفي وثقافي، بالنظر للنصوص نظرة متأنيّة لا الوقوف على حقيقتها الجوهريّة والتاريخيّة والجماليّة فقط، بل لتقيمها قيميًّا وأخلاقيًّا؛ لأنّها من المصادر الثقافيّة المتداولة بين العامّة.

فتجاوزت الدراسات النقديّة البنيويّة اللسانيّة، والسيميائيّة، والنظريّة الجماليّة، وعُنيت الممارسة النقديّة المعرفيّة، بدراسة البلاغة بوصفها ثقافة -التورية الثقافيّة-، بهدف مكاشفة الأنساق الثقافيّة المضمرة في النص بمجالاتها المختلفة: الاجتماعيّة والسياسيّة، والتاريخيّة، وفهم الذات الإنسانيّة وعلاقاتها مع الآخر والكون وصولًا **للنظرية المعرفية**، التي تفرع منها النّقد الثقافي، والنظريّة النِّسويّة، وما بعد الاستعمار، والنّقد البيئي، وهو ما يتضح في النّقاط الآتية:

تقاطع النّقد الثّقافي والنّقد البيئي:

إنّ تحرّر النّص الأدبي من قيود الشكلانيّة المرتكزة على دراسة النّص المغلق، بغض النظر عن دلالات اللغة الإيديولوجيّة المعبّرة عن رؤية العالم، من دون إهمال قراءة النص بما فيه من بلاغة، وعلامات، ولسانيات النّص، التّي تخدم النّاقد في فهم آليات التفاعل النّصي على المستويين

(1) راجع مدخل الدراسة: النقد البيئي قضايا ومفاهيم، مبحث (النقد الأدبي البيئي ومأزق الممارسة)، ص42.

الداخلي والخارجي، وفي التنقيب عن مكبوتات النّص، ومضامينه المعرفيّة من جهة، وتحديد مجال المثاقفة والتفاعل الثقافي من جهة أخرى.[1]

فالنّقد الثقافي دراسة نقديّة في الإيديولوجيّات والأفكار والعقائد الكامنة في النّص الأدبي فيه شموليّة دراسة مكونات النّص الجماليّة، والفكريّة، وتحليليّه باحتوائه للنظريات الماركسيّة والاجتماعيّة، والنفسيّة، والانثوبولوجيّة. ويهتم بالبنية اللّغويّة وعلاقتها بعالم النّص، في إنتاجه وتأويله[2] ؛ ليدرس المضمرات النصيّة الناتجة عن الأيديولوجيّات والثقافة النابعة منها.

فقد عُني **النقد الثقافي** في دراسة البنية اللسانيّة بشكلها المتكامل، بدأ من مستويات اللّغة، والعلامات النصيّة، إلى التأويل وتفكيك النّص لإعادة بنائه وفقًا لمعطياته الإيديولوجيّة والثقافيّة، في مكاشفة للمضمرات النسقيّة فيه، في حيثيّات نقد مزدوج، بعكس ما قدمه دريدا باعتماد النّص ولا شيء خارجه.[3]

ولعلّ ما قدّمته دراسة النّسق الثّقافي في الأدب من جهة وفي المجالات الحياتيّة المختلفة وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) من جهة ثانية؛ كاشفت المنظومات النسقيّة الكامنة في دلالات سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، ودينيّة، وعقديّة، وغيرها، تجلّت فيها هيمنة المضمرات الثقافيّة المستقاة من روافد فلسفيّة ودينيّة، أو مذهبيّة، أو سياسيّة، ظهرت كجذور أيدولوجيّة قيميّة وأخلاقيّة، في البنية التحتيّة للنّصوص الأدبيّة، التّي نعتها فبارت (1915- 1980): بـ (العبور والاختراق). [4]

---

(1) المناصرة، عز الدين، النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، وزارة الثقافة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2005، ص46.

(2) عبد الرحمن عبد الحميد علي، (النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد)، دار الكتاب الحديث، القاهرة، د.ط، 2005م، ص207، وراجع: ايزابرجر، آرثر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، ترجمة: ص67، وراجع: الملجي، علوي أحمد، النص بين النقد الثقافي وسيميائيات الثقافة، المفهوم وآليات المقاربة، دورية ذخائر للعلوم الإنسانية، عدد 2، 2017، ص1-2.

(3) المرسومي، علي صليبي مجيد، (الشاعر العربي الحديث ناقدًا: نقد الفكر، النقد الثقافي، النقد الجمالي)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2016، ص23، وراجع: إبراهيم، عبد الله، النقد العربي والعولمة، بحث المرجعيات الثقافية، مجلة ثقافات، العدد 2، 2002، ص25.

(4) الحلاق حنان، (المرجعيات الثقافية لمصطلح الشعرية عند النقاد العرب المعاصرين)، رسالة ماجستير، جامعة قطر 2014-2015 ص 28، وراجع: رولان بارت، (درس السيميولوجيا)، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 3، 1993، ص 61.

فاعتمد تحليل الخطاب النّسقي للمضمرات المكونة للهويّة، في حديث الذّات والآخر، والهويّة، والعرق، وجدليّة الموت والحياة، وصورة المرأة، والاغتراب، وغيره، التي عكست الواقع الحالي أو المستقبلي في توجيه التحليل والتفسير للأنساق المضمرة للبيئة الخارجية للنص، وطريق تصوره للعالم الخارجي.[1]

وبتتبع المصطلحات النقديّة، يظهر النّسق بأنواع أربعة، هي: النّسق الداخلي، والأدبي، والمعرفي، وسيماطيقي ... فإن كان النّسق الداخلي ما يُعنى بالتنظيم الذّاتي، وما فيه من علاقات بدءًا من الذّات نفسها، إلى العلاقات الإنسانيّة واتجاهاتها المختلفة، فإنّ نسق الأدب هو التجانس الوظيفي الذي اعتمدته النظريّة البنيويّة لتحديد أثر الأدب، وما يحمله من فكر، ومعتقدات فلسفيّة، أما نسق المعرفة يُكاشَف بها الناقد من خلال معارفه للآثار الأدبيّة، ويشرح النّسق السيماطيقي اللّغة الاصطناعيّة ودلالاتها العامّة.[2]

إنّ **النّسق الثقافي** هو ما يبحث عن الأبعاد المعلنة والمضمرة في النّصوص الأدبيّة، لكشف ما فيها من أثر مفارقات، وتناقضات، فبينما يتعرف المتلقي على ما هو معلن، يخفي أنساقًا مضمرةً ولاشعوريّة، في مضامين التوريّة النسقيّة، في دلالات نسقيّة متشابكة تعمل على تغيير الفكر الإنساني وسلوكه بمرور الزمن في جملة ثقافيّة تنعكس على المفاهيم الموروثة.[3]

لذا كانت مهام النّاقد تتبع ما يقدمه المؤلف النّسقي، من خطابات موجهة تسهم في إنتاج ثّقافة تتضاد مع الموروث التاريخي أو السوسيولوجيا، وعلى مستوى الخطاب المَعنيُ بجدليّة الواقع والمعنى؛ لمُكاشفة المقاربات النفسيّة والوجوديّة في النّصوص للتعبير عن أغراض مؤلفيها، فإنّه نسقٌ لغويٌ مُحملٌ بأفكار وأنساق ثقافيّة من صنع المؤلف، وعليه كان على النّقد الثّقافي ترجمة التجارب الذّاتية، وانعكاساتها المجتمعيّة، في مُكاشفة لحيثيّات أيدولوجيّة، لا تدرس لغة الخطاب في أنساقها الذّاتية فحسب، بل تتعداه للنّسق الأكبر المُمثل للمجتمعات المُنتمي لها.[4]

---

(1) حجازي، سمير سعيد، (قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر)، دار الآفاق العربية، 2001، ص 127.

(2) المرجع السابق، ص 127.

(3) الغذامي، عبد الله، (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي ط2، 2001، ص 71- 76 (بتصرف).

(4) ربط أبو الفتح عثمان بن جني بأحد مسالكه وهي "اللغة" مدلول الخطاب/الكلام، واصفًا لها بأنها الأصوات التي يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"، راجع: مقال: (الخطاب بين الدرس اللغوي العربي القديم واللسانيات)، لعبد الكريم سحالية،

وباعتبار نقد الخطاب المضمر من الاستراتيجيات النقديّة المتطورة لدراسة الخطاب الأدبي، فقد صنفها غريماس وكورتيس في معجمه مُحددًا العلاقات والوحدات التركيبيّة في الخطاب، في إجراءات سميوطيقيا.[1]

وبالنّظر إلى النّقد البيئي فإنّ دوره يتمثّل في تفكيك النّص وتحليله إلى أجزائه ومقوماته، ودراسة ما فيه من علامات ومضامين، وفحص إستراتيجيات البلاغة المؤسساتيّة، للتعرف على الأيدولوجيات التّي تبثها في مسائل التعايش الإحيائي، والعلاقات البشريّة مع البيئة ومكوناتها، بهدف الوصول إلى حل للأزمة البيئيّة، بإعادة النظر في القيم والأخلاق البيئيّة، وهو في هذا الإطار التحليلي يتوسل بأدوات النّقد الثقافي واستراتيجيّاته.

وإذا كانت نشأة **النّقد الثقافي** متأثرة بذلك النّشاط النّقدي الذي يوظّف مفاهيم المدارس النّقدية التّي سبقته، على شاكلة ما تتسم به من صبغات سياسيّة وفلسفيّة واجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة ونصّية وغيرها، فإنّ ذلك يعني توسيع دائرة الاشتغال النّقدي من النصوص الأدبيّة الراقيّة، إلى النّصوص الثقافيّة الراقية منها والشعبية؛ في الأدب والموسيقا والدراما والخطابات الدعائيّة والسياسيّة وغير السياسيّة؛ حتّى باتت مدخل النّقد الثّقافي لأيّ نصّ يتغيّر مع نص آخر، فما هو لّغوي يختلف عما هو أنثريولوجيّ وسياسيّ وتاريخيّ ونفسيّ وتفكيكيّ ونِسويّ وغيره[2]. وهذا ما يُؤكد التقاطع الواضح بينه وبين النّقد البيئي إذ يلتقيان عند البيئة فضاءً للممارسة الإجرائية.

مجلة حوليات التراث- العدد 09/ 2009، الجزائر، ص33، وراجع ص 161، كذلك راجع: سعيد يقطين، (تحليل الخطاب الروائي)، المركز الثقافي العربي، 1988، ص 18، راجع: (الخطاب المحددات وآليات الاشتغال)، د. ربيعة العربي، دار أمجد للنشر والتوزيع،2017، ص 21، وراجع مصطفى، محمد سليم، (انسجام الخطاب ونقوص إعادة الهيمنة جدل الذات والنسق في الرواية الكويتية 1993-2015) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية،2016، ص37.

(1) وقد عكس غريماس وكورتيس جوانب سيميائية ولسانية تمثلت باعتبار الخطاب مرادفًا للنص، ومرادفًا للفظ، ومتوالية من الجمل الملفوظة، وموضوعًا نحو الخطاب، وقدرة خطابية، ونتيجة لتفعيل الخطاب (أي تحويل البنى السيميائية الحكائية إلى بنى خطابية)، وهو إجراء يفرض نسقًا يُحول النص إلى مادة خام، تحمل مضمونًا، قابلًا للتجسيد في الخطاب، راجع: العربي، ربيعة، (الخطاب المحددات وآليات الاشتغال)، دار أمجد للنشر والتوزيع، 2017، ص 22. وراجع: الزواوي بعورة، (مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو)، 2000، ص 90.

(2) راجع مقال (سيرورة النقد الثقافي عند الغرب) لعبد الله التميمي وآخرين، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، مجلد22، عدد1، 2014، ص (159-184).

ولأن البيئة هي البعد الإجرائي للنقد، ولأنها اللّبنة الأولى في الإرهاصات النّقديّة البيئيّة، لاتصالها المباشر بالأدب منذ بدايته، فقد وُسمت علاقة الطبيعة بالأدب بالتناغم[1]، والاتساق، فانطلقت الدراسات النقديّة في التطور مواكبة لكوكبة نقديّة غربيّة نادت بمساواة البشر بغير البشر، في إصدار لمصطلحات جديدة حوت مبادئ النّقد الجديد، الذي درس المضمرات الفكريّة المتعلقة بالبيئة، سعيًا لحل الأزمة البيئيّة، وكما أكّد جيلين لوف أنّ وظيفة الأدب الأكثر أهميّة تكمن في توجيه الوعي البشري إلى ما يهدد البيئة ومكوناتها[2]؛ لذا ظهرت منهجيّة النّقد البيئي شبيهة **بالنّقد الثّقافي** الذي يسعي إلى فهم ومكاشفة العلاقات، وما طوي فيها من مبادئ، قد يخفى على الجمهور العام كشفه، لما تحمله من مفاهيم عميقة، بأساليب علميّة ومنهجيّة.[3]

وقد كان من روّاد العرب في **النّقد الثقافي**، الناقد عبد الله الغذامي، الذي ألّف كتابًا بعنوان (النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربية)2005.

وامتياز النّقد البيئي بالوعي النّقدي الشمولي في فهم العلاقات الإنسانيّة وغير الإنسانيّة، مثّل نقطة الاختلاف مع **النّقد الثقافي**، أو الأصح تسميته بما تفوّق به النّقد البيئي، ففي الوقت الذي تقاطع فيه النقدين بالاهتمام في العلاقات البشرية، بين الأنا والآخر، والطبقية والعرقية والطائفية، تجاوز النّقد البيئي معطيات **النّقد الثقافي** بشمولية محتواه التي تجاوزت الأنساق الدلاليّة واللفظيّة، والأنساق الاجتماعيّة والسياسيّة، لتصل إلى الإحيائيّة والكونيّة.

النّقد البيئي وما بعد الاستعمار:

بين الحداثة وما بعد الحداثة، ثمّة فرق يظهر في ما تبيّن أنّه النّقد من أجل جهات مختلفة؛ ففي الأولى يكون الإنسان هو المركز والمحور في كل ما يحدث من حوله، أما في الثانية فإنّها تبنّت نظريّة الفيلسوف نيتشه، صاحب مبدأ موت الإله والإنسان المقدّس، الذي تناسب مع التطور العالمي التكنولوجي والرقمي والإعلامي والاتصالي، وجاءت فلسفة نيتشه في ما بعد الحداثة

---

(1) كوهين، مايكل، (النقد البيئي تحت المنظار)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 68، وراجع أيضًا: جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ص 13.

(2) نيومان، لانس، (النقد البيئي مقاربات مادية نظرية وتطبيقية)، المرجع السابق، ص 70 (بتصرف).

(3) أوبرمان، سربل، (من النقد البيئي المادي إلى النقد البيئي ما بعد الإنساني، الهجنة والقصص والطبيعة)، المرجع السابق، ص 118- 120 (بتصرف).

لاشتقاق عدد من النظريات فتّت التاريخ والجوسنة، بهدف تقويض المعتقدات حول الهويّة، والأصل، واللغة، فنشأت البنيويّة واللسانيّة والسيميائيّة، كذلك نظريات التأويليّة، والتلقي، والتفكيكيّة، والنظريّة النقديّة لمدرسة فرانكفورت، والنّقد الثقافي، والجنوسة، والتاريخانيّة الجديدة، والنظريّة العرقيّة، والنِّسويّة، والنظريّة الجماليّة الجديدة، **وما بعد الاستعمار**، والخطاب، والمقاربات التناصية والتداولية والإثنوسينولوجيّة، والفينومينولوجيا، والنّقد البيئي، والنّقد الجيني، والنّقد الحواري، والمادية الثقافيّة، وسيميوطيقا التأويل، وسيميوطيقا الأهواء .. وغيرها[1].

وفي الحين الذي أنتجت فيه الحداثة تطورًا ضد ذاتها بحربين عالميتين، لما اتصلت بها من مبادئ الغطرسة، التي أدت إلى فقدانها القدرة على تحرير الإنسان، ليبدأ عصر (ما بعد الحداثة) كما فسّره جان فرانسوا لوتار (1924-1998)، مفاهيم قيميّة إيجابيّة بهدف التّحرر من عالم الهيمنة، والخطاب الاستعماري، مؤمنًا باختلاف الهويات والثقافات، ومبشرًا بعالم واسع الانفتاح، والتجدد، والإبداع، والابتكار في جميع مجالات الحياة، ووفقًا لأهداف التنوير الفلسفيّة، غير أنّ الحقيقة كانت على النقيض من ما ذكر، فقد ظهرت العنصريّة والسيطرة والتلاعب، وانقسام العالم إلى المركز الإمبريالي على صعيد المجتمعات، والعائلات؛ ففسدت الثقافة والأخلاق، وظهرت اللامبالاة، وبالرغم من أنها قدّمت محاولات لتغيير النّظام الإمبريالي القائم على العبوديّة والهيمنة، واستبداله بأفكار ديمقراطيّة، وفتح الباب أمام العلماء والرأسمالية، فإنّ هذه المحاولات احتاجت لنظريات جديدة تدعمها كنظرية **ما بعد الاستعمار**، التّي تفنّد الأفكار الموروثة من الاستعمار وتستبدلها بمفاهيم جديدة تدعو للحريّة والمساواة.

كما قدّمت ما بعد الحداثة مواقف متشكك في جميع المعارف الإنسانية؛ مما أثر في عدد من العلوم الإنسانية، مثل: علم الاجتماع، والقانون، والدراسات الثّقافيّة، لأنّها اتصفت بالعدميّة، التّي قوّضت كل معاني النّظام، والسيطرة المركزيّة، مما أدّى إلى تفكك وعدم التماسك

(1) جميل حمداوي، (مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة)، موقع الألوكة، فبراير/شباط 2012:
https://www.alukah.net/literature_language/0/38509/%D9%85%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9/

في العالم والذّات، وقد انعكس ذلك على الأدب، في حين اعتمدت النظريّة على التشكيك كان من الطبيعي التركيز في الدراسات النقديّة على تحديد التّناص في النّصوص الأدبيّة.[1]

وكان حصاد كل ذلك اقتباس العرب لما جاء في الحداثة وما بعدها؛ وفقًا لنظرية ابن خلدون في مقدمته، التي نصت على تنقل عوامل النهضة من الأمة القوية، إلى الأمة الضعيفة التبعيّة.[2]

وبظهور نظريّة **ما بعد الاستعمار** أو ما بعد الكولونيالية Postcolonialism كتعديل لمسار نظريّة ما بعد الحداثة، في النظريّة الأدبيّة كان الطابع الغالب على النظريّة الجديدة طابعًا ثقافيًّا وسياسيًّا؛ لأنّها ارتبطت ارتباطًا وثيقًا في الخطاب السياسي، الساعي إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، بهدف إعادة النّظر في ما كتبه التاريخ من قِبل المُستعمِر، وتدوينه بأقلام من لُطِّخَت دماؤهم في الحرب من المُسْتَعمرين، وتوثيق الجرائم اللاأخلاقيّة التّي مارسها الاستعمار في حقّ الإنسانيّة والكون[3]، وبهذا المفهوم تكون نظريّة ما بعد الاستعمار جزءًا من الدراسات الثقافيّة والنقد الأدبي، لا بوصفها مهمة تاريخيّة، بل بوصفها مهمة ثقافيّة وسياسيّة؛ بالإضافة لما تحمله من قيمة أدبيّة وجماليّة، تتمثل في الرد بالكتابة.

وبهذا الوصف لنقد **ما بعد الاستعمار** تظهر أهمية البيئة في هذه الدراسات النّقدية، ذلك لأنّ الدمار الذي يقع على الدول المُستعمَرة لا يقتصر على الإنسان فحسب، بل إنّه يصل لكل المكونات الإحيائيّة، والبيئيّة، فقد ركزت دراسة النّقد البيئي **لما بعد الاستعمار** على أسباب الحروب المتمثلة في أطماعها الاقتصاديّة، للسيطرة والهيمنة على الثروات البيئيّة بما فيها الإنسان، ولمبادئ اختلاف العرق والهويّة، والدين، الذي يبرر للمعتدي احتلاله، إلا أنّ النّقد البيئي في ضوء **ما بعد الاستعمار** لا يقتصر على تقديم أيدولوجيات الاضطهاد الاستعماري وآثاره فحسب، بل يتعداه إلى تفسير الاستعمار الفكري والإمبريالي، الذي يميز بعنصريّة بين الكائنات الإحيائيّة، وبتعامل معها براديكاليّة وتراتبيّة.

---

(1)كارتر، ديفيد، (النظرية الأدبية)، ص: 131- 134(بتصرف).

(2) يتر بروكر، (الحداثة وما بعد الحداثة)، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1995.ص 53-60 (بتصرف)، وراجع: جميل حمداوي، (مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة)، موقع الألوكة، فبراير/شباط 2012.

(3) البازعي، د.سعد ، والرويلي، ميجان، (دليل الناقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2 ، 2000م، ص:138.

فقد رصد النّقد البيئي لأدب **ما بعد الاستعمار** التغييرات الفكريّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة والاقتصاديّة، بوجهة نظر البلاد المُستعمَرة، لمكاشفة الفارق فيما يدونه المُستعمِر المُستغل وما يحمله من فكر عما يسجله المُسيطر عليه، وبدراسة جينالوجيا النّقد البيئي ونقد **ما بعد الاستعمار التي** تُعنى بمظاهر الإنسانيّة والقيميّة والأخلاقيّة.

وهنا تظهر نقاط التقاطع في تشابه مبادئ الدراسة لكلا العلمين – جينالوجيا النّقد البيئي وجينالوجيا ما بعد الاستعمار- المهتمين في الأدب والثقافة على حد سواء، ليركزا على فهم الواقع الاجتماعي وما حصل عليه من تغييرات نتاج التغيرات السياسيّة والاقتصاديّة (الماديّة)، غير أنّ نقد **ما بعد الاستعمار** ظهر في بداية الاستقلال للمستعمَرات الأوربيّة، خاصة البريطانيّة، مثل: الكاريبي، والهند، وبلاد من قارة أفريقيا، التي أعادت كتابة التاريخ في ممارسات أدبيّة وثقافيّة، ومنها كتاب:"الإمبراطورية تعاد كتابتها بالانتقام "للمؤلف سلمان رشدي[1]. كذلك ما قدّمه إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" إذ وظّف النظريات التّي درسها في تفكيك العلاقات خلال الاستعمار الغربي للشرق الأوسط، مثل نظريّة الخطاب والمقاومة لميشال فوكو (Michel Foucault 1926 – 1984) ونظريّة الهيمنة عند أنطونيو غرامشي(Antonio Gramsci 1891-1937)، ونظريّة الآخر لوفرانز فانون (Frantz Fanon-1925-1961).[2]

وبهذا يظهر الاختلاف بين النّقدين، إذ يكمن في الزمن الذي عالجته كلٌّ منهما؛ ففي الحين الذي يهتم فيه النّقد البيئي بتفسير الماضي وتمحيصه لفهم الأيديولوجيّات، وبيان أثره في الحاضر، وتحليل التنبؤات للمستقبل، تظهر عناية النّقد في **ما بعد الاستعمار**، فقط بالزمن الماضي.

كذلك مقارنة دراسات **ما بعد الاستعمار** مع النّقد البيئي توضح القصور في دراسة العلاقات، إذ تهتم دراسات **ما بعد الاستعمار** بالعلاقات الإنسانية فقط، أما النقد البيئي فقد شمل دراسة للعلاقات الإنسانية بالإضافة للعلاقات الإحيائية، والكونية، والطبيعة، لما قدمه

---

(1) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال ميتا بانرجي، (النقد البيئي ودراسات ما بعد الكولونيالية)، ص163 (بتصرف).

(2) Jean-Paul Sartre, Situation, V, Colonialisme et néo-colonialisme, Paris, Gallimard, 1964

الأدب، في محاولة لتحليل العلاقات وما تحمله من نتاج ثقافي، لمكاشفة النزعة المركزيّة عند الإنسان، وتفسير الآثار القائمة على الاستعمار بوصفه كوارث كوكبيّة.

إلا أن مفارقات تجلّت في دراسات **ما بعد الاستعمار** البيئيّة، في ظهور أقنعة جديدة تخفي الحقيقة، شرحه رماتشاندرا غوها وخوان مارتينيث عام 1997 في عبارة "المذهب الفقيه للفقراء" ليفرّقوا بينه وبين مذهب الأمم الغنية، ولم يكتفِ الأمر على ذلك، بل مهّد روب نيكسون لضرورة التخلص من النّفايات المسمومة من المصانع في البلدان الغنيّة في شمال الكرة الأرضيّة، بداخل الدول النّامية، في كتابه العنف والمذهب البيئي للفقراء.

لذا فإنّ من واجب النّقد البيئي **لما بعد الاستعمار** الانتباه لكتابات يُعرف بالظهور الخفي الذي يبرز التهديدات من خلال الأداءات الروائيّة الواقعيّة، ومثال ذلك: رواية "شعب الحيوان" لاندرا سينها التّي تحدثت عن كارثة بوبال، الواقعة في مصنع هندي عام 1984 عند انفجاره وانتشار الغاز ليتضرر نصف مليون نسمة[1]. وعليه يجب التنبه للتّكوين الشامل للمؤلفات **ما بعد الاستعمار** الاقتصاديّة والتنمويّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة وفق نظرة محايدة ومكاشفة لمضمرات الفكر البيئي والقيم الأخلاقيّة التي تحملها.

النّقد البيئي والنّقد النِّسوي:

يتّضح من الآيات القرآنيّة النّظرة العامّة في مسألة النِّسويّة وتداعيات تكوينها، التّي تقع في مأزق يبدأ من القبول، وليس مستغربًا أن يعاني **النّقد النِّسوي** هذا الرفض في ظل المركزيّة الذكوريّة، التّي تسلّط الضوء على علو منزلة الرجل وتفوقه عن المرأة منذ نشأة الكون في حقيقة بيولوجيّة، وتكوين المجتمعات وفق رؤى داعمة للتراتبيّة بينهما، معتمدين في ذلك على تأويل معتقدي فلسفي ديني، مثلما تُؤّول الآية في سورة آل عمران إذ جاء الحديث فيها على لسان مريم، في سرد قصصي وحسب: "فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (36).

(1) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال بيبا مارلاند، (مقدمة في النقد الأدبي)، ص17-18(بتصرف).

وإنّ مجمل الادعاء في الرواية الغربيّة "البراجماتيّة" التّي صاغت الفلسفة النِّسويّة بمنظورها الخاص، الذي حدّد بناء وعي في المفاهيم العالقة بين الأخلاق والمعرفة، يتحدى هويته النقديّة المائزة له عن غيره من المجالات النقديّة، وخاصة مع دراسة مفاهيم متعلقة بالجسد، والطبقة، والعمل، وترتبط بالإعاقة، والبيت، وأيضًا الإنجاب، والذّات، ثم الدّعارة فظلّ مفهوم الاتجّار بالبشر؛ مما أفضى إلى دراسة قضايا العولمة وحقوق الإنسان والثقافات الشعبيّة والأعراق والتمييز العنصريّ، والتنمر.[1]

وفي ضوء التناقضات بين الدفاع عن الحقوق النِّسويّة، والادعاء بأن المنح الأدبيّة قد استجابت للضغوط المعاصرة. وحتّى وقت قريب جدًا، ولم يكن هناك ما يشير إلى أنّ الدراسات الأدبيّة كانت على دراية بالأزمة البيئيّة. على سبيل المثال، ولم تكن هناك مجالات، ولا مصطلحات، ولا وظائف.

وفي النّقد البيئي الذي واجه الصورة ذاتها من رفض، نتج عن كونه نقد مرفوض أصلًا، فهو وليد رفض الرفض، وفي ارتسام المرحلة النقدية الجيدة بتقاطعاتها مع النِسوية، ليبدأ علم **النِّسويّة الإيكولويجيّة**[2] بعد أن ظهرت حركتان متوازيتان في الستينيات، تدعو الأولى لتحرير المرأة بعد الجدل الذي شاع حول كتاب بيتي فريدمان (Feminine Mystique 1963)، أما الحركة الثانية فكانت الحركة البيئيّة، ولأن الهويّة المعروفة عن الطبيعة منذ القدم بأنّها الأم والحاضنة للبشريّة، التي أكّدها علم الكوزمولوجيا العضوي بتأنيث الأرض، مكّن الحركتين النِّسويّة والبيئيّة من التلاحم، بهدف التحرّر من التراتبيّة والقيود السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة المهيمنة عليها بسيطرة ذكوريّة.

وبهذه الاستعارة الكونيّة، جاء الأدب البيئي ملتحمًا بالطبيعة، وفي دراسته النقديّة جاءت تساؤلات عديدة، منها: ما النِّسويّة التّي يجب الوقوف عندها في الحديث عن التقاطعات النّقديّة بين النّسويّة والنّقد البيئي؟ هل تشمل المؤلفات الأدبيّة، أم هل تستوعب للمقالات والخطابات

---

(1) (موسوعة ستانفورد للفلسفة، الفلسفة النسوية)، ترجمة: م ر شف بك أ ر شف، مراجعة: محمد الرشودي
Copyright 2021 © 1حكمة

McAfee, Noëlle, "Feminist Philosophy", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Fall 2018 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/fall2018/entries/feminist-philosophy

(2) زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية)، ج2، ص33-34 (بتصرف).

بأشكالها العلميّة؟ ما الفرق بين المفاهيم في العصور المختلفة والمتعلقة في الذّات، والجسد، وتمثّلاتها للبيئة في الأدب؟ وهل تعامل الأدب مع الطبيعة (المرأة) بنموذج (الآخر) وفق الثقافة البشريّة؟ وكيف تعاد صياغة هذه المفاهيم في العمل الأدبي والنّقد البيئي على حد سواء؟

فقد مثّل **النّقد النِّسوي** استجابةً لثلاث حركات تُعنى بالحقوق المدنيّة والنِّسويّة والاجتماعيّة؛ لتغيير الفهم العام حول الطّبقة والعرق والجندر؛ وعن طريق التحليل النسقي للأدب، وبالرّغم من الارتباط الوثيق بين المرأة والطبيعة فإنّ **النّقد النِّسوي البيئي** لم يظهر في الممارسات النِّسويّة عند نشأتها، إذ بدأ النّقد البيئي النِّسوي يكشف عن العلاقات اللّغويّة والمجازيّة والمفاهيم الخاصّة بالمفاهيم النِّسويّة في ما بعد، فقد شكّلت منظومة أخلاقيّة تهتمّ بالقضايا البيئيّة، وتتحمل مسؤوليّة لحل الأزمة البيئيّة، بالدعوة إلى التصالح مع الطبيعة وتعديل ما نتج عن "الأخلاق البيئيّة البطرياركيّة (الأبويّة)[1]"، تلك الأخلاق التّي تعاملت مع الأرض كونها "امرأة".

غير أنّ هذه المعاملة للأرض والطبيعة ولّدت التفكير التراتبي الذي يبرر الاضطهاد البطريركي والاضطهاد المؤسساتي، وعندما يروم الفكر حول البيئة منذ العصور القديمة، يتصل بأنساق ثقافيّة ذات مفاهيم نِسويّة مرتبطةً بالمرأة مثل: الشرف، والمسكن، والأمان، والرحم، والحياة، والممات؛ لذا نشأ **النّقد البيئي النِّسوي** الهجين بالنّقدين البيئي والنِّسوي، في محاولة لتحري تمثلات الخطاب العرقيّة والطبقيّة والجنسانيّة، وتحليل بنائه الثّقافي للطبيعة مشتملًا التحليل النّسقي للّغة والرغبة والسلطة، في رؤى فلسفيّة عميقة متأثرة لأفلاطون وأرسطو وديكارت، والعلم الحديث، تلك التّي ميزت بين الذّات أو الهويّة الذكوريّة مع الآخر، للامتلاك والسيطرة. وهنا يُفسّر الآخر على أنّه الثنائيّة الملتحمة، الطبيعة/المرأة.

لذا، ظهر الإدراك النِّسوي البيئي الصلة بين "النظريّة والعمليّة، والخطابيّة والماديّة، واضطهاد الطبيعة واضطهاد المرأة"[2]؛ لتحقيق عالم يخلو من الاضطهاد، يتصف بالاستدامة، وسليمًا بيئيًّا، فركّزت الكاتبات المعاصرات على الطبيعة ذات النزعة النِّسويّة البيئيّة، مثل: "غرتل أرليتش، وآني ديلارد، وليندا هالستروم، وسو هوبل، وأليس ووكر، وجوزفين جونسون، ولوسيل

(1) غرتشن ت. لغلر، (مقدمة في النقد البيئي النسوي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص31.

(2) Cheryll Glotfelty, (Ecocriticism Reader) , p*

كلفتون، وجوي هارجو، وماري أوليفر، وأورسولا لغوين، ولسلي سيلكو، وديانا أكرمان"، اللاتي أسّسن مجالًا لكتابات أدبيّة تتيح المجال للدراسات **النّقديّة النِّسويّة البيئيّة.**

لما يمكن نعته بـ "الرعويّة ما بعد الحداثيّة،" فيه تحديد مغزى العلاقات الإنسانيّة مع البيئة، باعتبارها مرآة الثّقافة، التّي تحدّد العلاقة بنسخة جديدة معيّنة للعالم يناقش "المشاريع البرجوازيّة والماركسيّة أو الذكوريّة"[1]، تسمح **للنّقد البيئي النِّسوي**، بتحديد رؤى "إستراتيجيّات التحرريّة" التّي تنشأ مفاهيم جديدة حول الطبيعة وفق فلسفات ومفاهيم وقيم أخلاقيّة جديدة، ترفض التراتبيّة.

فقد قدّمت الدراسات النِّسويّة تأكيد الممارسات، التّي يتّبعها البشر اتجاه البيئة، بأنها تتأثر وتؤثر في الأدب ليس في مضمونه فحسب، وإنما في تكوينه النّحوي والمجازي والمفاهيمي؛ لذلك جاءت الدعوة إلى دراسة **النّقد البيئي النِّسوي** في تتبع سيرورة الأفعال واللّغة في "تجسيد الطبيعة" في الخطاب الأدبي، في مكاشفة لمرآة الثقافة الإيجابيّة.

فقدّمت دونا هاراوي (Donna Haraway 1944...) في كتابيّ "المعارف المتوضعة" و"رؤى رئيسة" فهمًا جديدًا لدراسة النّقد البيئي للدراسات العلميّة التّي تمثل "ممارسات قصصية" وتقترح بإعادة تحديد الأجناس الأدبيّة، لفهم "أدب الطبيعة الأميركي" من جهة، وتحديد السؤال الأخلاقي البيئي من جهة أخرى.

لقد أكّدت دونا هاراوي أنّ ما يُمارسه البشر اليوم على المرأة والعمّال، والناس الملوّنة، والطبيعة، والحيوان، يفضي بأسلوب السيطرة والهيمنة، والتراتبيّة؛ لذا فإنّ من أهمّ التقاطعات التّي يلتقي عند **النّقد النِّسوي**، والنِّسويّة البيئيّة تتمثل في محاولة لفضّ النزاع بين ثنائيات تقع ضمن مفارقات إيديولوجيّة وسلوكيّة واضحة وجليّة، وهي الذّات والآخر، الذّكر والأنثى، العقل والجسد، المدنيّ والبدائيّ، الروح، وما يقابلها، الثّقافة والطبيعة، والإنسان في مقابل الطبيعة.[2]

وليس مستغربًا أن تتجاوز مهمة **النّقديّة البيئيّة والنِّسويّة** من وصف الطبيعة، إلى إعادة التصور حول الطبيعة، بتحليل عدد من المبادئ الأساسيّة التّي تسهم في بناء السؤال الأخلاقيّ، ومنها

---

(1) غرتشن ت. لغلر، (مقدمة في النقد البيئي النسوي)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 34- 35 (بتصرف).

(2) راجع ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات) مقال بيبا مارلاند، (مقدمة في النقد الأدبي) ، ص16

تحديد تصوير الطبيعة والعلاقات البشريّة، وتجسيد البيئة لإعادة أسطرتها، وإلغاء الحواجز بين المشهدين؛ الداخلي المتمثل بالعاطفة والخارجي الكامن بالجغرافيّة، أي إلغاء التمييز بين الذّات والآخر المتمثّلة في البشر، وغير البشر، أو البشر بعضهم ببعض، والتأريخ من خلال وصف الطبيعة، والتسييس لتوضيح طرق الهيمنة على النساء والطبيعة من قبل البطرياركيّة ، التّي نشأت من الرّغبة والسّلطة واللّغة والعرق والجنوسة، وتحديد الفلسفات المنتمية لها، وفهم مضمون البيئة الاجتماعيّة، وتفنّيد مسائل الاختلاف البيولوجي والتمايز الجنوسي، للوصول إلى التحرّر السياسي، والاجتماعي ورفض تسليع المرأة والطبيعة، والنّظر إليها كبضاعة للاستهلاك.

لقد قدّم النّقد البيئي تحليلًا للخيال باعتباره بيئيًّا في المقام الأول، لفهم ما في الأدب من الأيديولوجيّات ومدى تأثيره على علاقتنا مع الطبيعة، وبين الكون المادي (العالم) والكون الخطابي (النص)[1] يظهر النّقد الأدبي أمام مسؤوليّة إعادة قراءة النّص بمنظور ثقافي، بإعادة السماح له بالتفكير في التمثيل النصي وتأويله باعتباره مزدوج الوظيفة، التّي تكمن بالإمتاع الفنيّ، والقيمة الأخلاقيّة والثقافيّة؛ لذلك فإنّ دراسة النّقد بشكله البيئي لم يتعلق بإعادة الأدبيّات إلى الواقع لفهم ما يحمله من أخلاق بيئيّة، أو إنكار ما يحمله النّص من مفاهيم ثقافيّة ومعتقدات بيئيّة، بل على العكس من ذلك، فإنّ النّقد البيئي مثّل دراسة تأكّد التعايش، أو التعاون بين الفنّ والفكر، والعلم والأدب، والواقع والتخيّيل، وفقًا لأربع مستويات مرجعية صنفها بويل بـ : "داخل النص، والنصوص (عالم النصوص الأخرى)، والتمثيل الذّاتي (النص المصور على أنه من النص)، والمحاكاة الخارجيّة (العالم خارج النص)[2]"؛وبهذه المرجعيات يجب أن يركز النّقد البيئي على البيئة الخارجيّة، والداخليّة، معنى ذلك أن قراءة المشهد التخيّيلي تقوم على مشاهدتين[3]: المشهد الخارجي وهو المشهد الذي نراه (الماديّ)، والمشهد الداخلي، الذي يمثل نوع من الإسقاط داخل شخص، هو الواقع الداخلي ، الذاتيّة ، الحياة النفسيّة، والإسقاطات الثقافيّة، والهيمنة

(1) VIGNOLA, Gabriel, (Écocritique, écosémiotique et représentation du monde en littérature), Cygne noir, no 5, 2017.

(2) L. BUELL, The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture, Cambridge, The Belknap Press of Harvard University Press, 1995, p. 86-93.

(3) B. Lopez, Crossing Open Grounds, New York, Vintage Books, 1989 [1988], p. 64-66.

السياسيّة والاجتماعيّة على العقل اللاواعي، كلها إدراكات تتجاوز التصنيف البسيط لفهم العلاقات البيئيّة، وكلها عملية متأصلة في الخطاب الأدبي والسردي خاصّة.

وفي الواقع، إنّ النّقد البيئي بهذا التّفسير يبني علاقة بين الأدب والعالم، بوصفه يضفي المعقوليّة على الخطاب الأدبي من خلال المراسلات بين المشهدين الداخلي والخارجي، وفقًا للمعارف الشخصيّة وبهدف التغيير والتقويم والوصول لحل إنساني وكوني عادل يسود فيه الأمن والسلام، والتي لا تتم إلا بإنتاج قراءة كاملة وجوهريّة، تفكك النص في بنياته الداخلية والخارجية، لفهم ميكانيكا النص وهياكل اللغة، عبر تحليل الأدوات التي يوفرها التاريخ الأدبي، واللغويات على وجه الخصوص، وتحديد التناقضات والمفارقات، وبين البنيويّة والسيميولوجيا والسيكولوجيا وسيميائية تحدد القيمة الجوهريّة للنص في انتمائه للقيم الأخلاقيّة والمعاني العرفانيّة والتاريخيّة.

***

ثالثًا: النّقد البيئي عند العرب:

وعلى الرّغم من أن الفكر البيئي بمنظوره الحديث لم يُطرح إلا مؤخرًا، فإنّ له جذورًا تاريخيّة في الأعمال الأدبيّة، التي زخرت بوصف جماليّات الطبيعة،[1] أو ما يُعرف في المدارس الغربيّة (كتابة الطبيعة)، أو (الأدب البيئي) الذي سلّط الضوء على المشكلة البيئيّة، ومستقبل العالم بعد تفاقم الأزمة البيئة المنسوبة للهوس الرقمي، والتطور السريع الهادف إلى زيادة الرفاهيّة الإنسانيّة، فكان هدف كتابة الطبيعة الغربيّة محاولة تقويم للثقافة الإنسانيّة، بمبادئ وقيم أخلاقيّة تُسهم في تعديل السلوك الاستهلاكي.

ما دام الإنسان قد عُرف بأنه ابن بيئته، فإنّ هذا التعريف ينطوي على إدراك كامل بأهمّية البيئة في حياته، ويؤكّد أنّه لن ينتج فعلًا أدبيًّا إلا وستظهر فيه الممارسات البيئيّة؛ فقد زخر الأدب العربي بشكل أساسي بالبيئة ومكوناتها التّي قدّمت الإنسان والحيوان والنبات، والطبيعة، بأشكال تعكس الثقافة الإيديولوجيّة التي تتبناها، وهي ثقافة عربيّة دينيّة، في حدود الالتزام الأخلاقي والقيمي. وعلى من عمق الرابط الروحي والنفسي بين الإنسان والبيئة في الموروث العربي؛ فإنّ النّقد العربي القديم لم يقدم العالق بين البيئة والأدب لفهم المحكات الفلسفيّة والنفسيّة، بل وقف عند

(1) Carlson, Allen. "Environmental aesthetics." *The Routledge companion to aesthetics*. Routledge, 2005. 561-576.

المحكات الجماليّة والتخيّيل، وبعد شعور العالم بالأزمة البيئيّة التّي يعيشها حيال فهم العلاقات بين البشر فيما بينهم، وبين البشر وغير البشر، أصبح من اللازم استهداف الدراسات الأدبيّة بمنظور بيئي؛ للوقوف على محكات الأزمة وتفسير السّلوك الإنساني المهيمن، وذلك باستنباط الروافد الثقافيّة البيئيّة المضمرة عبر الزمن، لحل الأزمة بهدف تحقيق التوازن البيئي، من خلال تحديد القيم الأساسيّة للبيئة ومكاشفة الفكر الإنساني، وتحديد علاقته بالذّات، والآخر، والكائنات الإحيائيّة، والمكونات البيئيّة عامة.

ولو كان مبدأ نشأة النّقد البيئي العربي وفقًا لمبدأ النّقد ينشأ بعد الكتابة، فمن العسير تكوين علم النقد البيئي العربي، ذلك لأن المؤلفات البيئيّة، أو كتابة الطبيعة لا تزال في بدايتها، إذ لم تظهر في الموروث الأدبي سرديّات أو أشعار متخصّصة في أدب كتابة الطبيعة بالمفهوم الغربي الحديث، إلّا أنّ الأدب لم ينفصل عن الطبيعة في يوم من الأيام، وبالعودة إلى الموروث الأدبي تتّضح مدى عنايته بالعلاقات الإنسانيّة مع الطبيعة ومكوناتها من جهة، وعلاقة الإنسان بالإنسان من جهة أخرى، كما تظهر عنايته في وصف مظاهر الطبيعة، خاصة المكانيّة والزمانيّة، مرتبطًا بأحاسيس وافرة التعبير وحيّة الخيال، كما ارتبط الأدب العربي بالسؤال الأخلاقي، والقيمي، شارحًا الصراع الدائم بين الخير والشر، على اعتبار أنّ اللّغة علامة "القوّة الثّقافيّة"،[1] التّي ميّزت الأدب بتكامله مع الطبيعة ومكوناتها، لاختلاف الأدب العربي بروافده الفلسفيّة ومعتقداته الدينيّة التي ينتمي لها.

تلك العلاقة بين ما قدّمه العرب من موروث أدبيّ وبين كتابة الطبيعة، وإن لم يكن مسماها أدبًا بيئيًّا، حقّقت أولويّة لدراسة النّقد البيئي في الأدب العربي، وإنّ بداية تأسيس الحركة البيئيّة الغربيّة الحديثة لا يمكن أن تنحصر انطلاقته بحركة شعريّة ذات مغزى قيمي بيئي، إنها ترتبط بأجناس أدبية قديمة نشأت بنشأة الأدب مثل: الرعوية وصفر التكوين[2] في العهد القديم، وإنها نشأت كذلك عند العرب منذ نشأة الشعر الجاهلي في الوقوف على الأطلال ووصف الطبيعة؛ لذا يُعد وجوب التأسيس للنّقد البيئي ضرورة نقديّة، إلا أنّ هذه الضرورة تشترط فيها مناسبة

(1) جرارد، (النقد البيئوي)، ص 97.

(2) المرجع السابق، ص 14.

خصوصيّة اللّغة العربيّة، وما فيها من موروث شعري وأدبي؛ لبناء منهجيّة نقديّة بقواعد ومبادئ علمية صحيحة.

وبالرّغم من وجود الوعي النّقدي، فإنّ هذا الوعي يمكن وصفه بالنّقد (التقليدي)، الذي لا يتجاوز آليات النّقد اللُّغوي المُعتمد على الناحية الجماليّة، أو النّقد التابع لأدوات النّقد في العصر الحديث لدى الغرب وممارساته التحليليّة، ومع أنّ التراث العربي فيه ما يستدعي العمل بجد؛ لإيجاد مبادئ نقديّة تليق بالعربية وموروثها الأدبي، فإنّ ذلك لا يكون إلا في التّخلص من التقليد سواء أكان للماضي، أم للتبعيّة الغربيّة، ثم البدء بالابتكار، بعد قراءة الموروثات الأدبية بوعي جاد، وبفكر إبداعي جديد، يتلاءم والثقافة الإنسانيّة في عصرنا الحالي، ومشاكله البيئيّة؛ لتُنتج آليات النّقد[1] بتقنيات ومبادئ منهجيّة محددة وبطريقة علميّة، تطبق معايير واضحة من دون اللجوء إلى مبدأ التقييم الذي قامت عليه الدراسة النّقديّة القديمة، وتحدد الصيغة القيمية للمعاملات البيئيّة وفقًا لما تحتاجه الساحة العربيّة، ولعلّ هذا ما يستوجب تناول حضور البيئة والطبيعة في النقاط الآتية:

أدب الطبيعة في التراث العربيّ القديم:

كان ظهور الطبيعة في الأدب العربي مقرونًا مع الشعر؛ فها هو ابن رشيق يعرّفه تعريفًا ذا مغزى مهم فيقول: "والبيت من الشّعْر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية."[2] وفي ذلك رمز لارتباط العربي بفكره ومعارفه البيئيّة، التي تُمثل أساسًا مهمًا في حياته، من خلالها يصف كل شيء، وصولاً إلى العلوم والآداب، بما يكاد يتشكّل في معجم بيئي يُعبر من خلاله عن أفكاره في وصف البيئة كنموذج شارح، ليدُل على التعلق بها من جهة، واحترامها وتقديرها من جهة أخرى.

---

(1) مشبال، محمد، (أسرار النقد الأدبي)، مقالات في النقد والتواصل، مكتبة سلمى الثقافية، مطبعة الخليج العربي، ط1، تطوان، 2002، ص5-6 (بتصرف).

(2) ابن رشيق، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ج 1، ط 1، 1955، ص 121.

فقد عدّ العرب الشعر ديوانهم وسجل تاريخهم، ومما دوّنه ابن قتيبة في سرد للمعارف التي يمثّلها الشعر العربي، الأخبار والأنساب والمعارف الفلسفيّة، وأضاف لها معارف الخيل والنجوم والريّاح والبرق والسّحاب، وبهذا يكون الشعر قد حافظ على الذاكرة الجماعيّة للأنساب والأعراف والأحداث التاريخية والمعارف البيئيّة.[1]

تلك المعارف التي زخر الأدب العربي بها؛ بدءًا من تمسُّك الشعراء الجاهليين بمقدمات طلليّة وفق سُنَّةٍ فنيّة، تصف فضاءهم المكانيّ، والزمانيّ، والظعائن، بالوقوف على الأطلال، إذ لم تخلُ منه مطلع قصيدة جاهلية؛ لتشكل بذلك مسارًا ثقافيًّا تميز تصويره المجازي لحياة الإنسان وارتباطه بما هو حوله، ويمثّل قيمًا وأخلاقًا متجذرة لديه؛ وذلك لأن الأدب في الفكر النّقدي العربي القديم مَعنيٌ بالسؤال الأخلاقي بوصفه جزءًا من تكوينه.

كما قدّم شعر الصعاليك، شعرًا بيئيًّا في صنعة فكريّة وثقافيّة ذات طابع خاص، فقد عاشوا خلف الجبال، مستبدلين عائلاتهم بالوحوش التي ألفتهم، فتشاركوا معها عيشهم في توحد حقيقي وأدبي.

وبقيت الطبيعة جلية في الأدب العربي بعد الإسلام، بالرغم من تحريم الوقوف على الأطلال، إلا أن وصفهم لرحلاتهم الشاقة، ومعاركهم الصعبة القاسية، واتصالهم بالبعير، والصيد، ظهرت في أنسنه الطبيعة ومكوناتها، وبتتبع الأدبي العربي تظهر محكات التطور في العلاقة الأدبيّة البيئيّة، إذ لم تعد مقتصرة على الوصف والأنسنة، بل بدأ الشعراء في المقارنات بين البيئات المختلفة لتوسع بقعة الدولة الإسلاميّة، والتنبه لأنواع البيئات المختلفة وطبيعة كل بيئة وأثرها على الأدب كالمدينة والقرية والبادية[2]، ومنها مقارنة الفرزدق لطبيعة الصحراء والنهر والجبل، وبين سفينة الصحراء الناقة، والسفينة الجارية على النهر، في اهتمام بيئي عميق الصلة بالفكر العربيّ، المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق البيئيّة.

وعليه فليس مستغربًا أن تتوافق مظاهر العناية في الوصف البيئي مع التطور الحضاري في الدولة العباسيّة، فقد ظهرت الأشعار الواصفة للطبيعة وجمالها المرتبط في الترف من ناحية،

---

(1) راجع: ابن قتيبة: (الشعر والشعراء)، مجلدان في واحد، بيروت، 1964، ص 11، وراجع: ابن شيخ، جمال الدين، (الشعرية العربية)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996، ص11.

(2) ابن شيخ، جمال الدين، (الشعرية العربية)، ص 23-24

والتطور من ناحية أخرى، مثل وصف النوافير، والحدائق وغيرها[1]موظفين الخيال البيئي بصور اتسمت بالتكثّيف والإيحاء.

وبين الجغرافيا الرياضيّة والجغرافيا الوصفيّة ظهر أدب الرحلات عند العرب مَعنيًّا بتوثيق الجغرافيا الرياضية في بداية نشأته متأثرًا بما وصلنا من الموروث اليوناني، وبخاصة عن بطليموس الذي اهتم بدراسة مقاييس دوائر خطوط الطول والعرض للكرة الأرضيّة، ثمّ تطور أدب الرحلة مستفيدًا من علم الجغرافيا الوصفية، التي تُوثق المشاهدات في شهادة ميدانيّة على ما في البلدان من فضائل، وخصائص، وعادات، وتقاليد. ومن الرحلات ما وظف لتوثيق البعثات السفاريّة، والدبلوماسيّة، والتبشيريّة، والعلميّة، والعسكريّة،[2]في شكل من أشكال الكتابة البيئيّة العلميّة المتأدبّة، حيث قدّمت وصفًا لمكونات البيئة الإحيائيّة وغير الإحيائيّة.

ومن أشهر الرحلات رحلة: ابن جبير، وابن بطوطة، وابن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم.[3] كما ميّز المستشرق كراتشوفسكي[4] أدب الرحلات في للتراث العربي عن باقي الآداب في العالم، بل إنّه عَدّ رسالة ابن فضلان الأولى لأهميتها الفنيّة والعلميّة، لما سجّلته من معلومات الثقافات المختلفة، وجغرافيتهم، وعلاقاتهم المختلفة البشريّة والإحيائيّة، في فيض من الاهتمام البيئي، من خلال توثيق للمشاهدات والشهادات المنوعة.

أما القالب الذي قام عليه أدب الرحلة فقد كان يصف الحركة الميكانيكية والزمانيّة على أساس يسرد المعلومات الجغرافيّة والتاريخيّة وثقافيّة، التي جاءت بطرق لوصف الأماكن وحضارتها، وما فيها من مكونات، كما ذكر فيها أفعال أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ولباسهم ودينهم ومعاملتهم وبوصف دقيق للآخر، ومقارنتهم مع الأنا أو الذّات سواء الذّات الفرديّة أم الذّات الجمعيّة، فاتصفت هذه الأجناس بالأدب المصحوب بالثقافة والمعرفة، كما ظهر فيها التميز

---

(1) قناوي، عبد العظيم، (الوصف في الشعر العربي)، مكتبة مصطفى الحلبي، 1929م .ص42-43 (بتصرف).

(2) الكردي، عبد الرحيم، (ابن فضلان وتأسيس النص الرِّحْلي)، ضمن مجلة: (سرود، مجلة النقد الأدبي، ثقافة نص الرحلة)، العدد 2، المغرب، ربيع 2019، ص8 (بتصرف) وص 5.

(3) ضمن مجلة: (سرود، مجلة النقد الأدبي، ثقافة نص الرحلة)، العدد 2، ص8.

(4) كراتشوفسكي، إغناطيوس بوليانوفتش، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 1957, ج1، ص 184.

البشري بتوظيف أسلوب السخرية والاستهزاء[1]، اللذين يمثلان ثقافة التّعالي على الآخر وعدم تقبله.

ولم يكتفِ العرب بأدب الرحلات، بل تولد عنه أجناس أدبيّة فيها المتعة والتّشويق والمبالغة والخيال والفنتازيا الفكريّة والبيئيّة، ومنها أدب العجيب، وسرد الغريب، والعجائبي، والأساطير، بالإضافة إلى أدب الأحلام والمنام مثل، كتاب (تعبير الرؤيا) لابن قتيبة، ووصل الخيال السردي إلى قصص البطل الأسطوري، مثل (السندباد)، والقصص الشعبيّة المتسلسلة، مثل (ألف ليلة وليلة)، التي تُمتع القارئ وتخرجه من الواقع إلى خيال فكري وبيئي جديدين، ومع ذلك ، فإنّ الممارسات البيئيّة في الموروث الشعبي قدّمت أيضًا تفصيلات دقيقة في العلاقات البشريّة من جهة، وغير البشريّة من جهة أخرى، إذ بيّنت تعاملات الإنسان مع البيئة وأزماتها في رمزية تعكس الفكر العربي حيال البيئة ومكوناتها. إذ عكست النّصوص التي نوقشت في هذه المؤلفات أعمالًا خياليّة اختارت القضايا البيئيّة فيها بأعمال حضريّة، مما أدى إلى استبعاد الريف والبريّة والصحراء كمواقع اتصال بين البشر والعالم الطبيعي في تحول فكري جديد صاحب الانفتاح على الأمم الأخرى، وحضاراتهم المختلفة.

كما ظهر فنّ المقامة، وأشهرها مقامات الهمذاني، وكتاب الأغاني وما جُمع فيه من القصص، حتى وُصِف هذا العصر "بعصر السرد"، لا سيما لما امتازت به من الوصف بأشكاله المختلفة، وصف الزمان، والمكان، والشخوص، في قصص تكشف الفكر الإنساني وطباعه بصور ساخرة، إلا أنها تُعد وثيقة تاريخيّة تسرد طبائع البشر مرتبطة بالمكان والبيئة التي يعيش فيها، مصوّرة أحداث دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة، كما تحمل العبرة مع الفكاهة، كما أنها تحتاج لإعمال الفكر والذهن لفهم مغزاها الأخلاقي.

وبعد كل هذا التنوع في الأجناس الأدبية المرتبطة بالبيئة في وصف خيالي حي للأماكن والأحداث ظهر الوصف الخيالي في النّقد القديم، فقد كتب الحاتمي: كتابًا في نقد شعر المتنبي: بعنوان (الرسالة الحاتمي) التّي عبّرت عن آرائه في سردٍ خياليٍّ، لم يتناول فيه شرح الأبيات شرحًا مفصلًا، أو تفسيرًا دقيقًا، في معايير نقديّة واضحة، بل جعله تفسيرًا قائمًا على القصص الخياليّة التي تشبه رحلات المغامرات في فضاء زماني ومكاني، يحوي بطلًا يقتحم مجلس المتنبي، فيدحض

(1) المرجع السابق، مجلة: (سرود، مجلة النقد الأدبي، ثقافة نص الرحلة)، العدد 2، ص 20

شعره، ويفنّد قوله. ومما قدّمه النّقاد أيضا: الحوارات الحجاجية في الموازنة بين الشعراء مثل كتاب الآمدي، كما كتب أبو حيان التوحيدي جملةً من آرائه الفلسفيّة عبر السرد الخيالي، وبهذا أصبح السرد يُوظف عند العرب لا في المجال الفنيّ فحسب، بل تعدّاه إلى النّقد، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، في وصف فضاءات مكانيّة وزمانيّة جذبت الجمهور بانبهار ما سجّلته السرديّات لأغراض العلم، والمعرفة، والتسلية أيضًا. [1]في آداب تقمصت أدب الطبيعة في أشكال مختلفة، حملت جميعها البيئة محملًا أساسيًا في تكوينها، إذ شاركت الكتابات في الأحداث وبناء الثيمات.

وفي قراءة لمثل هذا الأدب يجب التنبّه إلى ما كان فيها من عناية بالمكان، واهتمام به، واختلاف في العلاقات الإنسانيّة في الجمع بين التضاد في مفارقة واضحة، فقد يُظهر الشخص نفسه مشاعر التراحم أحيانًا والتعالي أحيانًا أخرى؛ ليكشف الثقافة التي ينتمي لها المؤلف، بل يتعداه ليكشف عن تاريخ مجتمعي كامل.

كما بيّنت عدد من المؤلّفات الشعريّة معاناة الإنسان من الاضطهاد المؤسّسي، سواء أكان عربي السيادة أم المُحتل، وما يبديه من الترهيب والقتل والتشرد والطرد، كما جاء في الكتب التي تصف الأندلس، مثل قصيدة (رحلة الحجي)، التي كُتبت بهدف نشر قيم تدعو المسلمين في إسبانيا بالصبر، وتقدّم لهم التوعية التاريخيّة.[2]كذلك كان من الأدب في العصر الأندلسي شعر الزجل، الذي يُعني بالطبيعة، وكان من أهم خصائصه وصف الطبيعة، وأنسنتها بالشكوى لها، وانعكاس أحاسيسهم عليها في مظاهر جليّة لكتابة بيئيّة.

كما لازمت الطبيعة روّاد المدرسة الرومانسيّة سواء من شعراء المهجر، أم المدرسة القلميّة، وأبلو، فقد قدّموا الطبيعة بشكل يوحي بأنسنتها، بالإضافة إلى التوحد معها في كل مشاعرهم وحياتهم، إذ عرضوا جماليّات الطبيعة في توظيف للخيال البيئي، واستعاراته، التي تقع ضمن العلم بيئي، بإبداع أدبي، وبذائقة فنيّة عالية، تتوافق والأعمال الأدبية الغربية، التي انطلقت منها دراسة النقد البيئي. ففي دراسة الأدب العربي يجهل الناقد أيهما الأول: أثر المكان على اللغة والأدب، أم أثر الأدب على المكان.

---

(1) المرجع السابق، ص 9-10 (بتصرف).

(2) سعدون، عبد الهادي، (أدب رحلة الحج.. الرحلة الموريسكسة المتأخرة)، ضمن مجلة: (سرود، مجلة النقد الأدبي، ثقافة نص الرحلة)، العدد 2، ص 43 -45

وبهذا يتضح جليًّا أنَّ كثيرًا من الأدب العربي والموروث التراثي يُمكن إدراجه تحت مسمّى (كتابة الطبيعة)، لما يحمله من عناية بالبيئة من ناحية، ووصف للعلاقات المنوعة من ناحية أخرى؛ لذا يمكن إعادة دراسته والنظر في مكنونه بنظرة نقديّة جديدة وبنقد بيئي، يركز على فهم الخيال البيئي، ومضمراته الفكريّة المتأصلة في الفكر العربي والإسلامي.

الأزمة البيئيّة بين علوم الطبيعة والنّقد العربي:

لقد ألّف العرب الأشعار في الطبيعة لما عاشه من معاناة، فقد كانت حياة البداوة قاسية صعبة، شحيحة الماء، قليلة الكلأ؛ لذا كان همّ البدوي تأمين الماء له ولبعيره[1]، وعبّر عن ذلك في أشعاره من الناحية الأدبيّة، واهتم آخر بعلم الفلك والسحاب وغيرهما، وكلاهما كان مهتمًا بالبيئة ومكوناتها لما في تلبيتها له من وصولٍ إلى كفاية ماديّة ومعنويّة، وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته: "وأمّا من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في الفقر مجالًا"[2]

وكان أول من كتب مصطلح البيئة هو ابن عبد ربه في عام (939م)، وفسّر فيه الجمع بين علوم الجغرافيا وعلوم الأحياء،[3] وقد كتب العرب في عدد كبير من المؤلفات البيئيّة في علوم الطبيعة[4].

والحقيقة أنّ الأزمة البيئيّة المتمثلة في العالم العربي اليوم قد تجاوزت موضوعات شحّ الماء، ورعي الحيوانات، والزراعة، والزحف السكاني، وحقوق الحيوان، والانقراض الإحيائي، والمشكلات الجويّة والمناخيّة، والتلوث الهوائي والمائي[5]، وما يترتب عليها من تبعات وآثار في الحياة الإنسانيّة ومدى الرفاهيّة، وكان تجاوز هذه المشكلات الماديّة إلى مسائل الحروب الدامية؛ التي ما فتئ الوطن العربي من الانغماس فيها على مدار القرنين الماضيين، وقد طال الدّمار، والهدم، والموت، والتشرد، معظم الدول العربيّة مثل: العراق، لبنان، واليمن، وليبيا، وسوريا، ومصر، وتونس ، بالإضافة إلى

---

(1) سلامة، عبد الحميد، (قضايا الماء عند العرب قديمًا)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2004، ص67.

(2) ابن خلدون، (المقدمة، المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة محققة 2007م، ص 135-136.

(3) رزق، خليل، (الإسلام والبيئة)، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان بيروت، ط1، 2006، ص38-39.

(4) Lutfallah Gari (Ecology in Muslim Heritage: Treatises on Environmental Pollution up to the End of 13th Cen) Site Islamic heritage.

(5) راجع وثيقة توقيعات البيئة العالمية (GEO4) البيئة من أجل التنمية، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، 2017.

الاحتلال في فلسطين، ونقص الموارد الغذائيّة في السودان والصومال، وبهذا تظهر المشكلات التّي يُعاني منها الوطن العربي تفوق المشكلات المادية التي تُعيرها المسارات الغربيّة -الأوروبية والأمريكية- اهتمامها، إذ تزيد المشكلة البيئيّة في الشرق الأوسط ما يهابه الغرب من مخاوف، بالإضافة إلى الحروب الدامية، والصّراعات الطائفيّة والعرقيّة والدينيّة المستمرة وغير المنتهية.

وبهذه الحيثيّات يتوجب على النّاقد العربي أن يكون على علم بخصوصيّة المنطقة، وما فيها من مشكلات وأزمات توسعت دوائرها إلى أن وصلت لدائرة الدّمار الشامل، الذي عمّت فيه الحروب فخرّبت البيئيّة على مستوى المكان والأحياء والبشر على وجه سواء، وفي بحث للأولويات يجب أن يكون التركيز على ما يصيب البشر من أزمات عنيفة بسبب سلبية الإنسان نفسه، وما يحمله من فكر سلطوي، يهيمن على سلوكه.

لذا وجب بيان مضامين الخطاب الأدبي الذي يسلّط الضوء على أدب الطبيعة، لا من باب رصده وجمعه في شرح ما يقدّمه الأديب من وصف أو أنسنة أو مشاركة للمشاعر فحسب، بل من أجل تحليل وتأويل ما فيها من أفكار واتجاهات للاستفادة منها في تصنيف الايدولوجيات المجتمعيّة وموروثاتهم الفكريّة، وآليات التبعيّة لديهم، والبحث في نشر الوعي حول ما يقدّمه الأدب الذي يصف الحياة الاجتماعيّة، والارتقاء به من خطابٍ واصفٍ، إلى خطابٍ صانعٍ للحياة مُغير لمعطياتها، يهُمّ بها ويرفعها لتصل إلى النجاة.

النّقد البيئي رو افد فلسفيّة أم آراء دينيّة:

لقد ظهر توافق في تأصيل فكر النّقد البيئي الغربي بين الفلسفة والدين المزعوم عندهم، فقد أسّست الفلسفات القديمة أيدولوجيات الاستغلال البيئي، أما عند العرب فقد ظهر لبس في التفريق بين المفاهيم الثلاثة: الفلسفة والإيديولوجيا والفكر الديني، رغم فوارق الاختلاف بينها، فإن فهم ماهية المصطلح لا يزال في مأزق الممارسة، ففي الوقت الذي تؤسس فيه الفلسفة لبناء الفكرة وثبات المبدأ، تظهر الأيديولوجيات كآراء تتغير بتغير السلطة المهيمنة على المجتمع[1] لأن

(1) مسعود، رشيد، (ملاحظات حول الفهم الفلسفي للأيديولوجيا)، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، بيروت، العدد 15، 1980، ص 54-71، وراجع: العروي، عبد الله، (مفهوم الأيديولوجيا)، ولدى محمد سبيلا، ص 186، وراجع: سبيلا، محمد، (الإيديولوجيا، نحو نظرة تكاملية)، الدار البيضاء، المركز الثقافي الغربي، ط1، 1992، ص 11.

الأيدولوجيات المعرفيّة، والدينيّة، والثقافيّة، تنعكس على السلوك المحرّض للحراك الفنيّ والأدبي، وفق الوعي الذّاتي والجمعي والزائف.

وإن كان من المفترض أن نشأة العلوم بأنواعها ترتبط بآراء فلسفيّة، فإنّ العلم البيئي بمجالاته الثلاثة[1]، الحيوي، والاجتماعي، والثقافي، ارتبط بفلسفات غربية مختلفة، تنوعت في تفصيلاتها عما تأسّس عليه الأدب العربي، الذي حظي بالمجالات الثلاثة، في مؤلفات مختلفة، ليقدم المعطيات الاجتماعية[2]بما ظهر من سلوك وتفاعل إنساني، كان نتاجه ثقافيًّا[3]وأدبيًّا وبمختلف الأجناس الأدبية من فكر عربي وإيديولوجيات ذات تداعيات خاصّة.

تركّزت هذه التداعيات في الفكر الديني بعد انتشار الإسلام في المنطقة العربيّة، فكان القرآن الكريم، هو المرجع الرئيس، لا في الكتابة الأدبيّة فحسب، بل في المجال النّقدي، وهو ما استشهد به النقاد والفقهاء والعامة؛ لتحديد المقبول والمرفوض من الأدب.

وبالعودة إلى المرجع الأساسي للفكر الإسلامي تظهر عناية القرآن الكريم في البيئة، إذ تعدّدت الآيات التي جاء فيها ذكر الطبيعة؛ لتصل إلى سبعة مئة وخمسين موضعًا[4]؛ تسطّر مبادئ الفكر العربي، ببيان أهميّة الطبيعة، ومشاركتها الإنسان العيش الكوني، ومن الآيات المرجعيّة في تحديد العلاقة بين الإنسان والبيئة قوله تعالى: "وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام، 38) وقوله: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (الإسراء، 44).

---

(1) مكسح، دليلة، (البيئة في الشعر الجزائري المعاصر)، 2014-2015، ص 191.

(2) دويدري، رجاء وحيد، (البيئة مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي)، ص303-432. وراجع: فلوجل، جون كارل، (الإنسان والأخلاق والمجتمع)، ترجمة: عثمان نويه، دار الفكر العربي، د.ت، ص 18.

(3) آل وادي، علي شناوة، والحسيني، عامر عبد الرضا، (التعبير البيئي في فن ما بعد الحداثة)، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بابل، العراق، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص16.

(4) فاضلي، أبو نصر الله عبد العزيز، (البيئة من المنظور الشرعي وسبل حمايتها الإسلام)، دار الكتب العلمية، 2009، ص28.

من هنا تبدأ مراحل دراسة الأيدولوجيّة العربيّة، في كتابة أدب الطبيعة، وفي النّقد الأدبي كذلك، ففي الآيات تسوية الإنسان بباقي المكونات الحيّة في الأرض من جهة، وحق كينونة كل ما في الكون لما تقدّمه من وظائف محدّدة، متقنة العمل في نظام واتساق من جهة أخرى.

وفي المقابل جاءت بعض الآيات تقرّ بتسخير الأرض ومن عليها للإنسان، لا للاستغلال، بل لسير الكون بتناسق وانسجام، لتعمل كل عناصرها ومكوناتها بطريقة تكامليّة متعاونة يؤدّي كل عنصر فيها دوره الذي خُلق له، من دون أن يجور أحد على الآخر، فهي من نعم الله على الإنسان[1]، إذ لم يَرد معنى التسخير في القرآن إلا في آية واحدة؛ صرّح فيها السياق القرآني بتسخير الأرض للإنسان بهدف تذكيره بالنّعم التي تُوجب الشّكر قبل الحساب، في قاله تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (الملك، 15)، كما جاءت باقي الآيات مصرّحة في التذكير لما خلق الله فيه من منفعة للإنسان.[2]ومنها قوله سبحانه: "انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا" (الإسراء، 21) وهنا تفضيل في الرزق والمال، أما الناس فلم يكن لهم تفضيل في الدنيا إلا بين الأنبياء والرسل، فقد قال جلّ في علاه: "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة، 253).

وقد فضّل الله بعضًا من الناس على بعض بتكريمهم في الآخرة؛ لما قدّموه في الدنيا، وهذا في الجزاء والحساب، لا بالمفاضلة والتمييز. أما ما جعله للرجل فكان في باب القوامة، وهو باب للتكليف لا للتشريف،[3] إذ يقول سبحانه: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" (النساء، 34)، وبالرغم من أنّ القوامة في مفهومها الشرعي واللّغوي من مسؤوليّات الرجل في الإنفاق، فإنّ الموروث العربي يدرجها تحت قائمة الطاعة وانصياع المرأة

---

(1) القرضاوي، يوسف، (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2001، ص17.

(2) آيات المراد بها تسخير ما في الكون للإنسان راجع موقع آيات القرآن: https://cutt.us/5I47K وراجع: خطابي، and نبيل .تكريم الانسان في القرآن الكريم-دراسة موضوعية.Diss. Université d'Alger 1-Benyoucef Benkhedda .

(3) وقد ميز العرب بين الناس، وفقًا لجنسهم، فقد ورد عن الجاحظ: "الخصي لا يصلح كما لا تصلح المرأة، فهو كالبغل لا حمارًا ولا فرسًا" راجع: الجاحظ، عمرو بن بحر، (الحيوان)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر مصطفى البابلي الحلبي، القاهرة، 1938، ج1، ص 108، وفي تفضيل الرجل راجع الجزء الأول ص 110، والجزء الثاني ص4 ، وفي موضوع تسخير الفلك راجع الجزء الرابع ص5.

لأوامر الرجل، وكأنه يملك الحق الكامل في حياتها، وفي الحقيقة أنّها مكلفة مثله تمامًا، ولها من الحقوق والواجبات مثل كل ما على الأرض ليكون التكامل ولتسير عجلة الحياة بشكلها الصحيح.

وثمّة مفارقة في فهم النصوص الدينيّة والتعامل معها، ففي الوقت الذي ظهر تركيز الآيات على العدل والمساواة، في توازن بين الاستهلاك وتسخير الكون للبشريّة، على مبدأ العمل المنسجم بين الأحياء، في دوائر الهيكليّة للحياة البيئيّة، على أساس المساواة والوسطيّة، ظهر في فارق بينها وبين الموروث الثقافي في الفكر والعادات والتقاليد، تجسّد على مستوى الكتابة الأدبيّة التّي ظهرت فيها الأحكام والمعاملات المختلفة، ومنها: معاملة المرأة الحرة، والقوانين التي فرضت عليها من قبل الرجل بحكم سلطته المطلقة، ومعاملات الإماء من النساء كسلعة يمكن إهداؤها أو بيعها، ومثلها العبودية بأشكالها المختلفة، وبالرغم من اختفاء عبوديّة البيع والشراء البشريّة اليوم، فإنها تحولت إلى أنواع عبوديّة بأشكال جديدة ومطورة، بقمع إبداء الرأي، وتضييق العيش، وتقنين المال، وغيرها، فتحولت بصورة الخدم والتابع، إما لحزبيّة سياسيّة، أو لجماعات دينيّة متطرفة، وغيرها.

أما على المستوى النّقدي فقد ظهرت أيضًا مفارقة في الحكم بين المعتقدات، جاء من فكر مرتبط بالعادات والتقاليد لا بالمبادئ الدينيّة، ومنه ما كان في استثناء أدب المرأة وإبعاد تقييمه ونقده في جدول ترتيب الجودة لفحولة الشعراء، ثم تنحى الأدب الشعبي، وإيثار الآداب المقربة للطبقة الحاكمة، للدراسة والتحليل والتفنيد، والمقارعة، باعتبارها الأهم والأجود، وبهذا كان لا بد من استبعاد الأدب غير المؤسّساتي، والمعارض للحكم المهيمن والمسيطر على المنطقة، ثم أعاد الحكم المقارن القائم على أساس الطبقيّة في الحكم النّقدي، في طبقات محددة، وأخيرًا توظيف مصطلحات النّقد عنصريّة تعزز الهيمنة البشريّة، والتراتبيّة، والمركزيّة المؤسّساتيّة، في توظيف لقب الفحولة، الذي قدم نقدًا للمعنى والأسلوب والموسيقى، والتركيز على المعنى لم يكن ليسلّط الضوء على البيئة إلا باعتبارها مساعد في البناء الوصفي، فلم يلتفت النّاقد لما يحمله الخطاب الأدبي من أيدولوجيات بيئيّة، بهدف نقاشها أو الوقوف عليها، بل أهملها في تهميش كامل.

البناء النّقدي بين المراجعة والتخطيط:

وبما أنّ النّقد لا يقدم تقييمًا للنص فحسب، بل إنه يُدخله عالمًا من المتعة، واكتشاف أسرار الحقيقة الإنسانيّة، التي تحمل المتلقي إلى الوعي بالمكتوب، ذلك الوعي في فهم الماضي المرتبط برؤى

الوعي في الحاضر؛[1] لأن دراسة الأدب العربي بمراحله المختلفة، وتفنيد الروافد الفلسفيّة والآراء الدينيّة التي يقوم عليها، من الحاجات الملحّة لبناء المنهج البيئي المناسب؛ لذا كان لابد من طرح عدد من التساؤلات التي تمثّلت شقين الأول في الشعر هي: هل للخصوصيّة الشعريّة العربيّة أثّر في بناء الفكر البيئي؟ ما أثّر الموروث الشعري في بناء الثّقافة البيئيّة المعاصرة في كل المجالات، سواء أكان ذلك في العلاقة بين الإنسان والطبيعة بمكوناتها، أم كان في علاقة الإنسان بغيره من البشر؟

أما الأسئلة الخاصة بالأدب السردي فهي ثلاثة أسئلة: ما أشكال الكتابة البيئيّة في الأدب العربي؟ وكيف أسهمت الثيمة السرديّة المتخيّلة في فهم الأزمة البيئيّة وحلّها؟ وما أثر التقنيات السرديّة في بناء المتن الروائي؟ وفي بيان تمثلات الأيدولوجيّات المُنتجة للفكر الثقافي والاجتماعي، والسياسي؟

إنّ ما يخصّ الثّقافة العربيّة وما يميز اللّغة العربيّة والموروث الأدبي شكّل مثلثًا من أساسيات النّقد الأدبي العربي؛ الذي يمتاز باختلافه وتباينه عما يقدّمه الغرب في النّقد البيئي، وبمقارنة بسيطة يظهر جليًّا أنّ الثّقافة الغربيّة أساسها فلسفي وديني يغاير تمامًا الثّقافة العربيّة التي تقوم على أساس جذرها الثّقافة الإسلاميّة، والموروثات الثقافيّة المنوعة وفقًا للبيئة؛ التّي تأثرت في عوامل داخليّة وخارجيّة مختلفة، وبين التنوع العرقي والاحتلال الخارجي ظهرت فكر قائم على التميّز العرقي، والتفرّيق بالجنس، وصراع الهويّة، واختلاف الطائفيّة، والعنصريّة بالجنسيّة والانتماء الوطني، وتعدّد الآراء حول ما نتج عن الاحتلال الخارجي، واستبداد السلطة، ووفقًا للواقع التاريخي والاجتماعي اللذان عاشهما الأدب العربي؛ يؤكدان على أنّ الأدب العربي مؤهّل للدخول في أدب بيئي قوي نظرًا للمآسي الكبيرة التي مرّ بها، ولكن ما حدث هو العكس إذ كان هناك ضعف ومقاومة، وبالرّغم من أنّ الاتجاه العالمي اليوم ينص على الرؤية المستدامة، والعناية بالبيئة كجزء أساسي لدوام الحياة البشريّة، فإنّ النّقد العربي لم ينظر للمسألة بعين الاهتمام بالقدر المطلوب، وإنّ من الواجب التوجه لتأسيس نقد بيئي بملامح عربيّة تعيد دراسة الموروث الأدبي والشعبي في نظرة نقديّة تدرس الخيال البيئي وما فيه من نظرات الأخلاق البيئيّة في الفكر العربي القديم والجديد في سعي لحل الأزمات البيئيّة العربية المتمثلة في الفساد والاحتلال وحجب الحريات.

---

(1) مشبال، محمد، (أسرار النقد الأدبي)، ص5، وراجع: عز الدين، حسن البنا، (الشعرية والثقافة، مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2003، ص32.

وعلى هذا، فإنّ مناقشة الأبعاد الإجرائيّة للنّقد البيئي تبدأ بالبحث في خصوصيّة اللّغة العربيّة، وتميزها عن غيرها من اللغات، وتجعل من المناسب الالتفات إلى المعطيات الفنيّة والتركيبيّة الخاصة في اللّغة، والمُتمثلة في تركيبها النّحوي، والصرفي، والبلاغي، والإيقاعي المميز لفنّ الشعر مثالًا لفهم المعطيات البيئيّة التي مثلت الأساس البلاغي في الوصف والتمثيل والمشاركة للمشهد الإنساني في المدونة العربية، كما أنّ إعادة النظر في المستويات النحويّة والصرفيّة من أجل مقاربة المشهد البيئي الذي يحدد أولويات التركيز، والأبعاد الأيدولوجيّة، من خلال عمليات التقديم والتأخير وأساليب التوكيد، وغيرها من الظواهر التي امتازت بها العربيّة بخصوصيّة تامة من دون غيرها، في محاولة لإخضاع التحليل اللّغوي لمقتضى الفكر البيئي وخصوصيّته، ومن ذلك فهم المعجم الدلالي الذي يختاره الشاعر في وصف الطبيعة وأنسنتها.[1]

أما الموروث الأدبي فإنّ الأدب العربي امتاز منذ نشأته ببناء فنيّ مختلف عن اللّغات الأخرى، في شكله وجنسه، ففي الوقت الذي يدرس فيه النّقد البيئي لطبيعة العلاقات في الأجناس العربيّة مثل: شعر الطّلل، والوصف، أدب الرحلة، والغريب والعجيب والعجائبي من السرديّات الشعبيّة والمقامات وغيرها، وأدب المدرسة الرومانسيّة، كان النّاقد البيئي الغربي مثل جرارد وغيره، قد درس ما أُنتج من أجناس أدبيّة غربيّة تمثلت بالأدب الرعوي، والرومانسي، والملحمة، والشعر الغنائي، والتراجيديا، والملهاة. وبهذا التنوع اختلاف فارق بين الموروث الأدبي والثقافي.

لذلك ظهرت التحديات النّقديّة البيئيّة في الدراسات العربيّة، تبدأ في مأزق المصطلح وصولًا للترجمة، فالتطبيق الذي يُنفذ بتبعيّة معياريّة دون الالتفات إلى الاختلافات الجذريّة بين اللّغات، وما فيها من فارق ثقافي، وتمايز في خصوصيّة لغويّة، لذلك كان من الواجب مراجعة آليات اشتغال النّقد البيئي العربي في مقابل النّقد الغربي، وإحالة الدراسة النّقديّة البيئيّة لفهم واعي للّفظة الموظّفة، ولدلالاتها المعجميّة،[2] لفهم ما تحمله اللّغة من علامات وتاريخ، وتطور لّغوي ودلالاي، في دراسة تأويليّة تقوم على الفهم ثم التفسير والتحليل.

ليشكّل التأويل المنحسر في العلامة والتاريخ أفق البحث النّقدي، الذي يصل فيه تحليل الخطاب البيئوي لحل المشكلة البيئيّة وفك قيود السلبيّة البشريّة من جهة والتنبؤ بحيثيّات

---

(1) راجع البحث نفسه، فصل القضايا والمفاهيم، مبحث: (مأزق الممارسة)، 66-77.

(2) المرجع السابق، ص73-74.

المستقبل من جهة أخرى؛ ولا يكون ذلك إلا بنظرة تحليليّة شاملة، في فهم البعد السوسيولوجي للنّص، والإيديولوجي النفسي، وتفكيكه وفهم أسلوبيّته، وتمحيص إشاراته والعلامات السيميائية في ما يخص الفكر البيئي، بعمق للبنية التركيبيّة له؛ بهدف فهم المشكلات البيئيّة العربيّة، وتحليل العلاقات البشريّة، في مساهمة فاعلة لحل المشاكل وتقليل الدمار، الذي شمل لا البيئة المكانيّة ومكوناتها الإحيائيّة فحسب، بل تعداه لقتل أعداد كبيرة من البشر سنويًّا.

وتقتضي دراسة النّقد البيئي فهم عدد من الاتجاهات المعرفيّة الخاصة في الأدب العربي، أهمها ركيزتا الزمان والمكان، لتطور الأدب وتغيره في مراحل زمنيّة متنوعة، تظهر فيها المقاربات البيئيّة مرتبطةً بالتغيّر النوعي للأعمال الأدبيّة، والتحولات الفنيّة المؤثرة فيه باختلاف الحقب التاريخيّة، والزمانيّة، والمكانيّة.

ويُعدّ ارتباط الأعمال الأدبيّة تلك وثيق الصلة بالفكر السياسي، الذي يعي ضرورة المحافظة على المكونات الطبيعيّة، فنشأة علم الإيكولوجيا في الولايات المتحدة الأميركيّة، ثم أوروبا الغربيّة، بظهور الحركات السياسيّة المنتمية للفكر الماركسي الرّاديكالي، بدعوة لإبراز دور الطبيعة وأهميّتها، وإدماجها في الكتابة الفكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة. فبات من الضروري على الناقد مواكبة التطور الأدبي، وبناء منظومة نقديّة يقظة، مكثفة الوعي الإدراكي للتداعيّات الفكريّة حيال الإبداع الأدبي البيئوي، على اعتبار أنّ الأدب – في معنى من معانيه- انعكاس الواقع الخارجي، بما يحويه من تغيرات، في نظامه، وثقافاته.

وبالرغم من أنّ نظريّة الانعكاس أولت علاقة طرديّة بين التطور البيئي السياسي والاجتماعي، بتطور الفنّ والأدب، فإنّ هذا الفكر لم ينطبق على جميع الآداب، فقد كان العصر العباسي المنقسم إلى دويلات متفكّكًا سياسيًّا، وكان الإبداع الأدبي مزدهرًا على خلاف الوضع السياسي؛ إذ لم يتأثّر بالتدهور السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، فقد فنّد القرطاجني[1] مفاهيم النظريّة، رافضًا الاعتراف بأثر التفكّك السياسي، والاجتماعي، وانعكاسه على الأعمال الأدبيّة.

(1) راجع كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، عن دار الغرب الإسلامي - تونس، ط3، سنة 1986.

ولئن كانت المكونات الرئيسة للنظام البيئي وفقًا للدراسات الغربيّة تكمن في: التنوع البيولوجي، والكفاءة المكانيّة، والتوازن، ومجموعاتها الفرعيّة من علم التحكم الآلي، والتعاقب، والاستمراريّة[1]. فإن من الأولى استقصاء ما هو متاح في الأدب العربي، والنظريّة الأدبيّة العربيّة، بما تحمله اللّغة من خصوصيّة للوصول إلى مبادئ النّقد البيئي العربي، والذي لا بد من أن يخضع، بالإضافة لما ذُكر من خصوصيات لّغوية وإرثيّة، إلى الأزمة البيئيّة العربيّة، واحتياجات التغيّير فيها، للوصول إلى الأمن البيئي، وحل الأزمة العربيّة.

وهنا تظهر أهميّة النّقد الواعي، الذي يوازن بين التفاعل الفني والإنساني، والممارسات الأدبيّة، المُتفاعلة مع البيئة كنتاج اجتماعي، وثقافي، وسياسي، ونفسي، في توازن زماني ومكاني وجمالي، ويُقصد بالجمالي تنوع مستويات التوظيف المعجميّة والبلاغيّة والنحويّة باختلاف الرؤى البيئيّة عبر الزمن، التي تصفها اللّغة وتحددها مكوناتها وفقًا لعلاقة الشعر بالبيئة، إذ لم يكن الشعر واصفًا للحياة، أو راصدًا للتاريخ، بل فاق ذلك بما حمله من تبصّر فكري وإيديولوجي، وثقافي لعلاقة الإنسان ببيئته بعمقين نفسي ومعرفي[2] وبالرغم من أنّ الكتابة البيئيّة حديثة النشأة فإنّ الموروث الشعري يكاشف وعيًا شعريًّا فرديًّا، عكس الوعي الجماعي، وارتبط بعلاقة ثنائيّة في الشعر اهتم النّقد البيئي بأثر الشاعر في المتلقي بما يبث من أفكار ومعتقدات، كانت البيئة هي أساس مؤلفاته فقد قيل عند العرب أنّ الانسان ابن بيئته، تلك البيئة التي تفرض عليه أسلوبه، وأفكاره، والوضع السياسي والاجتماعي المتحكم فيه فيخضع الشاعر لنظريّة التأثر والتأثير، ليجترح النقد المعطيات الأدبيّة في استقراء للملامح البيئيّة في مكاشفة للفلسفات والمعتقدات فيها.

إرهاصات النّقد البيئيّ في النّقد العربيّ القديم:

إنّ كل ما قدّمه الأدب من بيئات مختلفة، مزج فيه وصف للعالم الطبيعي، والأجناس والأماكن والأعراف في عالم اجتماعي، ظهر فيه اختلاط بين الأعراق، لم تكن هاجسًا نقديًّا قديمًا،

---

(1) Lillian C. Woo, Ecomimesis: A Model for Sustainable Design, IAFOR Journal of Sustainability, Energy & the Environment: Volume 3 – Issue 1, April 24, 2017

(2)الوعي السليم في الشعر يصل في عمقه إلى "شعرنة القضايا والأشياء"، دلالة على ارتباط الأدب بالقضايا الاجتماعية وغيرها، راجع: يوسف وغليسي، (في ظلال النصوص.. تأملات نقدية في كتابات جزائرية)، ط1، الجزائر، 2009، ص 232.

بكل مُقدّراته الأدبيّة والبيئيّة، إذ لم تأخذ البيئة حيّزًا نقديًّا أو فكريًّا ثقافيًّا، إلا ربما فيما ظهر كبارقة أمل في دراسة لواقع التّصحر البيئي عند العرب.

وحتّى التمثّلات المرتبطة في المرأة العربيّة في تاريخها الاجتماعي والثقافي، التي كانت قد قدّمت فرطًا في الطرح الفكري، المُحاط بلبس في فهم أيدولوجيّة الفكر الاجتماعي الموروث حول حريّة المرأة، فإنّها لم تصل لنقد نِسوي بيئي، بالرغم من ذلك فإنّ الدعوة قائمة في بناء نقد نِسوي مقرون بالنقد البيئي الحديث، تراعي خصوصيّة حال المرأة العربيّة والإسلاميّة، وما تعانيه من اضطهاد وكبت للحريات الفكريّة والعقديّة والسلوكيّة.

وبالرّغم من كل ما سبق، ومن عدم وجود نقد بيئي صريح، فإنّ إرهاصات نقديّة أسهمت في تعزيز بناء النّقد البيئي الجديد، لمنتج أدبي امتاز بالشوق والحنان البيئي، والأنسنة والوحدة مع الآخر.

فقد امتاز النّقد القديم بتركيزه على قضيّة اللّفظ والمعنى، كما أثار الجدل حول الشكل، جاعلًا القيم جزء من النّقد الأدبي، إذ كان النّقد يشترط عمق المعنى، وأهميّة الفكرة في ما يقدمه الشعر أو النثر، وبالرّغم من أنه لم يدرس الأدب دراسةً نقديّةً وافيةً لاستنباط ما يقدّمه من فلسفات وإيديولوجيّات، بهدف تأسيس المعرفة العلميّة، أو المعرفة التاريخيّة، أو معرفة علم الأنساب، أو المعرفة الفلسفيّة، واكتفت الممارسات النقديّة بجمع الأبيات ومقارنتها، أو رصد الجماليّات في التخيّيل، أو نقض القبيح من المعنى وسوء اختيار اللّفظ، أو حشد للمعالم الأسلوبيّة.

وبذلك اعتمدت الأدوات النّقديّة على الذائقة العامة، الناتجة عن المقارنات البسيطة، من دون تحديد لرؤى فكريّة ومعايير نقديّة واضحة المنهج، وفق درس علمي، وفلسفة واضحة، بل تداولوا عددًا من المفاهيم النقديّة شفاهيًّا، لعهود تتالت وفي ورؤية تقليدية، وأحكام انطباعيّة، فكان أي فرد في المجتمع يمكنه توجيه النّقد للشعر وتقييمه حتى الشعراء أنفسهم.

فكان من ذلك تعريف المبرد (210-286) هـ للبلاغة بأنها "إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقارنة أختها ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[1].

أما تفسير ابن قتيبة (213-276هـ) للشعر بأنّه "معدن علم العرب، وسفر حكمتها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام"[2] إشارة إلى أنّ الشّعر له وظيفة تعليميّة، مرتبطة بالمجتمع العربي في علاقته ببيئتّه العربيّة، ولكن يُعد هذا الوعي وعيًّا حافظًا فقط، ووظيفته حفظ العلوم، فقد شرح ابن طباطبا (322هـ) في تأسيس الشعر الاختلاف بين اللّغة عند البدو وعند الحضر[3]. وأثر البيئة في لغة الشاعر.

ومن أبرز القضايا المطروحة في النّقد العربي القديم بالإضافة لقضية اللّفظ والمعنى، هي قضية الصدق والكذب، التي أولى لها العرب أهميّة كبيرة، وهي امتداد للفلسفة اليونانيّة في نظريّة المحاكاة، فقد ذكر العسكريّ (395-480هـ) أنّ البلاغة من قولهم "بلغت الغاية" إذ انتهيت إليها، والبلاغة بلاغة؛ لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه[4] البلاغة هي فصاحة الكلام ورونقه في اللّفظ والتركيب.

ومن القضايا التّي قد تصنف في النّقد المعرفي مسألة وظيفة الشعر، ومن ذلك ما ذكره ابن سلام بأنّ الشعر الجاهلي هو ديوان العرب ومنبع حكمتهم، وعلمهم[5]، وبهذا التصريح يقدم ابن سلام إدراكًا للأهميّة العلميّة التي يقدمها الأدب لأطر الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة.

وبالرّغم من أنّ "المصطلحات هي مفاتيح العلوم [6]"، فإنّ العلم النّقدي كان يكاد يقتصر على البلاغة العربيّة وأساليبها التركيبيّة، وتفنيد المعنى في صلاح اللّفظ أو غريبه، فقد تمثل الحراك

---

(1) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (البلاغة)، تحرير رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2 ،1985 ،ص81 .

(2) ابن قتيبة: (عيون الأخبار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، القاهرة، مصر، 1973، ص 184

(3) ابن طباطبا، (عيار الشعر)، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1956، ص12، وراجع: ابن شيخ، جمال الدين، (الشعرية العربية)، ص23

(4) مطلوب، أحمد، (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها)، الدار العربية للموسوعات، ط1، ج1، 2006، ص 403-402.

(5) الجمحي، ابن سلام، (طبقات فحول الشعراء)، دار المعارف، ص 24.

(6) علي القاسمي، (علم المصطلح.. أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية)، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 2008.

النّقدي بتعليق النّقاد على الأعمال الأدبيّة، من خلال نعته بمصطلح نقدي محدد، ومتعارف عليه، كوثيقة للاستحسان أو عدمه، إلا أنّ ما يستبطنه النتاج النّقدي مما قدمه للأعمال الأدبيّة يُظهر اعتناء الشاعر بالبيئة واستحسان الناقد للمعنى، ومن ذلك نقد أبو العلاء المعري أبياتًا شعريّةً للمتنبي، ونعتها في كتابه (معجز أحمد) بالبديع:

فَكُنتُ إذا يَممتُ أرضاً بعيدةً سريتُ فَكنتُ السر والَّليلُ كَاتِمه

قال المعري فيه: "وهذا البيت من بدائع هذه القصيدة وسيدها، وواسطة قلادتها "[1]، ويصف المتنبي الليل بكاتم السر الذي يؤويه، وفي البيت معنى بيئي عميق المغزى، وصورة خياليّة مبتكرة، في وصف لحالة دراميّة تمتاز بكمال الأنسنة للطبيعة، في تمازج وانسجام متكاملين للشاعر مع الليل، منتقلًا من وصفه المادي إلى الروحاني، بل ويتجاوزه إلى الفلسفة المعنويّة العميقة، التي تقر بكتمان الليل سر صاحبه، في مخاطبة فكريّة للمتلقي، تعكس خبرة المتنبي في الحياة، وتآلفه مع البيئة، في اعتراف لمدى حاجته لها، وشعوره بالأمان معها.

وفيه أيضًا قول الوطواط" ... فيه نظم معاني البديع في ألفاظ حسنة بعيدة عن التكلف،"[2] وبهذه الشهادات النّقديّة في استحسان التصوير لبلوغ المعنى، من دون تعقيد أو غموض، من غير الوقوف على المعاني العميقة المحمّلة بالأيدولوجيات بالتّأمل في الأبيات والتفكر فيها لفهمها على صعيد العلامة، التي قدّمت المعنى للسامع على نحو يألفه ويحبه، في مبالغة محمودة تمثّلت في الانسجام مع البيئي، باختيار موفق لألفاظ تحمل معاني مثّلت أطباع العرب وصفاتهم الفكريّة والعقديّة اتجاه البيئة.

ولأنّ اللّغة هي الأساس الأوّل للمجال النّقدي، وهي عند ابن خلدون: "عبارة المتكلم عن مقصده."[3] فإنّ المقاصد البيئيّة بدت جليّة في الأدب العربي وإن لم يقدم لها النّقد وصفًا حيًّا. فقد فسّر الزمخشري (467-538هـ)، النقّد في كتابه (أساس البلاغة) بأنّه نقد الثمن، ونقده له؛ أي

ص 265.

(1)المعري، أبو العلاء، (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري.. معجز احمد)، تحقيق: عبد المجيد، دار المعرفة بمصر، 1992، ج3، ط2، ص 26-27.

(2) مطلوب، أحمد، (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها)، ج1، ص 33.

(3) ابن خلدون، (المقدمة، المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، دار الفكر العربي بيروت، طبعة محققة 2002م، ص56.

انتقده، ونقد النّقاد الدراهم؛ ميزوا جيدها من رديئها، وهو من (نُقاد قومه) أي من خيارهم. ونقد الكلام وهو من نقدة الشعر ونقّاده[1] وبهذا يحدّد الزمخشري مهام النّاقد اللّغويّة والثّقافيّة، فقد صنّف النّقاد الشعراء، وقدموا ترتيبًا لهم، وفقًا لمعايير الجودة البلاغيّة، والسبق في المعنى، والمفاضلة بينهم، في الكتب النقديّة[2] (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي (139-231هـ)، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة (276- 213)هـ، (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)، للآمدي (ت370هـ)، وكتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للجرجاني (ت 474)هـ، كذلك قدّم الفيلسوف قدامة بن جعفر (337)هـ كتاب (نقد الشعر)، الذي عرّف فيه الشعر بأنه مقفى ذا معنى،[3] موضحًا أهميّة المعنى في الشعر، لأنه يتبنى الفكر العقلاني، وقد تأثر به عدد من النقاد مثل: أبو هلال العسكري (395) هـ في كتابه: (الصناعتين)، وكتاب الباقلاني (403) هـ (إعجاز القرآن)، وابن رشيق (460)هـ، في كتابه: (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، كذلك ابن سنان الخفاجي (466)هـ، وكتابه (سر الفصاحة)، وكتاب الجرجاني (ت 471)هـ، (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)، قدّموا بصمة في طرح قضايا الثقافة والسلطة، والانتحال، والبلاغة، كما كان لهم الفضل في بيان شغفهم في دراسة الأدب كعلم قائم بذاته، يخضع لمعايير ومفاهيم وقوانين محددة، لتأصيل علم يميز خصائص الشعر، متأثرين بالفلاسفة، وما وصلهم من ترجمات للكتب الفلسفيّة[4].

أما حازم القرطاجني (608 – 684) هـ فقد حدد أفضليّة الشعر بحسن المحاكاة، فقد قال: "أفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت

---

(1) الزمخشري، عمر بن أحمد، (أساس البلاغة)، تحرير محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط1، 1998، ص298.

(2) راجع: (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري.. معجز احمد)، تحقيق: عبد المجيد، 1992، وابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء)، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1985، والجرجاني، عبد القاهر، (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، ط4، مقدمة المحققين: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي،1966، موقع نور. نشر 2008، والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (الحيوان)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1983، والجوزية، ابن قيم، (الفوائد " المشوق إلى علوم القران وعلم البيان")، القاهرة، 1347، والعسكري، أبي هلال الحسن بن عبد الله، (كتاب الصناعتين)، الكتابة والشعر، الجزء الأول، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط2، 1952 موقع النور نشر 2014، وغيرها..

(3) ابن جعفر، قدامة، (نقد الشعر) تحرير: محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص64.

(4) راجع: جابر عصفور، (مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي)، ص10- 21(بتصرف).

غرابته... وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب، خليا من الغرابة"، وبهذا تأكيد على أهمية المحاكاة التي قسمها إلى ثالثة اتجاهات للمحاكاة: محاكاة التحسين، والتقبيح، والمطابقة".[1]

إنّ ما امتازت به تلك الكتب النّقديّة ما استقطبته من مصطلحات نقديّة يمكن نعتها بالبيئيّة، ففي مفهوم الفحولة، لقب بيئي في الصعيد اللّغوي والمعنوي، ذكوري الطبعة، عنصري الوجهة، يمثل الفلسفة العربيّة في ثقافتها الراسخة عبر الزمن، بالانتماء الكامل للطبيعة من جهة، وللمركزيّة الذكوريّة من جهة أخرى. وبنظرة تعتري وعي النّقد العربي في مراحل زمنيّة معينة، يفتح الباب لفحوى مكاشفة فكريّة عميقة مفادها التحام البيئة بالإنسان العربي، شاعرًا كان أم ناقدًا، وفق وعي تابع لنظام سياسي واجتماعي وعقيدي، مهيمن على الفكر العربي، في مرحلة الإبداع، ومرحلة التحليل، فيما تقدّمه من أطروحات معرفيّة من خلال المصطلحات النقديّة المختصرة، رغم اكتناز الأدب بالمعارف المتعلقة بالهويّة من سرد لأسماء العشائر، وتفصيل للأنساب، وفخر بالأحساب، وسردها لمسميات البقعة الجغرافيّة، في الترحال.

وبهذا فإنّ غرض الكلام "مبني على محاكاته وإيقاع التخيّيل فيه بقصده الأول الذي يبني فيه الشاعر كلامه على تخيل شيء بشيء من الموجودات؛ ليبسط النفوس له أو يقبضها عنه".[2]

وثمّة سجال في الممارسة النّقديّة للنّقد البيئي،[3]في اعتماد النّقد الحديث لأفق هرمينوطيقي تأويلي للنّصوص، وفتح أبواب التفسيرات لفهم العالم الجديد، بممارسات نقديّة منوعة، تدمج العلوم المختلفة في المسار النقدي، لأهمية ما يقدمه الأدب من ثقافة سريعة الوصول إلى الناس، وعميقة الأثر في نفوسهم، بتفنيد الواقع البيئي، بتوظيف النّقد العرفاني وإدماجه بالنّقد البنيوي في المجال البيئي مراعيًا خصوصيّة اللّغة وآليات الاشتغال فيها، وما الموضوعات التّي تعالجها، فهي تعكس البنية المتطورة للمجتمعات التّي أُزيلت منها الطبيعة، كنتيجة للتطور الاقتصادي، كما

(1) القرطاجني، حازم، (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، ص71، ص92.

(2) المرجع السابق، ص 69 – 70 (بتصرف).

(3) أوبرمان، سريال، (نحو ممارسة ما بعد حداثية، النقد البيئي النظري)، ضمن كتاب (النقد البيئي مقاربات، تطبيقات، ص 130 129(بتصرف).

اهتمّت الكتابات بالمصير البيولوجي والروحي لتلك المجتمعات، مفترضةً أنّ مصير البشريّة والطبيعة لا ينفصلان.[1]

لا شك أنّ المراحل التي مرّ بها الشعر العربي حتى تكونت صورته في العصر الجاهلي يسودها الغموض؛ إلا أنّ صورة ما وصلنا من القصائد تحدّد آلية الشعر وتقاليده الفنيّة في تلك الفترة، والتي تميزت بالتعقيد في الوزن والمعاني، والموضوعات.

غير أنّ ما يقدّمه الأدب العربي الحديث من تنوع في السرد وأنواع الرواية، يمثّل وفرة في الأدبي البيئي الذي ينظر للطبيعة بوجهة نظر جديدة، ومنها -على سبيل المثال لا الحصر- روايات ما وراء الطبيعة، مثل (مؤلفات أحمد خالد توفيق)[2] التي تمثل الأخلاق البيئيّة فيما حدث لها اليوم وما يمكن أن تصل له في تنبؤات مستقبلة، في عرض يمتاز بالفنتازيا الدرامية، والتهويل الخطابي، اللتان يوظفهما كأحد أهم الاستراتيجيات الإقناعية التّي تسعى لتعديل الفكر الجمعي، ومنه تعديل السلوك، بهدف حل الأزمة البيئيّة؛ وفهم الإيديولوجيات والأخلاق البيئيّة، ثم تعديل المعتقد البيئي، والتنبؤ بما سيحدث في حال الاستمرار بالسلبية البشريّة اتجاه البيئة أو العكس، وصولًا لنشر وعي بيئي يصل بالعالم لحل الأزمة والعيش في سلام.

ويمكن أن تنطلق الدراسات البيئيّة العربية من مجموعة من التساؤلات العميقة في مجال الأدب الموروث، أو كتابة الطبيعة الحديثة: هل نمو الفروق العرقيّة والعنصريّة ضمن بؤر إقليميّة أوجدها الفكر المُتطرف، أو المُستعمِر أو غيرها من الأسباب؛ أثرت بالأيدولوجيات المَعنيّة في أدب يظهر ضمن التدفق الثقافي الذي تصوره العديد من الكتابات العربية؟ وكيف يؤثر النزوح والهجرة على العلاقات الإنسانيّة بالمكان والبيئة الماديّة، وبشكل أكثر تحديدًا على العلاقة الإنسانيّة بالطبيعة؟ هل حقًا كانت الأيدولوجيات العربيّة منحسرة ضمن الفكر الإسلامي الوسطي الذي دعا لحقوق المرأة؟ أم أنّ الأيدولوجيّات العربيّة توقفت عن التطور منذ عصر وئد البنات في المجالات النِّسويّة وما يلحقها من فكر بيئي ملتحم بالمرأة؟ هل الشعر الغزلي تكريم للمرأة أم إذلال وفي المقابل هل الوصف البيئي بكل مكوناته مدح أم استغلال؟

---

(1) Lopez, Barry (1998), "We are shaped by the Sound of Wind, the Slant of the Sunlight" High Country News 30:17(14 September 1998) p1.

(2)"وفقاً لأشد المفكرين تشاؤماً في القول: "إذا كان القرن التاسع عشر قد قتل الإله، وقتل القرن العشرون الإنسان، فقد بقي على القرن الواحد والعشرين أن يقتل الطبيعة" راجع: ماري بيليت، (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، ص. 33.

كثيرة هي التساؤلات التي تحوم حول الأدب العربي وما فيه من موروث بيئي، يحتاج لدراسة نقديّة بيئيّة عميقة وواعيّة لأدوات النّقد البيئي، لفهم أغوار الفكر العربي وتقويمه كمساهمة في إيجاد حلول جذريّة ومستدامة للمشاكل البيئيّة العربيّة على وجه التحديد.

الفصل الثّاني

تطبيقات في منهجيّة النّقد البيئيّ

لأنّ الأدب مَعنيّ في الثّقافة؛ التي عُدت مظهرًا من المظاهر الفكريّة الأساسيّة في حل الأزمة البيئيّة، جاء النّقد البيئي يحمل مبادئ تبحث في مظاهر السلوك الإنساني، وفق تحليل عميق لمستوى البنية الدراميّة المتعلقة بالبيئة في الأدب، سواء أكان شعرًا أم كان نثرًا.

فقد قدّمت النّظريّة الأدبيّة أدوات نقديّة تُعين على دراسة المظاهر البيئيّة في النّص الأدبي وغير الأدبي، من خلال مُكاشفة العلاقات الثنائيّة وفهم المفارقات الفكريّة والأيدولوجيّة المسيطرة على الأفعال الإنسانيّة؛ لذا فإنّ ارتباط النّظريّة الأدبيّة بمعارف تاريخيّة وفلسفيّة واجتماعيّة وسياسيّة، يظهر في تأويل المعنى، وفهم مضمراته النسقيّة؛ بعيدًا عن النّظرة السطحيّة للنّص، وبالإضافة إلى دراسة مجالات النظريّة الأدبيّة من معارف، فقد زاد في تحليل ما يكمن في النّص من علوم البيولوجيا، والجغرافيا، والاقتصاد البيئي، وغيرها، وصولًا إلى تحليل الخطاب الماديّ والرمزيّ وتفكيك العلاقات بين البشر والبيئة وإبراز أشكال التجانس والوحدة بين الإنسان في علاقاته الإحيائيّة والكونيّة، كما تركز مبادئ التحليل البيئي على الأنسنة التّي نقلت البيئة من كونها عوامل ماديّة إلى الوحدة الروحيّة؛ يظهر فيها تعلق الإنسان في رومانسيّة حالمة، يرتبط فيها ببيئته كارتباطه بأمه، في زمن تعيش فيه البيئة أزمة أقرب ما تكون إلى الأزمة الوجوديّة إزاء ما ينالها من ظلم إنساني وتحديات مهدّدة لها.

وإنّ فهم المبادئ النّقدية البيئيّة وروافدها الفلسفيّة والدينيّة؛ يُعدّ المختبر الأول في تحليل الحيثيّات الفكريّة التي ينشأ منها السلوك البشري؛ لذا فإنّ الأدب مقوّم رئيسيّ في إدراك الحقيقة البيئيّة، والعوائق المسبّبة لمشكلاتها، ولا سيما في الحقل السرديّ، وإن لم تُصنّف ضمن كتابة الطبيعة، إلا أنّها ضمّت أنساقًا ثقافيّةً، ومعارفًا علميّةً، سبرت أعماق السرد الدرامي بالغموض، والتعقيد الفكري، والعاطفي؛ بهدف تحديد العلاقات الاجتماعيّة والبيئيّة على حد سواء.

تلك العلاقات بُنيت على أساس الموروثات من الأفكار والمعتقدات والخلفيّات الفلسفيّة المختلفة؛ لتتناول اللاوعي الفردي والجماعي المتوارث عن الآباء والأجداد، والمُشبع بالخطاب الدينيّ وما يحمله أصحابه من مفاهيم مخزونة في الذاكرة الاستعاريّة، تنعكس بشكل مباشر وغير مباشر على الفكر والسلوك الجمعي اتجاه البيئة.

من هنا جاءت أهميّة دراسة النّقد البيئي كحقل فرعيّ من النّقد الأدبي والبلاغي؛ يحدّد الخطاب البيئي بتتبّع المبادئ التّي كاشفها النّص الأدبي، بهدف إصدار الحكم النّقدي عليه، وفهم القيم الأخلاقيّة فيه وتقييمها. من خلال دراسة السّمات الفنيّة التّي بلورت المضمرات العرفانيّة والنسقيّة في بناء صرح قيميّ، وإعطاء البيئة دورًا محوريًّا [1] في الحياة لا يقتصر على النّظرة الاستهلاكيّة فقط، ذلك لأنّ السرد الروائي وعاء العلوم وتمازجها الفكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، بالإضافة إلى البيئيّة.

ويستطيع متابع الأدب العربي رصد قليل من الكتابات المرتبطة بالبيئة، أو ما يُعرف بالكتابة البيئيّة، إلا أنّ الأدب العربي يفيض بالممارسات الأدبية البيئيّة من اكتناز ضمني، وتكثيف تصويري لمشاهد الطبيعة.

وبناءً على ما سبق فإنّ الدراسة تروم -في مجالها التطبيقي- تحليل ثلاث روايات عربيّة مختلفة، بهدف تفسير مضمرات المفاهيم المتعلقة بالبيئة من خلال وجهة نسقيّة ثقافيّة في رواية (فئران أمي حصة 2015)، ورؤى ما بعد الاستعمار والرد بالكتابة من وجهة نظر المُستَعمر في رواية (رأيت رام الله 2005)، ثمّ نسويّة أيدولوجيّة بيئيّة في رواية (خشخاش 1997)، وذلك في تطبيق عمليّ لمبادئ النّقد البيئي، بهدف تحديد القيم الموجهة في الخطاب الروائي، وفهم الثيمة الروائيّة بعمقها الفلسفيّ، كما عبّرت عنه، أو أثّرت فيه، الأنساق المجتمعيّة الفكريّة وما لها من سطوة، من خلال تفسير تداعيات الأحداث وبنائها الدراميّ بوعي فنيّ يقود إلى إدراك الخطاب ومغزاه، بالإضافة إلى ما احتواه من تنبؤات مستقبليّة ذات ارتباطات بيئيّة، وهو ما يتّضح في المباحث الثّلاثة الآتية:

أولًا: النّسق البيئيّ مضمرًا ثقافيًّا:

اشتملت الرواية العربيّة على مخزون فكريّ فيه تدوير للتاريخ، وتنبؤ للمستقبل، كما حملت أنساقًا ثقافيّةً عميقة المعنى، تكشف عن فكر الإنسان العربيّ وما في جعبته من مبادئ حول العلاقات الكونيّة، وبالرّغم من تأثره بالفكر الدينيّ الإسلاميّ، فإنّ الموروثات القديمة لا تزال تسيطر على إدراكه ومعاملاته المختلفة؛ وكان للحقيقة الروائيّة دور في الكشف عن ذلك، خاصّة

(1) Donald Worster, «History as Natural History: An Essay on Theory and Method,» Pacific Historical Review, vol. 53, no. 1 (February 1984) , p. 1

المكنون الإنساني كما نقلته الأفعال الدراميّة، وإذا كان الهدف من الكتابة الروائيّة في موضوعها الأساسي محض تخييل للواقع الإنساني، فإنّ ما تنتجه من أحداث دراميّة تحمل أنساقًا مضمرةً تحاكي المنطق والواقع العربي وما يحمله من المبادئ الفكريّة حول البيئة، والعلاقات البشريّة مع البشر أنفسهم، ومع اللابشر.

ومن الروايات العربيّة المكاشفة للأنساق البيئيّة المضمرة والعلاقات الإنسانيّة المرتبطة بالبيئة، رواية (فئران أمي حصة)[1] التّي سردت تجربة إنسانيّة عميقة المحتوى، قدّمت فيها إدارة عقلانيّة ومنطقيّة لما ستؤول له الحالتان الإنسانيّة والبيئيّة؛ إذا ما استمر التناحر والتحارب الفكريّ والعقديّ، فقد كشفت حقيقة الفكر المركزيّ، والانتماءات الإنسانيّة المشوهة؛ بتكثيف مقصود لحالات بيئيّة مختلفة الأشكال، تمثّلت برصد الكاتب للأزمة البيئيّة بمستوى عالي الرؤية، يقع في تسليط الضوء على العلاقات الإنسانيّة والبيئيّة، وتشابك هذه العلاقات وامتزاجها، ولما تفضي له من نتائج يتوقع حدوثها في المستقبل.

فقد مثّل الجيل الثاني المستقبلَ الذي عكس استجاباته كنتاج لصورة معتقدات الجيل الأول، وأفكاره؛ ولا سيما ما جاء فيها على هيئة معتقدات تراتبيّة تدور حول التمايز بأشكاله المختلفة؛ مما يؤدي إلى طرح تساؤلات بيئيّة مهمة حول أساس البيئة، وتمثلاتها في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والفلسفيّة العقديّة،[2] كما قدّمت (فئران أمي حصة) رسالةً تحذيريةً لأعراض أزمة بيئيّة تتفاقم يوميًّا في مجتمع عربي هو مجتمع الكويت، ليكون السؤال: هل (فئران أمي حصة) تفتح جرحًا ممتدًّا في المنطقة العربيّة تُطل منه أزمات عرقيّة وطائفيّة وجنسيّة؟

لقد منح الكاتب فصول الرواية أسماء فئران ضمن قصة خياليّة، طالما وعدت (**الأم حصّة**) بسردها، وبدأت بالفأر شرر الذي مثّل انتشار الفكر الطائفي والعنصري، في تسريب فكري يمتاز بالهدوء والتّدرج، ولكن سرعان ما تحوّلت الشّرارة إلى لظى مستعرة بعد غزو العراق للكويت، الذي فجّر تصريحات الفكر الطائفي؛ ومن هنا ظهر الصراع الفكري في المنطقة؛ لتتسارع الأحداث

---

(1) صدرت عام 2015 للكاتب سعود السنعوسي، ضمن منتج روائي له يكشف فيه عن المجتمع الكويتي اجتماعيًّا، وسياسيًّا، وثقافيًّا، بعد تغير بنيته مع المجتمع بتطور البلاد اقتصاديًا بفضل اكتشاف النفط وهو ما انعكس على سلوك الناس وقيمهم وعاداتهم، راجع: السنعوسي، سعود، (فئران أمي حصة)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط18، 2018.

(2) جرارد، (النقد البيئوي)، ص 29.

كاشفة عن معتقدات مجتمع ظهر في أول الرواية متجانسًا ومتعايشًا ومتقبلًا للآخر؛ ليصبح جمرًا يحوّل كل ما حوله إلى رماد، كما لقبّه الكاتب في الفصل الرّابع من الرّواية، في استعارة بيئيّة حول تنبؤات الأزمة الطائفيّة، التّي ستُحدث الكارثة على الصعيدين الإنساني والبيئي معًا، وعلى اعتبار أنّ البيئة حليفة الإنسان في كلّ مجالات حياته.

وهنا ظهر انعكاس الثيمة الروائيّة على العلاقات الإنسانيّة موضّحة ارتباطها بالبيئة المحيطة بها؛ ومسلّطة الضوء على المكاسب السياسيّة المؤثرة على الحالات الاجتماعيّة والإيديولوجيات التي تكون النسيج الاجتماعي بمختلف فئاته ومذاهبه من جهة، وما ستؤول إليه المكونات البيئيّة والإحيائيّة من جهة أخرى، موظفةً -الثيمة- إستراتيجيّة السرد بطريقة مبتكرة حدّدت سير الأحداث في مسارين منفصلين، يبني الأول أحداثه الدراميّة في سرد الذكريات لفترة الثمانينات من القرن الماضي، أما المسار الثّاني فقد تمثّل في وصف مفصل لتنبؤات يمكن وقوعها في المستقبل، وتجري خلال يوم واحد يعمّ فيه الدّمار والخراب نتيجة التّعصب الطائفيّ والعرقيّ، وقد ظهر في المسارين ارتباط وثيق بين الإنسان وبيئته، في أنساق ثقافيّة تظهر صريحةً تارةً ومضمرةً تارةً أخرى، من أجل الكشف عن قسوة التراتبيّة في المعاملات البشريّة والمؤثرة بدورها على البيئة.

وإنّ ثيمةً بهذا النسيج لهي فضاء شديد الانتساب إلى النّطاق البيئي وما يحتويه من حراك فكريّ متجذّر في المجتمعات -على هذا النحو الذي عبّرت عنه الرواية-؛ لذلك ظهرت الأزمة البيئيّة في (فئران أمي حصة) وثيقة الصلة بالإيديولوجيّات المتعلقة بعلاقة الإنسان بالآخر ومنها علاقته بالطبيعة ومكوناتها، فقد ظهرت جليّة بعد ما مرّت به الكويت من أزمة سياسيّة كبيرة، تمثّلت في الغزو العراقي وما ترتّب عليه من آثار عميقة على الإنسان والبيئة، بل على البيئة بشكل أكثر عمقًا؛ مما أسهم في الكشف عن مضمرات العلاقات الإنسانيّة ومشاعر الفئات المختلفة فيها، فقدّمت الروايةُ الكويتَ بشكلٍ بيئيٍ، وكأنها مدونة من مدونات الطبيعة، إذ عرضت الثيمة السرديّة بطرح مسألة التلوث البيئي المتمثل في نوعين أولهما ماديّ حقيقيّ، مثّل ما ستؤول إليه الطبيعة كضحية لنتاج الصراع الفكريّ، ممثلًا بالدمار والحريق والمرض الوبائيّ كانتشار الطاعون، وثانيهما تلوث معنويّ يصيب النّفوس المريضة التّي تدعو إلى الطائفيّة البغيضة والعنصريّة التّي تنشر الفساد في البلاد، والذي يؤدّي إلى تدمير البيئة الكونيّة وهلاك كلّ ما فيها، لتحقيق غاية فكرية وتزمت عقدي يكاشف حقيقة العداء الطائفي، من خلال توظيف الخيال الفكريّ البيئي الذي يجتاز الزمن الحقيقي، ويتنبأ بالمستقبل عبر إدراك المعطيات التّي شكّلت ذلك الواقع؛ لتسهم تجلّيات الخيال

البيئي في بناء دراميّ يتّسم بالمبالغة والتهويل؛ في محاولة لإيجاد الحل للأزمة البيئيّة الممثّلة في بلورة العلاقات بين الأحياء الكونيّة وأبعادها التواصليّة، وذلك من خلال مسار منطقي مقصود ومكثّف على مستوى الأحداث والأفعال والجمل والتورية الثقافيّة وغيرها؛ مما يقود إلى معطيات فكريّة وقيميّة تصل بالإنسان والبيئة إلى النجاة معًا.

وإنّ ما طرحته الرواية من إيديولوجيّات حول الهويّة العرقيّة والعقديّة، وقضية المرأة، يُصنّف كمحاولة لفهم التكوين البيئيّ والاجتماعيّ والسياسيّ والدينيّ، بل تجاوزه لفهم الذّات الإنسانيّة عبر الأجيال المختلفة، وتحولها من مجتمع مغلق، لمجتمع منفتح فيه التعليم متاح للجميع، ومع انتشار التكنولوجيا، وزيادة حدّة الاستهلاك الاقتصادي بعد إنتاج الثروة النفطيّة، تكونت مضمرات في النّفس الإنسانيّة انطوى عليها تغيير فكري، وتحول اجتماعي، ساهم في بناء نسق ثقافي جماهيري، انعكست آثاره على البيئة ومكوناتها، فسبرتها الرواية بالتمجيد تارة، وبالتكليف تارة أخرى، من خلال رصد أفعال البيئة ومكوناتها كشخصيات ثانوية في الرواية، باتت كأنّها تحقق توجهات نفعيّة وسياسيّة، فقد صاغت الرواية المحكات البيئيّة بأشكال مختلفة مثلّت معايير ثقافيّة -أَلِفَها المُجتمع الكويتي-، ومعايير علميّة بحته، وأخرى جماليّة، ويمكن إجمال هذه المعايير البيئيّة المتعلقة بالمشهد الروائي في عدة مظاهر هي:

الحضور البيئي انسجام تام أو قطيعة آثمة:

إنّ ما قُدّم في رواية (فئران أمي حصة) يمثّل وعيًا بالعلاقات المختلفة؛ ذلك لأنه لم يكتفِ بتحديد العلاقات بالذّات (الأنا والآخر)، بل تجاوزها إلى العالم (الكون والطبيعة والمجتمع والثقافة)[1]، وتجلّت هذه العلاقات مرتبطة بالشخصيات في انسجام وتناغم، إذ اختيرت مسميات الأماكن بأسماء بعناية فائقة -يمكن نعتها بالعناية البيئيّة-، إذ تضمنت الأسماء اسمًا لعضو من أعضاء جسم الإنسان، أو اسمًا لشخصية بارزة، ليمثّل ذلك مكاشفة للإيحاءات المفرطة مبيّنًا الثقافة التّي تنتمي لها هذه المجتمعات، والتّي رسخت العلاقة بين الطبيعة والثقافة بشكل ماديّ وواضح من خلال المسميات المُلقبة بها أسماء الأماكن، فتركت في الذاكرة بصمة خاصة لكل منها،

(1) عز الدين، حسن البنا، (الشعرية والثقافة.. مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم)، ص18.

مثل[1]: (**شارع جمال عبد الناصر/ السّرة/العُمرية/ حديقة الأندلس، مدرسة إشبيلية / صالة شيخان الفارس/ شارع طارق بن زياد/ عبد الوهاب الفارس**،...).

ولكل مكان هيئة وارتباط، وقد اشتهر العرف عند العرب بأنّ التسمية أول ما يحصل عليه الإنسان من الاحترام والهيبة، في جملة ثقافية تحيط صاحبها بالاهتمام، فإن كانت هذه التسميات قد ارتبطت بأسماء ذات عمق تاريخي وتأثير عبّرت عن ولاء الأفراد لمعتقداتهم الخاصة، والمستقاة من هيمنة وسيطرة مؤسساتية، تفرض خطابها الفكري من خلال الإعلان والترويج له.

إن اختيار المسميات والمناطق في الرواية تحدّد مضمرات ثقافيّة وبيئيّة عميقة، سواء أكانت قد اختيرت بوعي أم كانت من دون وعي، فقد ارتبط الفضاء الجغرافي للرواية ارتباطًا وثيقًا بالمشكلة المطروحة، وهي مشكلة بيئيّة تحمل مضمرات عميقة تسبر أغوار الشخصيات بصفات محددة خلال الأجيال، لا تنفك عن بيئتها؛ ففي اختيار منطقة (**السّرة**) الممثل لاسم عضو في الجسد يوحي بالعلاقة الحميمة بين الأم والجنين، الذي لا ينقطع عنها رغم انقطاع الحبل السري عن ولادته، ويبقى أثرها محفورًا في جسده، يُذكره بذلك الحبل، وتلك الصلة، وفي منطقة (**السّرة**) الكويتيّة، تعلّقت قلوب الأصدقاء الثلاثة ومن عاش على أرضها، وارتبطوا بها ارتباط الجنين في أحشاء أمه، تمده بالغذاء والهواء وكل سبل العيش الماديّة، والمعنويّة من دعم وأمان، لتبقى علاقة الارتباط المكانيّ أقوى العلاقات التّي بلورها في روايته رغم اختلاف الأجناس والأعراق والمعتقدات الدينيّة، وذلك في انسجام إنسانيّ بيئيّ عريق وممتد بامتداد الثقافة العربيّة عبر الزمن.

وقد أشار الكاتب إلى مسألة (**السّرة**) في اختيار مقصود، ووعي لوظيفتها التّي يدركها العقل في تحديد العلاقات وكيف تؤول إليه إذا ما نشبت بينها المشاجرات والمشاحنات، فقد قال: "**تمنيت لو أنني أبقيت على قطيعتي مع السرة، خروجًا بلا عودة، كمن انقطع به حبل السرّة.**"[2] وفي هذه الإشارة لرومانسيّة بيئيّة حالمة فيها وعي بطبيعة التسميّة وعلاقتها بالثّقافة، التّي تفرض الانسجام التّام بين الإنسان والمكان الذي ينشأ فيه؛ ففي القطيعة الأبديّة، قطيعة جسديّة ماديّة، أما الحقيقة فإنّ الإنسان لا ينسى ندبة في بطنه تُذكره بأصله ما يحيا، وبهذه الإشارة مضمر بيئي آخر، يفسر علاقة المرأة ورحمها بالأرض وغرسها، في تمازج واندماج، وفي وصف السّرة تمثيل جليّ لها.

---

(1) (فئران أمي حصة)، ص 18/25/26/44/ 90/90/97.

(2) المصدر السابق، ص 29.

كذلك ثمّة علاقة وطيدة بالمسميّات في الرواية وبين الإنسان من جهة، والأماكن من جهة أخرى، تحمل نسقًا ثقافيًّا يعزّز تخليد الاسم للمشاهير، أصحاب الأعمال الخالدة، وتخليد هذه الأسماء الموظفة بيئيًّا، يرتبط بخلود الأرض وبقائها، وهنا تظهر جملة ثقافية بيئيّة مفادها الارتباط والخلود، إذ كانت الاختيارات مُمثلة لمغزى الرواية وثيمتها، مثل تكرار الاسم القوميّ العربيّ (**جمال عبد النّاصر**) كتذكرة لتلك الوحدة العربيّة التي دعا لها في حُكمه، والتّي استقبلها العرب بحفاوة كبيرة، وبالرّغم من هزيمته في الحرب، فإنّ الشعب العربيّ طلب منه عدم التّنحي، أما (**طارق بن زياد**) فهو يمثّل ذاكرة عكسيّة تُعبّر عن الفرقة والانعزال مع كل ما قدّمه من تضحيات وإنجازات، إذ عُزل قبل وفاته، أمّا ذكره (**الأندلس، وإشبيلية**) اللتين ترمزان إلى القمّة في بناء الحضارة، والقمّة في ألم الهزيمة، أنساق بيئيّة مضمرة تشير إلى أنّ الإيهام بالانتصار مجتث من ارتباط الإنسان في المكان، وبتفسيرات التعلق الإنساني بالذاكرة التاريخيّة المكانيّة، وما تحمله من انتصارات، إنما هو نسق يخفي الخسارة، ويلون الانتصارات وما فيها من إنجازات، وكأنّه يوقف الزمن عند آخر ساعة للانتصار، ويشوش بضبابيّة ما تبعها من فشل.

الغموض البيئيّ نسقًا ثقافيًّا:

وهنا تظهر خيارات الكاتب الواعيّة لمسميّات الأماكن التّي تُظهر المفارقة بينها، لتصل إلى (الغموض الايكولوجي)[1] أو الغموض البيئي، المبنيّ على أساس التشويش الفكريّ حول المعتقدات الجَمْعِيَّة والسياسيّة، لغموض المعلومات والاتجاهات وتناقضها؛ مما يحدث عدم التوازن البيئيّ والفكريّ، ففي الوقت الذي يظهر فيه اسم المكان بأنّه ذو قيمة إنتاجيّة وحضاريّة عاليّة، يُذيّله بذاكرة تنتهي بالهزيمة والفشل، مثل حالة الهزيمة سنة 1967م التّي لقّبها جمال عبد النّاصر بالنّكسة، في مراوغة لغوية تخفف تهويل الحدث، وطارق بن زياد الذي خاض -بالإضافة إلى معاركه المنتصرة مع الفرنجة-، معارك مع الخليفة ليكون مصيره العزل والتنكيل، وفي الاسمين الأول والثاني غموض بيئي يشي بنسق ثقافي مفاده الألفة والاتحاد وتقبل الآخر يصنع المجد والانتصار، وأخيرًا ذكره للأندلس التّي شيّد فيها العرب والمسلمون أمجادًا، لا تزال تقبع في أماكنها شامخة، ولكنّها

(1) أهيكا، كاتيجان، (انتزاع الملكية والنقد البيئي، ما بعد الكولونيالي في رواية "العشب يغني" لدوريس ليسنج)، ضمن كتاب (النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص 248.

بسلطة نصرانيّة ومعتقدات صليبيّة قوّضت فيها الرمزيات التاريخيّة، التي وصفت الفاتحين وإنجازاتهم؛ ليبقى ما شيّده الأجداد رمزًا بيئيًّا غير محدد الحضور في ظلّ واقع غربيّ.

كل هذه التّناقضات، والمفارقات في اختيار المسمّيات للأماكن والأشياء، تترك المتلقي في حيرة إزاء ما قدّمته الرواية، هل يحتفي بالإنجازات، أم يحزن لما آلت إليه، لكنّه في مضمر نسقي يقوده إلى تلك الرؤى البيئيّة التّي خلّدت هذه الأحداث وكل نتاجاتها رغم ما كان فيها من فشل وهزيمة، وبالتوقف عند السرد التاريخي للمسميات، سيظهر السبب الذي بدا في صورة متكرّرة عبر التاريخ، يكشف سعي السلطة للهيمنة، والحكم، في فحوى فكر استغلالي تراتبي، يُخضع الشعوب والبيئة وكلَّ مكوناتها ضمن أهداف مؤسّساتيّة، وأطماع سياسيّة، وبهذه القراءة التاريخيّة تصدير لتنبؤ مستقبلي، في حال استمرار الشعوب تبني الثّقافة الفكريّة الموروثة من مجتمعات الأجيال الماضية، من دون تغيير أو تعديل واعٍ لما يجب أن تصبح عليه.

كذلك لم يقتصر تشكّل الغموض البيئي في اختيار مسمّيات الأماكن، بل إنّه تجلى في معاملة الشخصيات للحيوانات في الرواية، وبالرّغم من أنّهم كانوا يتعاملون مع (**الكلب**) بوصفه نجسًا، ويجلب الشّيطان؛ فاستحق الطرد[1]، فإنّهم تعاملوا مع (**السّلق**)[2]، كونه جزءًا من البيت، يستقبل أحبتهم، ويطيل النباح لمن يجهلهم، وتلكم تناقضات أفضت عن الواقع الإنساني في الكويت الذي يعيشه الأجيال في تشويش فكريّ لا يرتكز على مبادئ واضحة، ومنها ما ذكرته الرواية حول العلاقات بين عناصر المجتمع المختلفة التّي شكّلت البيئة الكويتيّة، من جنسيات وطوائف مختلفة، ظهرت بشكل متآلف ومتوافق، إلا أنّ المسحة الباطنيّة للعلاقات تفضي عن تكوين الذّاتيّة الحاملة لأيدولوجيات التميز، فقد حملت الشخصيات ألقابًا نسبةً لبلادهم، مثل: **(التّلاميذ الفلسطينيّون، طارق عثمان فلسطينيّ، جابر المصريّ، مطعم شاكر الباكستانيّ، ...اليمني، ...الهندي..."**[3] وبهذا الغموض النّسقي البيئي الذي يتعامل مع الحيوانات من الجنس

---

(1) (فئران أمي حصة)، ص151-152.

(2) السلق كلب نحيل القامة، عُرف عند العرب القدماء، واستخدموه في الصيد، وقيل إن أصل التسمية قادم من سلالة هو سومرية "salu-ki"التي تُرجمت إلى "الأرض الغاطسة، راجع:"-28-May."International World History Project" 2022- (فئران أمي حصة)، ص 36.

(3) المصدر السابق، ص 92/90/62/ 123...

نفسه بأشكال مختلفة، كما يتعامل مع البشر أيضًا بعنصريّة عرقيّة، يؤكد التحام الإنسان والبيئة في الفكر البشري، على أنهما وجهان لعملة واحدة.

كذلك اختيار أسماء الأفراد في العوائل الكويتيّة بأسماء ممثلة للطائفة، تمثّل فيه الأسماء في العائلة السنّية: **(حصة، صالح، فهد)**، أما العائلة الشيعيّة: **(زينب العر اقيّة، عباس، صادق، أيوب)**، وقد اختلف الزوجان **(فهد السني، وحوراء الشيعية)** في طريقة عقد القران، ثم تسمية المولود؛ إذ قدّم كل منهما اسمًا يعبّر عن الطائفة التّي ينتمي لها؛ ليتّضح اضطراب الخطاب الثّقافي الإنسانيّ رغم العلاقات الوديّة بينهم، ذلك الاضراب الذي ظهر في تسمية الكلب وتبدل الموقف منه، مما يؤكّد تماهي العلاقة مع الطبيعة وضوحًا وغموضًا، في جملة المعاملات المتوارثة في المجتمع.

وثمّة علاقة بين المعاملات الإنسانيّة والطبيعة من خلال الرواية، ويُمكن إبرازها في أنّه كلما ظهرت المعاملات الإنسانيّة المختلفة ودودةً فيما بينها، ظهرت كذلك مع الطبيعة بانسجام وتجانس، جسّدها الكاتب خلال فترة الثمانينات على وجه التّحديد؛ لتتجاوز الانسجام إلى التوحد مع الطبيعة وصولًا إلى الأنسنة، فقد ظهر تعامل **(الأم حصة)** مع النّخلات الثلاث التّي اشتراها لها زوجها **(صالح)**، بألفة ومودة، كما لو أنّها فرد من أفراد الأسرة، وجزء من العائلة، تُسقط عليها صفات الإنسان لأنسنتها بشكل واضح ومتعمد، ومنه قولها: **"لم أكن لأتوقف أمامه لولا أمسكت نخلاته الثلاث عيني، إخلاصة وسعمر انة وبرحية، أو بنات كيفان كما تسميها صاحبة البيت العجوز، نسبة إلى منطقة كيفان التي أحضروا منها النخلات، حيث كانوا يسكنون بيتًا قديمًا، قبل انتقالهم إلى بيتهم هذا. تحاذي بنات كيفان السورفي مساحة صغيرة... وفيما يبدو *إخلاصة* ميتة هي الأخرى، ألمح الأخضر يلوّن سعفًا نابتًا في رأسها. يبدو الأخضر في رأس *إخلاصة* نشازًا ودودًا بين صفرة لحقت ببقية السعف المائل على الجذع..."**[1]

وهنا تكشف معاملات **(الأم حصّة)** عن تحرّر الثقافة المجتمعيّة من علاقة التراتبيّة مع مكونات البيئة، في أفعال مثّلت جوهريّة الفكر الذي ينتج عنه السلوك الإنساني الجمعي، وفق ثقافة بيئية تكمن فيها مضمرات نسقيّة ذات طابع دينيّ وشعبيّ، تعدّاه ليصل إلى ما بعد الأنسنة، بالتوحد مع الطبيعة في ما عكسه الكاتب من صفات، ومعاملات، وأحداث، جرت على النخلات الثلاثة، ذات البيئات المختلفة؛ إذ جاءت النخلة: **(إخلاصة)** من القسيم، و**(برحية)** من البصرة،

---

(1) المصدر السابق، ص31.

(**سعمر انة**) من الأهواز، إلا أنّ غرسها النهائي كان واحدًا، وبالرّغم من تنقّلها عدة مرات من موطنها الأصلي، إلى كيفان، ثم إلى السّرة لتستقر هناك، فإن ما كان من النخلات إلا التعايش مع الحديقة الجديدة بفضل ما قدّمته لها (**الأم حصّة**)، من قبول واهتمام؛ ليظهر نسق الأمومة بوصفه الحاضن الأكبر للدفاع عن البيئة، وقد مثّل الكاتب النموذج السليم للتآلف والتقبل من خلال المكونات البيئية التي تتعامل مع ما حولها بالفطرة الإلهية السليمة.

ورغم أنّ (**الأم حصّة**) صنّفت (**منطقة كيفان**) ونخلاتها أجمل المناطق وأفضل الأشجار، فإنّها أظهرت ولاءً (**للسّرة**) أيضًا، كما ميّزت شجرتها السدر، في قولها: "**كيفان أحلى من السّرة** "، "**يا سدرة العشاق يا حلوة الأوراق**"، "**كونوا مثل بنات كيفان**"[1]، وهنا تتقمص (**الأم حصّة**) شخصيّة السدرة التي احتوت (**البيوت الثلاثة، والأصدقاء الثلاثة، وبنات كيفان الثلاث**)، في بيتهم ذي "**العتبات الثلاث**[2]"، لتقلي "**السمكات الثلاثة**"، الذين يتابعون "**الصحف الثلاثة**" ثم ليتصوّر عبر كاميرا لها "**حامل معدني ذو ثلاثة قوائم**" ؛ ليكون تكرار العدد (ثلاثة) في الرواية مؤكّدًا لوحدة الأشخاص بالأماكن والأشياء، وتوافقهم العدديّ في انسجام تام؛ فما تحمله الرواية من أنساق بيئيّة مضمرة في سرد لبيان النزعة الإنسانيّة الواعية وغير الواعية اتجاه البيئة ومكوناتها من نبات وحيوان، في عقلانية نسقيّة حول الثقافة البيئيّة التي تتوافق مع النزعة الدينيّة الداعية إلى العدالة، والمساواة، والتعايش، ليوفّره المشهد الروائي المتمثّل (**بالأم حصّة**) شخصيّة المرأة القوية، التّي تظهر ما تؤمن به من إيديولوجيات عكست ثقافة المجتمع في الثمانينات، والممثّلة للوحدة القوميّة ونبذ الفرقة العقائديّة، باحتوائها للجميع باختلاف انتماءاتهم، كأم حاضنة لهم، ودعّمت رأيها في ما مثّلته قوة الطبيعة من خلال شجرة سدرة -المتجسّدة لشخصيتها- ، بمشاركتها لفرض الوحدة ونبذ الفرقة والعنصريّة، من خلال مدّها الظّل على كل المنازل ولكل الطوائف من دون تفرقة، تأكيدًا لأهمية دور الطبيعة في تأصيل قيمة القبول والتعادل.

هكذا توحّدت الوظائف والأفكار والمهام بين النخلات الثلاثة أو ما لُقبت به (**بنات كيفان**)، و(**أولاد فؤاده**)[3] الأصدقاء الثلاث **صالح وفهد والراوي**، وبالرّغم من تباين أطيافهم وانتماءاتهم

---

(1)المصدر السابق، ص 44، 54، 74.

(2) المصدر السابق، ص48، 62، 70، 93.

(3) المصدر السابق، ص 31.

العقديّة، فإنّهم أسّسوا لحركة تدعو للوحدة القوميّة ونبذ العنصريّة والطائفيّة. فكان تمثيل التوحد والتماهي الذي تفضي عنه نخلات (**الأم حصة**) مع الإنسان، وباقي الأشجار، مثل شجرة السدرة التّي تصفها "**بالعجوز المائلة**"، والتّي "**تضرب جذورها في عمق الأرض، تنحني تلقي بجزء من ظلالها في بيت فهد، وجزء آخر في بيت صدق المهجور**."[1]وتفضي هذه الإشارات لغموض نسقي بيئي، ذلك لأن الطبيعة صيغتها مؤنثة، وحركة أولاد فؤادة حركة فيها جميع الأعضاء من الرجال، وهنا إشارة إلى الاعتراف الضمني بأهميّة الطبيعة (المرأة) وقوتها وصلابتها، وعمق جذورها الحانية والمتقبلة للأخر رغم الاختلاف؛ لما تحمله من أحاسيس فطريّة، لا يوجد بها شعور بالفوقيّة.

النّسق الثّقافي والوعي البيئي الرومانسيّ:

إنّ أوصاف البيئة الملقّبة بالمؤاخاة وغيرها، التّي أشركها الكاتب في الحياة الإنسانيّة؛ لتظهر بمعاني النّقاء والصفاء والقوة، المتناقضة مع الفكر الإنساني، المركزي، المتسلط، إنّما هو تمجيد الرواية للطبيعة، وما فيها من أخلاق يمكن أن تكون القدوة للإنسان. وبهذه الروح الحالمة، والرومانسيّة النّقية تخرج تطلعات الرؤى البيئيّة من دائرة الانسجام والأنسنة والوحدة، إلى التمجيد والتقدير لما تحمله من صفات معنويّة ونفسيّة وسلوكيّة، تتلاءم والصفات الإنسانيّة في جيل (**الأم حصّة**) في الثمانينات.

ومن أمثلة الانسجام مع الطبيعة في روح رومانسيّة حالمة، وفق أنساق ثقافيّة تجعل البيئة ومكوناتها جزءًا من الحياة الإنسانيّة مثل: "**الكتكوت -لقب الراوي- ديك منتوف الريش لا يجيد الا الصياح الفئران آتية ...أبيض مكسور**"، "**في وداعي زوجها تقول: بودعك يا ليل العذاب بودعك وارحل إلى متن السحاب**"، "**كنت أظننا انسلخنا من محيطنا عن المحيط منذ أزلنا الصور عن الجدران منذ قطعنا كل خيط يربطنا بالماضي**"، "**مستشفى حسن مكي جمعة يتشاءم الناس من لفظ اسمه؛ لأنه يفتك بهم في أجنحته**"، "**ليت استئصال الأورام كلها يتم بالسهولة التي استؤصل فيها ورم حوراء ... بعض الأورام لا يكف نموًا إلا بموت الجسد يقول فهد ليتهم يموتون جميعًا ندفن واحدهم نكاية في مقبرة الآخر ونعيش ونحن ... نبني نعيش..**"، "**يحضر لخبر نظيف ينشره في غد متسخ**"[2]، وبهذه الأمثلة توظيف للألفاظ الخاصّة بالطبيعة في

---

(1) المصدر السابق، ص 32.

(2) ومن أمثلة الانسجام مع الطبيعة كما وردت في رواية (فئران أمي حصة)، ص 380/381/ 383 / 384/ 385/ 387 /387.

سرد حياة الأفراد كجزء من الجملة الثقافيّة النسقيّة البيئيّة لطبيعة رومانسيّة حالمة تشترك مع البشر في مشاعرهم وصفاتهم وأفعالهم.

كذلك من العبارة الثقافيّة المعززة للبيئة كونها حاضنةً رومانسيّة حالمة في الرواية: "**تكاثرت البيوت**"، "**يسدد سبابته نحو وجهي يهز رأسه "هذا ثمركم يا زرع السبخة.. هذا زرعكم يا عيال فؤاده؟ الوذ بصمتي يردف قبل أن يطرق بابه "لوراح فهد دمه.. وضياع عياله في رقبتك**"، "**أسد عليّ، دجاجة مع زوجته!**"، و"**علاقة الدجاج بالفئران**"، "**المجد للظلام**".[1]

لقد أكسبت العبارات السّابقة للبيئة -من خلال الوظيفة البلاغيّة- صفات إنسانيّة، تشترك معه في المهام والمسؤوليّات، فحين تتكاثر البيوت نتيجة تكاثر البشر وازدياد أعدادهم، ثمّة جملة ثقافيّة تحمل مضمرًا بيئيًّا يسلّط الضوء حول مسألة التعداد السكاني والزحف العمراني، معبّرًا عن مشكلة بيئيّة عالميّة، تقع ضمن تنبؤاته المستقبليّة في أحداث يوم واحد في عام 2020م، أي بعد تأليف الرواية بخمس سنوات؛ ليكون وصف البيوت بالتكاثر خطابًا يرمز إلى مسؤوليّة البيئة في فعل الزحف العمراني الذي ترك المنطقة بصورة جديدة لا تشبه نفسها قبل سنوات قليلة. إن اختياره للفظ "**تشبهها**" إنما هو وصف عميق يفي بتغيّر المنطقة؛ لا من الناحيّة الماديّة باتساع رقعة المباني، والبيوت فيها فحسب، إنما بتغيّر محتواها المعنوي فيما تقدّمه من أمان وسكينة؛ فيكشف عن مضمر بيئي يرسخ عمق الانسجام والوحدة فيما آلت إليه البيئة مع الإنسان في المستقبل، فهو يتعامل مع المكونات البيئيّة بوصفها إنسانًا مسؤولًا، تغير بصفاته وأخلاقه مع تغير شكلها، وكأنّها أسر وعائلات مثل ساكنيها تمامًا.

يأتي وصف الأطفال بأنّهم "**زرع السّبخة**"، بما يدلّ على فساد المنتج الزراعي، أيّ فساد الجيل، وهي إن كانت إشارة إلى أهميّة الأرض أو الغرس التّي ينتمي لها الطفل أو الزرع، فإنّها من زاوية بيئيّة تبدو كأنّها التحام للفكر البيئي بالإنسان، وبالمرأة خاصّة، تلك التّي يعُدها المجتمع أرضًا إن صلحت صلح غرسها، وإن فسدت فسد غرسها، وفي هذه الإشارة تشابه متكرّر يعود على أساس ارتباط صفات المرأة بصفات البيئة، وعلاقتها الوطيدة بها، وهي فكرة بيئيّة عالجتها الفنون والآداب، وأخذت مساحة كبيرة في النظريّة البيئيّة، وهو ما تأكد مع وصف النخلات الثلاث (**ببنات كيفان**)، نسبة إلى (**منطقة كيفان**) التي نشأت فيها، بالرّغم من اختلاف الأماكن التي جاءت منها، إلّا أنّ (**الأم**

---

(1) المصدر السابق، ص 28، 45،44،63، 54، 74، 85.

حصّة) تُقر بأخوتها؛ أي نخلات القصيميّة، والبصريّة، والأهوازيّة؛ لتعزز النخلات وتعطيها قيمة خالدة، وتجعلها قدوة لما مثّلته من وحدة وأخوة وتعاون، في وصف يصل إلى حد الكمال، في قيمة بيئيّة أخلاقيّة، يمكن أن تكشف للإنسان رؤى عامة في المعاملات والعلاقات. وهنا يظهر مضمر ثقافي شديد الأهمية يكشف دور المسؤول (المؤسسة) في تحقيق العدل الذي ينعكس على المجتمع بالتقبل والتعايش الذي نجحت به الأم حصة وفشلت به المؤسسة.

الجدل البيئي وغلبة الروحي على المادي:

لطالما كان المعنى صاحب القيمة الأولى في العمل الأدبي، وهو ما أولته النظريّة البيئيّة أهميّة كبرى باعتبار الأدب باب الثّقافة ومفتاحها، فقد قدّمت الفلسفات القديمة ثنائيّة اللّغة والفكرة بأهميّة كبيرة، كما دعا العرب قديمًا للموازنة بين اللّفظ والمعنى، وأولى الجاحظ أهميّة للمواءمة بين اللّفظ والمعنى، في وصف يتماس مع علاقة الجسد بالروح[1]، وفي هذا التّعبير مستوى كونيّ يحمل منظور للمجالين الاجتماعي والقيمي، اللّذين قدّما منظومة أدبيّة تُعني بالسّؤال الأخلاقي الذي تجاوز الحدود الإنسانيّة، ليصل إلى الحدود الكونيّة، بتمثل العلاقات الإحيائيّة والبيئيّة.

وليس مستغربًا أن يقع التركيز على المعنى الروحي وتغليبه على المادي في عرض البيئة في رواية (فئران أمي حصة)، بعد ما قدّمه الكاتب من انسجام وأنسنة مع البيئة؛ إذ جاءت اختياراته للألفاظ مرنة وموحية، ومناسبة لمضمون العبارات المجازيّة متعدّدة المعاني.

فقد بدأت فصول الرواية بعنونة لاسم الفأر الذي يّمثل السير الدرامي للسّرد، مقرونًا بأبيات شعريّة مختارة مثّلت المستقبل، الذي تنبأ به الكاتب في الرواية، والتّي بدأت بالشرار فاللظى، وصولًا إلى الجمر؛ لتنتهي بنهاية سوداويّة فيها تهويل خطابي يعظّم المشكلة في محاولة لوضع حلٍّ مناسبٍ لها فيصبح الجمر رمادًا.

---

(1)راجع: الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، ص18، وعباس، إحسان، (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4، 1983، ص25 جمعي، الأخضر، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب)، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق - 2001، ص62، ص39، والجاحظ، (رسائل الجاحظ) تحقيق محمد طه الحاجري، وياول كراوس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1943م، ص100، والدينوري، ابن قتيبة، (الشعر والشعراء)، ج1، دار الحديث، القاهرة 1423هـ، ص69/67/65، وقدامة بن جعفر، (نقد الشعر)، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط1، 1302هـ، ص55. والمرزوقي، (شرح المقدمة الأدبية على ديوان الحماسة لأبي تمام)، تحقيق ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج، ص35.

كما قدّمت الرواية سلسلة من الثيمات المرتبطة بانتشار الفئران[1]، وما قد تتسبب به من أذى ودمار، على نحو مربك للمتلقي في بداية قراءته للأحداث، وبالرّغم من أنّ الكاتب آثر الوضوح في أجزاء الرواية الممثلة لذكريات الثمانينيات، فإنّ أحداث الرواية حملت العديد من المضمرات البيئيّة التّي مثّلتها الثيمة السرديّة، عاكسةً للثّقافة والإيديولوجيات المُنشأة للأحداث، في مفارقات[2] وظّف الفئران في بناء الأحداث بفانتازيا درامية، وتخيلات مستقبليّة، تفضي بانتشار مرض الطاعون، لا على المستوى الحقيقي والمادي المتمثّل بالحالة المرضيّة وحسب، بل على المستوى المعنوي بانتشار التطرف الفكري والطائفي سريعي الانتشار كسرعة انتشار العدوى، والمدمر للبلاد، على المستويين الإنساني والبيئي، بقتل النّاس والمكان معًا، وبيّن وجع الكويت التاريخي بذكريات انتشار مرض الطاعون وألم ما سبّبه من كارثة بيئيّة في الكويت عام 1831م، إلى أفلام الكرتون التّي تعكس العنف والكراهيّة بين توم وجيري، مرورًا بالتناص مع مسلسل شعبي بعنوان: (**على الدنيا السلام**) الذي تكرّرت فيه عبارة المريضة العقليّة، ومعلمة التاريخ فؤاده: **"أنا التاريخ كله، وأحذركم من الآن؛ الفئران آتية، احموا النّاس من الطاعون"**[3]والتّي افتتح الكاتب روايته بها.

كذلك فإنّ التصنيفات الموظّفة للفئران مثّلت استعارات مختلفة؛ تعكس تراثًا محفورًا في التاريخ والذاكرة الكويتيّة والعربيّة، إذ تحمل الفئران نسقًا أنثروبولوجيًا ثقافيًا وشعبيًا، يُمثل نسق الفساد والشيطنة، ضمن أيدولوجيات فكريّة عميقة، تؤمن بحكُم الشيطان للعالم السفلي ومحاولة التحكّم في العالم العلوي؛ لذلك ظهرت الاستجابات البيئيّة في الرواية، بهدف توضيح بؤر السّياق البيئي وما يمكن أن يؤول إليه، من دمار وتخريب، بالإضافة إلى استمرار الممارسات الاستهلاكيّة، أو المركزيّة، أو التراتبيّة، التّي قد تنبئ بانتشار طاعون جديد ووباء من نوع فكري لا

---

(1) تبلورت الرواية الأسطورية للوباء خلال القرن الخامس قبل الميلاد؛ إذ كتب سوفوكليس مسرحية بعنوان: "أوديب ملكا"، سلطت الضوء على كفاح البطل لمقاومة مرض الطاعون، والبحث في أسباب تفشيه في المدينة، التي أصاب أهلها وأهلكهم؛ ليكتشف أخيرًا أن سبب الوباء هو فساد الحاكم، ثم أصبحت أساطير الأوبئة محط الاهتمام في السردي اليوناني القديمة، الذي قدّس البطل المنجد للمدينة؛ مثل تقديسه لشخصية كالشاس الأسطورية، الذي سبب انتشار وباء الطاعون.راجع: أليكسي، لوسيف، (فلسفة الأسطورة)، ترجمة: منذر حلوم، دار الحوار للنشر، ط1، اللاذقية، ص112.

(2) (فئران أمي حصة)، ص 91.

(3) المصدر السابق، ص7.

جسدي، سيُحول البلاد إلى رماد، وهنا ربط الكاتب انتشار الفئران بانتشار التّطرف والطائفيّة، موظفًا أدوات الطبيعة وعناصرها في رمزيّة بيئيّة بيد الراوي بهدف الكشف عن الفساد.

وبتتبّع فصول الرواية يظهر توظيف الكاتب لمقدّمات شعريّة مختارة لكل فصل من الفصول الأربعة سمّاها باسم الفئران، التّي حملت على كاهلها "الهم البيئي المضمر"[1] :

الفأر الأول	الفأر الثاني	الفأر الثالث	الفأر الرابع
(شَرَرْ)	(لَظى)	(جَمْر)	(رَماد)
"لا تقدح شرارًا لا تكشف سرًا فتثير زوابع ليس لها حدُّ والراحة تحت يديكَ ولديك المجدُ والحكمة في ظل الصمتِ والأمل المنشود... لدى الموتِ".[2]	"في فمي جرأة الماءِ تَنمو تَزيدْ وعلى جانبيَّ لَظى الناريصرخُ هل مِنْ مزيدْ نحنُ والصَّخرُ كُنَّا الوقودْ نحنُ والصَّخرُ نبقى الوقودْ".[3]	"سيصيرُ الرملُ جمرًا ويصيرُ البحرُ نارًا"[4]	"كُلُّهم سَفَلَة القتيلُ ومَنْ.. قَتَلَه يدَّعونَ.. بأنَّهمُ.. يحمِلونَ الصليبَ إلى "الجُلْجُلَهْ" وهُم.. يحرقون العروقَ إذا.. برعمَت.. سُنبلهْ".[5]

فقد استشهد الكاتب في روايته بمقدمات شعريّة تُعبّر عن اسم الفأر الذي اختاره لكل فصل؛ مسْقِطًا على الأشعار المعنى الروحي لعناصر البيئة، التي ربطها بالممارسات الإنسانيّة، وكأنّها جزء من الشخصيّات التي تمثّل الرواية، فقد وظّف في الأبيات الأولى الفأر **(شرر)** كجنود تساعد على قدح الشرر وكشف الأسرار النفسية الكامنة في أنفس الشخصيات المختلفة في الرواية، وفي المقابل جعل الحكمة تكمن في ظل السّكوت، والصمت، وعدم المشاركة في مثل هذه المناقشات الطائفيّة، التّي تؤدّي بالبلاد إلى الدّمار والفرقة والحرب، وكأن هذه الحكمة تحتمي بظل الصمت، وهنا تجسيد لكلا العنصرين؛ الزوابع وشجرة الصمت؛ لتتقاطع العلاقة الإنسانيّة بالطبيعة في

(1) جرارد، (النقد البيئوي)، ص25.

(2) شعر أحمد مشاري العدواني، المصدر السابق، ص15.

(3) شعر خليفة الوقيان، المصدر السابق، ص149.

(4) شعر سعاد الصباح، المصدر السابق، ص265.

(5) شعر علي السبتي، المصدر السابق، ص 403.

روافد مختلفة الصّلات، تمثّل فيه الطبيعة نسقًا بيئيًّا يفضي بكونها الداعم للإنسان في عمله الخيري وغير الخيري، فهي مسخّرة له، ستنجو بنجاته، وتحترق إذا ما احترق.

أما في الفصل الثاني كان الفأر (**لظى**) قد تكوّنت نيرانه المستعرة، بتحريض مشترك من الإنسان الذي وصفه بـ: (نحن)، والصَّخر، ودمج الشخصيات مع الصخور بتوظيف ضمير المتكلم، ليكونا معًا الوقود، مؤكّدًا اللُّحمة بين الطّرفين قديمًا ومستقبلًا، وهنا إشارة ضابطة للعلاقات الإحيائيّة في الرواية؛ ففي الوقت الذي تجنّدت الزوابع للإنسان في الفصل الأول في خضوع تام لرأيه، تعمل كتابع يُحركها القائد المسيطر، في إشارة للقوى المؤسساتيّة الخفيّة، كما تظهر الصّخور في الفصل الثاني متجاورة ومتوافقة مع الإنسان في دلالات مضمرة تشير إلى التّبدل المجتمعي في ممارساته الفكريّة والعمليّة، إذ يقف على عتبات الماضي مبرهنًا استمرار العهد بينه وبين الصخور في المستقبل للعمل سويًّا، هذا التّوحّد بين الإنسان والصخر -أي بين الإنسان والبيئة- يُشير إلى أنّ مصير الإنسان مرهون بمصير البيئة لا محال، أما اللّظى فهم من يتغذّى عليهما معًا؛ لذا ثمّة خطر يطيح بهما إن لم يدعا أو يدعما جرأة الماء في الفم كي تطفئ اللّظى.

ذلك أنّ اللّظى الذي سينتج عنه في المستقبل- الفصل الثالث- تُحوّل الرمل جمرًا، وتُحول البحر نارًا، موظّفًا الكاتب أسلوب الاستقبال، في مكاشفة للحراك الإنساني البيئي المشترك في هدر الموارد الطبيعية، وهنا ينوع الكاتب في اختيار الموارد الطبيعيّة، المتآمرة معه باتحاد وأنسنة لممارسات ببيئيّة إنسانيّة مشتركة ستصل إلى هلاك السنبلة وحرقها قبل إنباتها في مضمر نسقي فيه توحيد مصير الطبيعة مع الإنسان، بالإشارة إلى السنبلة التي ترمز إلى الجيل الجديد.

لقد ربطت المقدمات في بداية الفصول البناء الدرامي لتداعيات السرد، وفق رؤية الكاتب التّي تعمد إلى تهويل الخطاب البيئي، ليسلّط الضوء على ارتباط الأزمة البيئيّة مع المشكلات الإنسانيّة الفكريّة والعقديّة، ومشاركة الطبيعة بتفاقم الأزمة وتطورها، فقد بينة ثيمة الرواية التراتبيّة البيئيّة بين عناصر الطبيعة، لتُبيّن استغلال القوي للضعيف في مضمرات ثقافيّة، تصل إلى الفكرة الجمعيّة التّي سادت المجتمع، بأنّ الأساس في الحياة هو السيطرة والهيمنة للقوي، وأنّ حب القادة يتمركز على السلطة، يوازيه حب العامّة للتبعيّة، وكأنّهما علامتان أصيلتان؛ لذا كان من الواجب النّظر بهما في حكمة ومعرفة حياديّة بعيدة عن الموروثات الفكريّة.

وفي المقطع الأخير، إشارة واضحة للبعد الديني الذي يتصل اتصالًا وثيقًا بالسياسة، والحكم مستفيدًا من الأبيات الشعريّة في إرداف الأزمة البيئيّة لجميع مكوناتها الحية وغير الحية، مشيرًا إلى القوى البيئيّة العظمى وهي: الأرض (الرمل)، والماء (البحر)، والهواء (الزوابع)، والنّار.

كما استفاد الكاتب من الاختلاف بين المكونات البيئيّة الموظفة في الشعر، وطرق تبعيّتها ومشاركتها للممارسات الإنسانيّة، في مكاشفة للاختلاف في كل ثنايا الرواية، وبين الشخصيات فيها، وبالرغم من الاختلافات في المجتمع، فإن العادات تتشابه في ثقافات اجتماعية مختلفة، ومتنوعة، سلط الكاتب الضوء عليها في السرد الدرامي لحياة الشخصيّات، وطرق معاملاتهم، موظفًا العبارات السائرة التّي تداولها بين الناس في مجتمعهم؛ ليفصح عن مضمرات المخزون في الذاكرة الاستعماريّة لدى تلك المجتمعات، وليؤكّد وجود نوافذ لحل الأزمة الطائفيّة البيئيّة، باستغلال موارد التشابه الثقافيّة والعرفيّة رغم الاختلاف العقدي، ومن ذلك العادات في المأكل والمشرب والمعاملات، وغيرها.

ومن ذلك ما قدّمه الخطاب الروائي من معاملة متوازية مع الطبيعة وكل مكوناتها، وخاصّة الحيوانات التّي تعيش فيها، وما برز من التآلف مع النباتات التّي أحاطت بكل الفئات المجتمعيّة، إذ بيّنت الرؤية الخطابيّة التّي تعكس الأيديولوجيّة الثقافيّة المتشابهة للشخصيّات، من خلال الصياغة والتراكيب والأساليب الكلاميّة الموظفة سواء أكانت في الحوار، أم في الألقاب، والمعاملات، بالإضافة إلى السّلوك البيئي المشترك، ومن ذلك المفاهيم المتداولة حول الشيطان، والسحر[1]: "**سكنهم مساكنهم**"، كذلك قصّة المقص: "**فصرخت به جدّته تأمره أن يكفّ عن جلب الشؤم والمشاكل إلى بيتها، بإشارة إلى أشياء تستدعي قوى الشر وتمكنه**، "، وقلب الأحذية، وغيرها...

ولما كانت تلك سلوكيّات مشتركة بين أفراد المجتمع، تركت في المضمر الثّقافي موروثات تفضي بمشاعر الخوف من المكونات البيئيّة المختلفة، في خوف جماعيّ، أو جماهيريّ، يسيطر على المجتمع كاملًا، بأفكار أسطورية مرعبة، تؤمن بالقوى الشريرة أو إن صح المعنى الخارقة؛ وهنا يتجلّى خطاب سلطوي يهيمن على الفكر العام للناس، ممتلئ بالخرافات الوهمية، التي تثير الفزع، وهذه الإشارات

(1) المصدر السابق، ص65،76، 61، 78، 89...

الرمزيّة المكثّفة والمتكررة في الرواية، تحدد القيم التّي يؤمن بها الناس، بملامح نسق صناعة الطاغيّة[1] المسيطر لا على عقول الناس فحسب، بل على تصرفاتهم أيضًا.

ومن الموضوعات التي ربطت البيئة بالروحانيّة حوار الشخصيات حول الزعتر: **"استأنفت سيرها إلى المطبخ تنصح بأن نأكل الكثير من الزعتر لنصبح أذكياء مثل الفلسطينيين، ولنحصل على تقدير "منتاز!" ...، أسطورة الزعتر لم نجد مبررًا مقنعًا لتفوق التلاميذ الفلسطينيين ..."**.[2] وهنا يُنصح بتناول الزعتر، فيظهر نسق بيئي ارتبط بصورة الفلسطيني الذكي المربوطة بصورة الأرض ونباتها؛ لأن الأرض هي التي تمنحه صفات الذكاء، وفي نسق البطولة، الممثل في أسطرة الشخصيات وتمجيدها بمبالغات عالية، ضمن فكر جماهيري ترسّخ وفق أسباب مطلقة وعموميّة، يشترك بإقرارها جميع الطوائف في الكويت.

وبهذه الأمثلة وغيرها قدّمت الرواية تركيزًا جليًّا على المعاني الروحيّة للبيئة، وإشراكها بالأحداث الدراميّة بشكل تبدو فيه ملامح الوحدة والأنسنة من جهة كما كان مع (أخوات كيفان)، والفساد والشيطنة كما عكستها الفئران الأربعة من جهة أخرى، في تفسير مضمر لما يحمله المجتمع من روافد فكريّة وأيدولوجيّة مشتركة.

عمق المعنى الفلسفي للرمز البيئي:

لقد قدّمت الرواية توجهات فكريّة عميقة، بل مبالغ فيها؛ لتصل إلى مرحلة تشويه البنية الاجتماعيّة، بفعل الفكر العنصري، مستشهدة بالتاريخ المربك لنماذج الدول المشابهة، وما آلت له المجتمعات والبيئات المختلفة.

وهنا يتجاوز الخيال السردي الواقع، ويتعمق في فلسفة الفكر البشري مستفيدًا منه في وضع المتلقي بحالة اختيار في مفترق طرق بين الخير والشر للشي نفسه، كما ضرب الأمثلة على نماذج لسرد موقف واحد لعدد من الشخصيات؛ ليتضح فيه التنافر والتضارب الفكري والعقائدي، في تحديد معطيات السرد باختلاف بؤرة السارد. مثل: **غزو العراق/ الحرب الإيرانية...**

---

(1) راجع: الغذامي، عبد الله، (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، ص 190.

(2) (فئران أمي حصة)، ص92.

بالإضافة إلى ذلك، ظهر دور التوجيه المؤسسي، وفلسفاته الفكريّة وانتماءاته، موجهةً للشخصيات بتوظيف أسلوب خطابي جمعي، مُحمّل بالمضمرات الثقافيّة البيئيّة التي تتوافق مع انتماءات كل فرقة أو حزب سياسي وديني.

ومما يدعو للتأمل في الرواية الإصرار على بيان الانسجام الإنساني والبيئي في الخير والشر، في تناغم عميق مع البيئة، فهي تذكر علاقة المجتمع الكويتي بالقرد وما يحمله من معاني فلسفيّة تتجاوز الفهم الحقيقي بانتمائه الحيواني ليتعداها إلى المعتقدات الفكريّة العلميّة والدينيّة، سواء أكانت مشتركة بين الطوائف أم كانت مختلفة: "... **أسأله هل الإنسان في أصله فرد، أم القرد في أصله إنسان؟ تجحظ عيناه أكثر. أتبرأ من سؤالي: جارتنا أمي حصة تقول إن القرد كان في الأصل إنسانًا!، " أمي حصة لا تحب القرود. لا ترى فيها إلا مسوخ بشر طالهم سخط من الله...امرأة مسحت مؤخرة ابنها ...برغيف خبز عاقبها الله بأن مسخها في صورة قرد، كل القرود في أصلها إنسان رفس النعمة."** [1]

وبهذه التصريحات الموجهة من الأم حصّة طرح لقضيّة مهمّة وشائكة، ففي الوقت الذي ترى فيه أنّ أصل المسخ هو نكران النّعم، وأنّ اليهود من المسخ، من دون علم منها بنظريّة داروين حول أصل الإنسان؛ مما أدى إلى تشويش فكريّ عند الأطفال، الذين لا يستطيعون الجمع بين هذه المعلومات أو التوفيق بينها؛ لينشأ جيل مبنيّ على التناقضات والتشويش وعدم الوضوح، بالإضافة إلى التحام الحالة الإنسانيّة بما يقدّمه للطبيعة، فالحمد على النّعم من أهم الفلسفات الفكريّة في المجتمع العربي، والنّعم كثيرة ومتعددة ومن أهمها البيئة ومكوناتها.

ومن أهمّ ما جاء في مشهديّة الرواية من مكاشفات لمضمرات فلسفيّة وفكريّة جمعيّة، ومؤسساتيّة، ما علّق عليه أصحاب فؤادة على المؤتمر بسخرية وتهكم، الذي اتّهم فيه أعمال التخريب من مندسين[2]: "**تبادلنا مع الحضور الشتم والضرب / كانت ليلة وحده وطنية بامتياز**"، وهنا تظهر الفلسفة الفكريّة التّي ينتمي لها المجتمع بمختلف أطيافه وهي صعوبة الاعتراف بالحقيقة، وإخفائها قدر المستطاع، في محاولة لتحسين الشكل العام للبلاد، في البحث

(1) المصدر السابق، ص 38، 69.

(2)المصدر السابق، ص391

عن عامل خارجي يُتّهم بالأسباب التّي أدت لأيّ فشل، أو فرقة أو دمار. وإن هذه الفلسفة الشائعة في الفكر العربي بأسره، وفق عقيدة جمعيّة.

وفي مثال آخر، ظهر في شرح الحصار المطوق لمنطقة كيفان بسبعة شوارع، مثّلت أسماؤها أهم الدول العربية، في مضمر بيئي يفضي بأنّ المسلمين جسد واحد؛ إن اشتكى منه عضو تأذت وتألمت بقيتها، وإنّه بهذا الاختيار للمسمّيات يؤكّد فلسفة الفكر العربي التّي تدعو إلى الوحدة المكانيّة والبشريّة، كما رُسّخت في الذاكرة الدينيّة والتاريخيّة، في تلاحم بشري بيئي جاء في الرواية على نحو: **"شارع دمشق يطفح بمياه المجاري، شارع القاهرة مظاهرة سلمية، شارع تونس النار المشتعلة، شارع طرابلس بين مسلحين وعناصر أمن شارع بغداد تحت سيطرة المتمردين شارع المسجد الأقصى مغلق بدون أسباب انفجار عبوة في شارع صنعاء، كلها شوارع تحيط كيفان، يعلن كيفان منطقة منكوبة، وأهلها بين مسجون وقتيل[1]"**. وهنا مشاركة البيئة بكل المعطيات الفكرية التي ينعكس أثرها لا على الإنسان فحسب، بل على المكان الذي يسكنه أيضًا.

إلا أنّ مسعى الكاتب بإيجاد الحلول للأزمة البيئيّة، جعله يقدّم عددًا من الفِكَر المشتركة بين جميع الأطراف محاولًا غضّ البصر عمّا أسهم به الوباء الفكري الطاعون المنتشر في ثقافة جماهيريّة جمعيّة، في محاولة لمقاومتها ومنها طلب التنظيف وإزالة القمامة من الشوارع بعد هروب العمال فترة الاحتلال العراقي،[2]وتكمن المضامين بضرورة رؤية الوباء والعمل على إزالة أسبابه وإلا تفشّى وانتشر، ونال أذاه الجميع، وهنا دعوة من الكاتب إلى التسامح وتقبل الآخر في البحث عن الجوانب المشتركة بين الطرفين، مستشهدًا في معطيات بيئيّة كنموذج يمكن الاستفادة منها والاحتذاء به، كعامل مساعد وأداة حية للإقناع، يتكئ عليه منذ بداية الروايّة حتّى نهايتها.

كذلك توظيفه مجموعة من الألفاظ في مجالين متناقضين، ليشّكل مسارًا فكريًّا جديدًا، تتحرّر فيه من قيود المعنى المعجمي، في محاولة مضمرة بنزع الفكر السلبي والعنصري من الفكر الشعبي، واستبداله بما هو خير للجميع، مبيّنا إمكانيّة التغيّر، وإنّ الشخص هو المسؤول الأول عن قراره ورأيه، حتى لو أحاطت به الفلسفات والموروثات ممن يحيطون به، وكأنّه يقدّم الحل للأزمة البيئيّة

(1) المصدر السابق، ص394

(2) المصدر السابق، ص 104.

والطائفيّة، بعد أن قدّم حلًّا فعليًّا من خلال نموذجين، مثّل النموذج الأول نموذجًا إنسانيًا، قدّمته جماعة فؤادة، أما النموذج الثاني كانت بإسهامات بيئية مثلتها نخلات كيفان.

وإنّ هذا التوظيف للكلمة الواحدة بمعانٍ متباينة؛ بمظهرين الإيجابيّ والسلبيّ في الوقت نفسه، إنما يشير إلى خطورة ما يفكّر به الإنسان من تناقضات أيدولوجيّة وثقافيّة حول الشيء نفسه، فقد جاءت كلمة (**انفجار**[1]) في الرواية للتّعبير عن الانفجار العاطفي مثل سيلاني الدموع بكثافة، ووصف الانفجار النّفسي الذي أصاب بعض الشخصيّات بالاكتئاب عند خروجهم عن دورهم، أو لما يمرّون به من أحداث وصراعات قاسية، وبالمقابل عبرت الكلمة ذاتها (الانفجار) عن الانفجارات الحربية بالعبوات الناسفة والمفرقعات وغيرها خلال المعركة الطائفيّة، كذلك التفجيرات إثر حرق بئر النّفط، فكانت كلمة الانفجار تعبيرًا بيئيّ الوجهة، إذ ارتبط بالبيئة في كلا الشكلين الإيجابي المتمثل بوصف المشاعر الإنسانيّة وحالته النفسية والمعنوية، أما الوجهة السلبيّة أو الماديّة مثّلت دمار البيئة المرافق لدمار الإنسان.

أما كلمة (**أنابيب**[2]) فقد آثر الكاتب توظيفها لبيان وتوضيح ما تحمله من علاقة تربط بين البيئة والإنسان، بدءًا من الأنابيب الخاصة باستخراج النفط من باطن الأرض؛ فتتسبب بانزعاج الحيوانات وطردها من بيئتها وتشردها، إلى تلك الأنابيب التّي تدخل باطن الإنسان وأعماقه، إذا ما تعرض إلى الخطر والمرض بحجة العلاج فتخترق جهازه التنفسي أو جهازه الهضمي وغيرها من أجهزة جسمه، وهنا يصل الكاتب في وعي متعمد ومقصود إلى أنّ ما يعانيها الإنسان إنّما هو نفسه ما تعانيه البيئة، وهنا تجسيد واضح لمعنى الأنسنة بفكر فلسفي جديد الشكل والصورة، إذ جعل رمزية التشابه بين البيئة الإنسانية عامة، لا للمرأة فقط كما تعارف عليه بين العامّة، وبهذا الوصف تكون الرواية قدمت البيئة بأشكال جديدة ومنوعة، ومن الأمثلة أيضًا كلمة (**أسلاك**) التي عبّرت عن الحواجز الحربيّة التي تفرّق بين الناس، وأسلاك الهاتف التي تمثل الطريقة الحديثة للتواصل بينهم.

كما قدّم كلمة (**الحجارة**) لتعبر عن معاني عميقة، في السلم والحرب، فهي سبب الدمار والموت وهي سبب المقاومة والحياة، في تناقضات كبيرة، ومفارقات فكريّة تجعل الشيء نفسه يقدم

---

(1)المصدر السابق، ص 116،114،112،107،97،86،81،78،11.

(2) المصدر السابق، ص 24.

الخير والشر في الوقت نفسه "**أزيل قطع الزجاج الكبيرة، الزجاج الأمامي للسيارة متماسك كان رغم تهشمه، أترجل أبحث عن حجر أزيل بواسطته الزجاج، في هذا الوطن، في هذا الوقت الحجارة هي أسهل ما يمكن العثور عليه لا يخلف الهدم إلا حجارة لا تصلح للبناء حجارة كبيرة، أو صغيرة كتلك التي جمعناها صغارًا في الألعاب الشعبية: عنبر، أو التي ننتقيها بعناية لتليق برأسي يهودي، عندما تقمصنا دور أطفال الحجارة الفلسطينيين... وبتلقين من أمي حصة كانت إسرائيل تلقى كره جمعي.**"[1]

كذلك تكررت (**الباب الحديدي**) بنعته للباب في كل مرة بأنه حديدي، في كل فصول الرواية يؤكد مبدأً ثقافيًّا ارتبط بالحديد الذي يمثل المنعة، والحماية، والقوة؛ فهو لا يكتفي بذكر الباب، بل ينعته بالحديدي؛ لكي يبث روح الطمأنينة بين الشخصيات؛ لتعيدها إلى أهميّة الحديد، فقد ذكر في القرآن للدفاع والحماية، وهنا تضافر واضح للبيئة مع الإنسان، وتقديم الدعم له.

إنّ ما قدّمته الرواية من محكّات فلسفيّة تبيّن الفكر الإنساني بأنواعه المختلفة، المتحول عبر الزمن، باختلاف القيم وتغيرها، مثل الصفة التي اشتهر بها العرب قديمًا من شهامة ونخوة، تُظهر الرواية تغيّر في الثّقافي الجمعيّة في الموقف الذي جسده "**باجتماع الناس حول ضحايا شجارات، أو الحوادث بدافع الفضول، أو المساعدة، أو التصوير بواسطة الكاميرات الهواتف المحمولة**"[2]، كان هذا الفضول بدافع الاستفادة من نشر الإخبار في سبق صحفي، لفكر يمكن وصفه بالهوس الإلكتروني والرقمي، وكان في ذلك حليفُ للطائر الأسود الذي حلّق فوق الجثث ليقتاد منها، فهو يعيش بموت الناس، وبهذه المفارقات التي تظهر في الرواية، توحي بمضمرات بيئية عميقة الصلة بالفكر الإنساني العربي، بأن البيئة مثل الإنسان تتصف بصفاته، وتعمل عمله، وتشترك معه بكل ما يقدّم. "**أرفع رأسي للسماء الخالية إلى من الشمس وتباع الجيف نذير الشؤم الأسود يحوم مثل موت مؤجل يفرد جناحيه الكبيرين يحلق عاليا يتحرى أسباب نزوله قبل أن يحط على الأرض بجسد العقاب وراس البومة ولون الغراب يستمد حياته من موت الآخرين**

(1) المصدر السابق، ص 19.

(2) المصدر السابق، ص 87.

التفت حولي الناس تجادل عرباتك أبقار السو اقين شي يعجب رؤيتهم عما حولهم لا ينظرون إلى شيء سوى الإمام"[1]

إنّ اختيار الألفاظ بمسمى واحد وتفعيلها بعدد من الأدوار، بين استخدامات للخير وأخرى للشر، لم يكن اختيارًا عشوائيًا، بل إنّه مراوغة لغويّة وبلاغيّة تحفر في ذاكرة المتلقي مضمرات جديدة، مفادها التنبه لقيمة الاختيار في علاقته بالفضاء البيئي الذي تجري عليه الأحداث، كما رسّخه الكاتب باختيارات تؤكّد أنسنة الطبيعة؛ حتى باتت تمثّل التّساوي والعدالة، لا في المعاملات فحسب، بل في اللّوم والجزاء، وبالرغم من أنّ المسؤول الأول عن هذه الاختيارات التي تبعت المشهد الدرامي هي خيارات إنسانيّة، فإنّ هذا دليل على أنّ الرواية تُشرك الطبيعة المُشكل الفكري الإنساني وما يترتب عليه من نتائج.

فقد قدّم السنعوسي رواية فيها تمجيد للتوحد والأنسنة بين الجيل القديم والطبيعة، شارحًا هذه العلاقة بنوع من الغرائبيّة، التي ظهرت في الحياة الشعبيّة البسيطة في ماديتها، والعميقة في فكرها؛ لما تحمله من موروثات إيديولوجيّة منوّعة، فيها نوع من الغموض للجيل الجديد الذي لم يستطع فهم ما تحمله الجدات من مفاهيم ومعتقدات ومعاني، مثل قصة حضور الفأر في الحلم، الذي يمثل باب شؤم لما يحمله هذا الحيوان من شر شيطاني؛ يهدف إلى السّيطرة على العالم، وهنا طرح الفارق الإنساني بين الأجيال، ومدى الوعي لكل منهم، موظفًا السياق البيئي في نسق ثقافي بيئي.

كما استعان بالبيئة كنسق رمزي في الأقوال السائرة، والأمثال والأغاني الشهيرة لعبد الكريم عبد الله، والمسلسل والأغاني الشعبيّة، والأغاني الوطنيّة، والشعارات العامّة مثل:" **تحيا الأمة العربية**"[2]كشكل من أشكال الوحدة الوطنيّة، في محاولة لرسم حلول لأزمة بيئيّة كارثيّة قد تقع على البلاد في حال الاستمرار في الفرقة.

إنّ ما يقدمه النّقد البيئي من تسليط للضوء على المضمرات الثقافيّة والفكريّة التي تحيط بالثيمة الروائيّة؛ تسهم في حل الأزمة البيئيّة، في مجاليها التوعوي والثقافي، إذ تكمن حماية البيئة وثيقة الصلة في المجتمع؛ لأنها جزء لا يتجزأ منه ومن تكوينه، لذا كان الحل الذي لحل الأزمات

---

(1) المصدر السابق، ص 66.

(2) المصدر السابق، ص26.

المتشابكة في المجال الدرامي هو تطبيق قانون عادل يسيطر على المشهد الدرامي، وهنا تظهر المشكلة الأكبر الكامنة في نقص القوانين الخاصة في السياسة البيئيّة [1]. بالإضافة إلى قوانين جودة البيانات البيئيّة. [2]

وفي معالجة العلاقات الإنسانيّة مع البيئة ومكوناتها، وفقًا للمشاهد الدراميّة للرواية، يظهر ما عكسته من خلاف فكري يصل إلى حد التناقض، وخاصّة في المفارقات الأيدولوجية والسلوكيّة، التّي تبلورت نتيجة تطور الفكر وتغيره عبر الأجيال في بنيات مجتمعيّة متكاملة؛ بسبب النمو الاقتصادي بعد اكتشاف النّفط وما تبعه من تغيرات طالت المجال الدينّي وموقفه من العلاقات بين الناس، "**...العلماء كفروهم**"[3] ومن الحرب، في وجهة جديدة متأثرة بما زرعه الغرب من فتن، بعد غزو الكويت.

وتلك أسباب اقتصاديّة ودينيّة وسياسيّة، مرتبطة بالإنسان بشكل مباشر، على اعتبار أنّ المكان (ركيزة إنسانيّة)؛[4]لتتمثل هذه الركيزة ضمن إشكاليّة سياسيّة بأبعاد أيدولوجيّة متشابكة[5]، أسهمت في بناء أنثروبولوجيا جديدة فيها تجسيد للهويّة، وعلاقة الذّات مع الآخر، ومفاهيم الاغتراب، والوطن، والأرض، والمنفى، والموت.

وكل ذلك يؤثّر في تحديد استجابات الجمهور، في الرواية نفسها، بتصعيد الأزمة البيئيّة وتهويلها بأدوات بشريّة؛ بسبب العلاقات الإنسانيّة، والفكر الثقافي الذي ينعكس بدوره على الأزمة، وتمثّلت هذه الاستجابة في طريقة أبناء فؤاده الذين قدموا نموذجًا متجانسًا ومنسجمًا ومتعايشًا رغم الاختلاف الثقافي بين أعضائه، كما تآلفت بنات كيفان (نخلات أمي حصة).

---

(1) Heddon, Deirdre, and Sally Mackey. "Environmentalism, performance and applications: uncertainties and emancipations." Research in Drama Education: The Journal of Applied Theatre and Performance 17.2 (2012): 163-192.

(2) Herrick, Charles N. "Objectivity versus narrative coherence: science, environmental policy, and the US Data Quality Act." *Environmental Science & Policy* 7.5 (2004): 419-433.

(3) (فئران أمي حصة)، ص 36.

(4) راجع مدخل كتاب (شعرية المكان في الأدب العربي الحديث) من تحرير بطرس الحلاق، وترجمة آخرين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2014، ص 11-12.

(5) جاووت، الطاهر، (السرد وتشكيل الهوية قراءة في رواية "البحث عن العظم")، مجلة المَخبر، قسم الآداب واللغة العربية جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، العدد 13، 2017، ص86.

وهنا يمكن القول إنّ ما قدّمه السنعوسي إنما هو إظهار رعب بيئي، قد يبدو لبعضهم بأنّه غير منضبط، لما حمل من تهويل ومبالغة وتضخيم للمواقف الاجتماعيّة، وعليه فإنّ ما قدّمه الكاتب يُصنّف ضمن خيال الدرامي الفنتازي البيئي، الذي يتنبأ بأحداث يمكن حدوثها، وفقًا لحوادث تاريخيّة مشابهة، الذي تتكرر مشاهده التاريخيّة بتكرر الأحداث والشخصيات المتشابهة؛ لذا يوجه الكاتب رسالة واضحة أحيانًا ومضمرة أحيانًا أخرى، تحثّ المتلقي على بناء قاعدة ثقافيّة واجتماعيّة وبيئيّة جديدة، تطبّق الدين الحقيقي، بالتعايش مع الآخر من دون تراتبيّة وعنصريّة، كذلك حثّ السياسيات على ضرورة تحديد القوانين والتشريعات السياسيّة العادلة لحماية الإنسان، والطبيعة معًا، من تأجج الصّراع الطائفي والسياسي. والاقتداء بالسّدرة العجوز المائلة، التي ضربت جذورها في عمق الأرض، وانحنت بظلّها في رفق على البيوت الثلاثة رغم اختلافها.

إنّ ما قدّمته الرواية من منظور بيئي بُني على أساس وُظف فيه الأنساق الثّقافية؛ التي جاء فيها المضمر الثّقافي هو النّسق البيئي ذاته.

***

ثانيًا: الطبيعة وإستراتيجيات التحرر في ما بعد الاستعمار:

إنّ المنظور الدراميّ العميق للسّرد في رواية ما بعد الاستعمار، يبدو فيه الأحداث سياسيّة الطابع[1]، ولا ينشأ إلا إذا كانت البيئة حليفة له ولأحداثه، وبفحص العلاقات العرضيّة بين البشر والبيئة، تتضح معالجة السّرد لعدد من القضايا الرئيسة، مثل: ارتباط الإنسان بالأرض باعتبارها (الوطن)، واستحقاق الأمان والاستقرار من خلاله، وتوفير الرفاه الماديّ والنّفسي، سواء أكان في المستقبل أم كان في أجندة الذكريات.

(1) Huggan, Graham, and Helen Tiffin. Postcolonial ecocriticism: Literature, animals, environment. Routledge, 2015.

وبتطور نظريّة ما بعد الاستعمار (الكولونياليّة) [1] بعد طرح كتاب "لاستشراق" صارت مجالًا أكاديميًّا، يبحث العلاقات بين البشر، في مجالات سياسيّة وسلطويّة، تسرد تاريخ المعارك، بهدف مناهضة الاستعمار، ونبذ طرق الهيمنة الماديّة والثقافيّة والفكريّة.

فقد تصدّرت دراسات التصور البيئي للأزمات الخاصّة بما بعد الاستعمار في تحليل الأزمة الإنسانيّة والبيئيّة الناتجة عن الاستعمار، في محاولة لفهم الأدب، والبيئة، والإنسان، وما نتج عنها من عنف وهدم وقتل وتهجير، ظهرت في خطاب ما بعد الاستعمار بسياقاته الأدبيّة والثقافيّة والتاريخيّة والإقليميّة؛ لذا كان ما قدّمته الدراسة البيئيّة لما بعد الاستعمار هو تسليط الضوء على منظومة التغيّير البيئي كعدسة لفهم تحديّات السّكان الأصليّين في مواجهة الاستغلال الأجنبي أو الخارجي، وما يتّبعه من قمع.

ثمّ مكاشفة الصّراع بين المُستعمِر والمُستعمَر، في خطابات تشكّلت فيها الثّيمة الروائيّة البيئيّة تنافسيّة متصارعة على ملكية الأرض، وشرعيّة الحكم فيها والسيطرة عليها والهيمنة على خيراتها الاقتصادية من مكونات بيئية مختلفة، تظهر فيها مشاعر كل طرف من الأطراف حيال البيئة، ليكون المستعمِر استغلالي الوجه، أما المستَعمر يحمل الحنين والانتماء كجزء لا يتجزأ من الأرض التي نشأ عليها، وأكل من خيراتها، وباختلاف المشاعر بين الطرفين تأطّرت مشاعر الثاني في الانفعال والغضب، ونبذ الاحتلال وكره الآخر، ومعاناة التهجير، وقسوة الشعور باللجوء من غير إيواء أو وطن.

من هنا نشأت المشاعر الإنسانيّة عند الأطراف الثلاث: المستِعمر في شعور الهيمنة والتراتبيّة التي سمحت له بالاعتداء على الآخر وسرقة حقه في أرضه وماله، ثم المستَعمر وما يعانيه من شعور الظلم والقهر والألم سواء أكان في هذا البلد المحتل أم نزح عنه وهاجر، وأخيرًا على الناس المستقبلة لهذا النازح وشعورها بمشاركة الآخر لهم في أرضهم وخيراتها، إذ أسهمت هذه التصنيفات في تحديد العلاقات الإنسانيّة بالمكان والبيئة الماديّة، وبشكل أكثر تحديدًا للعلاقة الإنسانيّة بالطبيعة وفق ذاكرته قبل الاستعمار وما آلت له بعد الاستعمار.

---

(1) ينظر ك نلوولف وآخرون، (موسوعة كمبدريدج في النقد الأدبي القرن العشرين المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية)، ترجمة: إسماعيل عبد الغني وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة ج 9، ط1، 2005، ص339.

وبدراسة النّقد البيئي لرواية (رأيت رام الله)[1] من منظور ما بعد الاستعمار، تقديم لمحاولة فهم المقاربات الأدبيّة للحياة الإنسانيّة والبيئيّة في ظل الاحتلال، ورصد الأنظمة الاستعماريّة، وأعمالها الاستغلاليّة للأرض[2]، على اعتبار أنّ الأرض المَعلم البيئي الأول المرتبط بالإنسان بصورة وثيقة عبر الزمن.

وهنا تظهر الرابطة بين المذهب السياسي والجماليّات الأدبيّة، التّي تناولت نظريّة العقد الاجتماعي (أو العقد الأصلي)[3] في بيان للتطورات المختلفة في قانون الحماية المجتمعيّة مقابل الطّاعة، كذلك قانون الجينالوجيا (مفهوم الخير والشر، والمنظومة الأخلاقيّة)، في فهم أخلاق العامّة، بعد الاستعمار، الذي يفسّر الأثر السياسي وانعكاسه على المجتمعات، والمركزيّة الإنسانيّة وأثرها على الثروات الماديّة والاجتماعيّة.

وإن كان أدب ما بعد الاستعمار يقدّم أدب المُستعمَر، الذي يسرد التاريخ من خلال بؤرة سردية محددة، ليعبّر عن الإنتاج الثّقافي الجديد المُقاوم بعد التأثيرات السياسيّة والاجتماعيّة للاستعمار، فإنّ رواية (رأيت رام الله) تمثّل خطابًا سرديًّا يُكاشف حجم الدمار النّفسي والتغيّيرات في فكر المُستعمَر حصاد الاحتلال أو ما يُلّقب بالاستعمار، مبيّنًا ما قدّمه الاستعمار من تشويه فكري وثقافي بالإضافة لتشويه مكاني وبيئي، في سرد يتحرى العلاقات المختلفة، بين البشر والبشر، والبشر وغير البشر، في مناطق الإنتاج الثقافي؛[4] لمكاشفة المركزيّة الإنسانيّة المستغلة للإنسان

---

(1) رواية (رأيت رام الله)، صدرت عام 2005 للكاتب مريد البرغوثي (1944-2021)، ضمن منتج روائي له يمثل نوعًا من أنواع السرد الذاتي، الذي يقدم حالة المجتمع الفلسطيني اجتماعيًّا، وسياسيًّا، وثقافيًّا، في فلسطين، وفي الشتات، كذلك ترصد حالات التغيير في بنية المجتمع بعد الاحتلال الإسرائيلي، والويلات الاقتصادية، والعمرانية، والبيئية التي انعكست على البلاد ومن يسكنها، راجع: البرغوثي، مريد، (رأيت رام الله)، دار الشرق، بيروت، ط5، 2018.

(2) بانرجي، ميتا، (النقد البيئي ودراسات ما بعد الكولونيالية)، ص 163.

(3) نظرية العقد الاجتماعي (أو العقد الأصلي) عقد الحكومة، أو عقد الاستسلام، من النظريات التي ظهرت في القرن السابع عشر، وكان لها ظهور في الفكر السياسي اليوناني قديمًا، وتشمل حالتين للدراسة: الأولى تهتم بنظريات أصل الدولة. أما الثانية تفترض وجود مجتمع، وتحدد له الشروط التي يجب أن يُحكم على أساسها، بما يتعاهد به الناس مع حاكمهم وفق عقود تحدد علاقتهم به. وطاعتهم له؛ ليقدم لهم في المقابل الحماية والحكم الجيد، وفي حال خطئه ينتهي عقد الولاء: راجع: J. W. Gough, The Social Contract (Oxford: Clarendon Press, 1936), pp. 2–3. Modern revivals of social contract theories have not been as concerned with the origin of the state.

(4) بانرجي، ميتا، (النقد البيئي ودراسات ما بعد الكولونيالية)، ص164.

واللاإنسان، وما ينتج عن الاستعمار من تغريب وتهجير بالبحث عن الأرض البديلة، فقد ظهر المشهد الروائي وفق بؤر مختلفة كشفت العلاقات الإنسانيّة بين الفئات المختلفة.

ولما كان نقد ما بعد الاستعمار يسلّط الضوء على أدب المُستَعمِر بعد التحرر، ليخط تاريخه، ومعاناته، كان النّقد البيئي لما بعد الاستعمار يمزج بين الماضي والمستقبل، وما فيه من تنبؤات بيئيّة إحيائيّة، كما مثّلتها رواية (رأيت رام الله) في نموذج يقدم الحالتين من غير تنافر أو تناقض؛ لأن الأرض الفلسطينيّة لا تزال تحت الاحتلال، والراوي يقع في صراع الماضي والحاضر المتأثر بنفوذ وسطوة العدو، الذي أعاق بناء المستقبل لعائلته الصغيرة المكونة منه ومن زوجته، وابنه في العيش الآمن في وطنه.

فقد قدّم البرغوثي رواية حملت ازدواجيّة النغم بين اليأس بانتشار المستوطنات الإسرائيليّة، والإيجابيّة لما يحمله الشعب الفلسطيني من إصرار وقدرة على المقاومة، في نسيج شعريّة بيئيّة، التحمت فيها تداعيات الأحداث بخطاب بيئي تحريضي ضد الاحتلال الإسرائيلي، في مكاشفة لجميع الممارسات التشويهيّة للمشهد البيئي الفلسطيني، إذ قدّم مفارقة الاستسلام للخسارة مع استمرار المقاومة في الآن ذاته؛ من أجل التحرير، ولمّ الشّمل، والعودة من المنفى الذي سرق الأعمار في غربات قاسية مؤلمة، مجسدًّا للتجربة الإنسانيّة والبيئيّة الفلسطينيّة على حد سواء.

شعريّة النّص الأدبي شعريّة معرفيّة:

يستطيع قارئ الرواية تتبّع الشعريّة الروائيّة في رواية (رأيت رام الله) على مستوى تشكيل المواقف والأفكار، فيقف على وصف الخطاب الموجّه الذي يشرح عبثيّة المشهد البيئي انطلاقًا من المكان؛ إذ لا ينتصر الغازي إلا إذا استولى على الأرض، "**ولكن مهلا في الصراع تكون المسألة هي المكان، نعم المكان، كل القصة في المكان**"[1]، ولا يمكن أن تكون السّيطرة من غير إستراتيجيّات حربيّة، تبدأ من التدمير والقتل، وتنتهي بالتفريق بين النّاس على مبدأ (فرّق تسد)، وتهجيرهم ومنعهم من العودة لأوطانهم؛ ذلك لأنّ المكان امتلأ بآخرين، وفي هذه العبارة تعريف علميّ موجز وبليغ لما يقدِم عليه الاحتلال، من استيلاء على المكان بكل ما فيه، طاردًا أصحاب الحق عن أرضهم.

---

(1) (رأيت رام الله)، ص 130.

وهنا تظهر الشعريّة في الرواية لا لأنّها حملت مجازات وتصوير وتنّاص خدم البناء الدرامي وحسب، بل لأنّها تجاوزت الجماليّات الفنيّة إلى المعارف التاريخيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والعمرانيّة؛ لتكشف عن الأزمة البيئيّة والظلم البيئي، ومنه وصف **الجسر** (المنطقة حدودية بين الأردن وفلسطين):" **ماء النّهر تحت الجسر قليل، ماء بلا ماء، كأنّه تعذر عن وجوده في هذا الحد الفاصل بين تاريخين وعقيدتين ومأساتين. المشهد الصخري، جيريّ، عسكريّ، صحراويّ، مؤلم كوجع الأسنان، العلم الأردني هنا بألوان الثورة العربية.وبعد أمتار قليلة، هناك العلم الإسرائيلي باللون الأزرق للنيل والفرات وبينهما نجمة داود. هبة هواء واحدة تحركهما، بيضٌ صنائعنا، سودٌ وقائعنا، خضرٌ مرابعنا، الشعرُ في البال. لكن المشهد نثريٌ كفاتورة الحسابْ.**"[1]

وبتحليل دور الخطاب الماديّ في وصف الجسر، تظهر الرمزيّة في التعبير عن الواقع، وتفكيك العلاقات بين البشر والبيئة، عبر توظيف الأدوات البلاغيّة المنوعة للكشف عن أفق معرفي بالإضافة للأفق المجازي، فقد جمع كمًا هائلًا من المعلومات التاريخيّة والجغرافيّة والنفسيّة في فقرة بسيطة اتسمت بالوصف الحي، الذي يمكن اسقاطه على الجسر من جهة، والنفسيّة المواجهة للجسر من جهة أخرى، في مزج للعِلم البيئي والعِلم النفسي الإنساني، وكأنّه يصف الجسر وأصحاب الأعلام بالأوصاف نفسها، صخريّة جيريّة، وكلاهما موجع، يتمثلان بالاحتلال وكل من سانده وأيّده، وهنا مشاركة بيئيّة للمستويات المعرفيّة الماديّة والمعنويّة؛ جسّدها الكاتب في الاعتداء على البيئة المتمثلة بـ (**الجسر**) إذ لم يَعد الجسر منطقة عبور وعودة للمّ الشّمل كما كان يُمثل في الماضي، بقدر ما أصبح مكانًا للخروج والطّرد والرقابة والتضيّيق في ممارسات استعماريّة همجيّة، جفت ماءه في دلالة بيئيّة عميقة تعكس تغيّر الحياة البيئيّة والفلسطينيّة معًا، إذ لم تعد بطعمها المميز القديم، بل أصبحت صورة بلا روح، في تمثيل يوضح تلاحم البيئة المائية التي تفتقد صاحب الأرض الحقيقي، وتتأثر بغيابه.

ثم جاء وصفُ الكاتب لأرض فلسطين، بـ(**الخضراء**)[2]، في تصريح للفاعليّة البيئيّة وفقًا لذاكرته قبل أي خلاف سياسي، وهو وصف معرفيّ وتاريخيّ، يبدو فيه الكاتب مذهولًا لما آلت إليه

---

(1) المصدر السابق، ص26.

(2) المصدر السابق، ص47.

المنطقة من اصفرار وهشاشة، بعد ما أحدثه الاستعمار من إجراءات لقبها بالأمنية؛ للحدّ من المقاومة الوطنيّة في صورة منهجيّة ومدروسة، إذ نهب الأرض الزراعيّة واستبدالها بالمُستعمَرات؛ فكان على حساب البيئة وتدميرها، وهنا يقارن الكاتب بين الماضي والحاضر في تساؤلات استنكارية "**فلسطين خضراء مغطاة بالأشجار والأعشاب والزهور البرية، ما هذه التلال؟ جيرية كالحة وجرداء!**، فقد تشبّعت **الأرض بصدمات الغزو**."[1] التّي غيّرت الأرض وحولتها من خضراء لجرداء قاحلة، وبهذا الوصف أنسنة للأرض التي شاركت أصحابها الصدمة مما يُحدثُه العدو من تغيير بيئي.

وانكسر توقّع الكاتب عند زيارته لوطنه أول مرّة بعد التهجير الناتج عن حرب 1967، لما رآه في المشهد البيئي، والتحول الأخضر إلى الإسمنت الملون؛ لذا سلّط الضوء على الطبيعة في السّرد الروائي مكاشفًا سيرورات الهيمنة الاقتصاديّة والسيطرة الثقافيّة، التّي تعكس النزعة المركزيّة عند البشر، ليخيب ظنّ الكاتب في "تخضير"[2] بلاده في ما بعد الاستعمار وفقًا لتنبؤاته وأحلامه المستقبليّة في العيش في أمان واستقرار، "**أن يتحدث المتحدثون عن المستوطنات شيء، وأن تراها بعينك شيء آخر**"،[3] فقد استهجن الكاتب ما تراه عيناه من استغلال للأرض، والبيئة في وضع اليد عليها بحجّة إعمارها، لتظهر الحقيقة في عينه مختلفة تمامًا، على اعتبار ما قدّمه العدو يندرج تحت قائمة التدمير وتخريب الطبيعة، واستبدال ما فيها من الزرع والشجر بالإسمنت المصفوف على شكل بيوت متراصة، "**أبنية من الحجر الأبيض متلاصقة ومتكاتفة. تصطف خلف بعضها في سطور منسقة، راسخة في أماكنها...**"[4]

وبذلك الوصف تناص معنوي تشكّل في الوجدان العربي والمسلم، في قضيّة الوحدة والتماسك، الذي مثّله التراص العمراني في الرواية، كأنّ الكتف في الكتف يشدّه ويدعمه، إنّما دلالة على الحصانة الاقتصاديّة البيئيّة التي يتمتّع بها العدو المحتل، فهو لا يكتفي بالاستغلال ونهب الأرض وتدمير ما فيها، بل يؤسّس لزحف عمراني مدروس الهيئة، يخيف المستَعمر ويرعبه، لشكله المتراص، وعدده المتزايد: "**كل الإحصائيات سخيفة بلا معنى. الندوات والخطب والاقتراحات**

---

(1) المصدر السابق، ص47.

(2) بانرجي، ميتا، (النقد البيئي ودراسات ما بعد الكولونيالية)، ص 165.

(3) (رأيت رام الله)، ص 48.

(4) المصدر السابق، ص 48.

والاستنكارات، والذرائع، وخرائط التفاوض، وحجج المفاوضين، وكل ما سمعناه وقرأناه عن المستوطنات، لا يساوي شيئًا أمام مشاهدتها بعينيك"[1]، وفي هذا التصريح حول المستعمرات تناص آخر؛ يؤكّد أنّ ما قدّمه الاستعمار يفوق أيّ خبر، وفيها ما لا يخطر ببال، في تأكيد على ما يخطط له المحتل من تجذره في الأرض، وطرد لسكانه الأصليين، وبهذه الشعريّة الفنيّة الموظفة عبر التناص المعنوي غير المباشر، تظهر الشعريّة المعرفيّة البيئيّة والتاريخيّة التي تؤكّد ضياع هويّة الأرض لا الإنسان فحسب.

فقد قدّمت الرواية ملمحين شعريين متنافرين، مثّل الأول الشّكل الموجع في عرضٍ لمزيج من الأحاسيس والأفكار التاريخيّة التّي تسيطر على الرواية؛ ففي الوقت الذي كانت فيه فلسطين محتلة، فإنها اتصفت بالنظافة، ولا يُقصد هنا نظافة المكان فقط، بل نظافة القلب الذي حمله أصحاب الأرض، وما فيه من مشاعر وعواطف حسّاسة، شاركت الوطن العربي في أحداثه التاريخيّة المختلفة، "**رام الله شديدة النظافة في شوارعها و...، تظاهرنا ضد حلف بغداد... تظاهرنا من أجل جلوب باشا، وتعريب الجيش الأردني... تابعنا صراع الأحزاب: الشيوعي، والبعث، والإخوان... طربنا لقرار جمال عبد الناصر تأميم السويس... وبكينا يوم إعلان انفصال الوحدة العربية..."**[2]

أما الملمح الثاني فقد مثّل قسوة شعور الغربة، ومرارة ألم الوحدة، والتهجير من البلدان العربيّة، التي بكى من أجلها الكاتب مع أبناء بلده، في اختلاف المشاعر بين ما يكنّه الفلسطيني اتجاه الأزمات السياسية عند العرب بالتعاطف والمشاركة، وبين ما قدّمته الحكومات العربية له من إنكار وتهميش ورفض، "**اقتادني إلى دائرة الجوازات في مجمع التحرير...كنت أنظر إلى شوارع القاهرة نظرة أخيرة، أرجوحة المأساة والمسخرة تهز بي ... في مقعدي في الطائرة فكوا الكلبشات من معصمي...**"[3] وهنا رصد لمعاناة الفلسطيني التاريخية في إيجاد مكان مناسب للعيش بعد ما واجهه من طرد وتهجير.

---

(1) المصدر السابق، ص48.

(2) المصدر السابق، ص 64.

(3) المصدر السابق، ص 133.

وفي مفارقة فكريّة راودت الكاتب منذ بداية الرواية، ظهرت في كراهية التعايش أو التطبيع، التي لم يصرح بمسمياتها السياسيّة، والتي كان يعاني من مرارة التفكير بها، ففي فلسطين يسكن الوافدون من الصهاينة ذوي الأصول المختلفة بعد أن احتلّوا البلاد في 1967، وبعودته وجد أنّه يقف أمام مشهد شديد الغرابة، بأنّ فلسطين بلاده أصبحت تُلقّب باسم جديد، وأصبح لها شعب جديد بهويّة جديدة، تغيّرت فيها الصورة في ذاكرته، فقد ضلّل الاستعمار المعالم القديمة، واستبدلها بشكل ببيئي جديد، مثّل نهب المحتل للحاضر والمستقبل، في موافقة عالمية أكّدتها عمليّة السلام المنعُقدة بين الأطراف السياسيّة الثلاثة: الفلسطينيّة والعربيّة والمحتل الإسرائيلي.

هذه الحقيقة التي بدأت من المشهد الحدودي، الذي استهلت به الرواية متنها السردي، جسّدت مفارقة في الحقيقة السياسيّة للسّلام، مفادها بأنّ انتشار الضبّاط الفلسطينيّين على **جسر الملك حسين**، الفاصل الحدودي بين الأردن وفلسطين، ليس إلا صورة وهميّة للدولة الفلسطينية، وإنّ الإسرائيليّين ما يزالون ممسكين بزمام الأمور الحدوديّة؛ لأنّهم الأسياد في الدولة، عكس الكاتب هذه الصورة على الصورة المجازية في وصفه للمكان والماء بقوله (ماء بلا ماء)، في ملمح بيئي يرفض التهجين والتفاعل بين الثقافتين الفلسطينية والمستَعمرة " **نحن هنا في بقعة الأرض نفسها، في المكان نفسه، لا حقيبة في يده، ويقف بين علميْن إسرائيليين يحركهما الهواء والشرعيّة الدوليّة...في غرفته الضيقة التي توقعتها أكثر نظافة وترتيبًا، ملصقات سياحية عن معالم (إسرائيل) توقفت عيناي طويلاً عند ملصق عن المسادة...**"[1] في حقيقة تمثل الاستغلال البيئي في السيطرة عنوة على المكان، وكل ما فيه.

وبالرغم مما قدّمته الرواية من معلومات سياسيّة، فإنّها لم تقدّمها على سبيل التّجريد والتّحليل، أو تفسير الإيديولوجيّات، بل كان تقديمًا واقعيًا يشرح الأوضاع المعيشيّة للفلسطينيّين، ومدى المعاناة التّي يواجهونها في قيود الإقامة والسفر، والرحيل، بسبب عدم امتلاكهم جوازات السفر؛ لذا كان الهمّ الأول لدى الفلسطيني هو توفير مكان مناسب للعيش، ومكان آمن بعد الوفاة (القبر)، وبهذا الشّغف يؤكّد الكاتب العلاقة الوطيدة بين الإنسان والمكان، الذي يحدد هويّته،

(1) المسادة تحمل اسم أسطورة قلعة صمد فيها اليهود طويلًا حتى أبيدوا جميعًا، وكأنهم يرسلوا رسالة للفلسطينيين بطول بقائهم، راجع المصدر السابق، ص 30.

وكيانه، وحياته بأكملها، في زمن عرف فيه البشر بأرقام وهويات منسوبة لأوطانهم، لكن هذا الارتباط لم يُجسد في الرواية من قبل الفلسطيني فقط بل أيضًا تجسّد في البيئة المغتصبة والمُحتلة.

ثم طرحت الرواية تمثيلًا لعلاقتين متناقدتين: تكمن الأولى في هيمنة اليهودي على الأرض باغتصابها من سكانها الأصليين، وتقع الثانية في حاجة الإنسان الفلسطيني لأرض يعيش فيها بسلام بعد تهجيره في غربته المرّة التي نعتها بالموت: "**الغربة كموت المرء. يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين، منذ ذلك الصيف أصبح ذلك الغريب الذي كنت أظنه دائما سواي... الغريب هو الشخص الذي يجدد تصريح إقامته، هو الذي يملأ النماذج، ويشتري الدماغ والطوابع، هو الذي عليه أن يقدم البراهين والاثباتات، وهو الذي يسألونه دائمًا: (من وين الأخ؟) أو يسألونه: (وهل الصيف عندكم حار؟) لا تعنيه التفاصيل الصغيرة في شؤون القوم أو سياساتهم الداخليّة لكنه أول من تقع عليه عقوباتها.**"[1]

وبهذه الصيّاغة الدراميّة يؤكّد الكاتب على أنّ الفلسطينيّين، لم يصلوا في معركتهم مع العدو إلى التحرير؛ ليعيدوا كتابة التاريخ الخاص بهم، كما هي الحال مع أدب ما بعد الاستعمار، وإنهاء العنف على البيئة ومن عليها، وإنّهم لا يزالون تحت الاحتلال بمسميّات جديدة، وبسياسات تفرض ثقافة مزدوجة الهويّة، لم تكتفِ باستعمارها الاقتصادي، بل تجاوزته إلى الثّقافي والمعرفي؛ لذا كان من الملائم تحول الشعرية الأدبيّة إلى شعريّة معرفيّة تبيّن الحقائق السياسيّة والاجتماعيّة والبيئيّة التي شوّهها الاحتلال وغيّر معالمها الحقيقيّة، وأضفى عليها معالم جديدة، الذي أدّى إلى خلق علاقات مميزة بين المستَعمرين وبيئاتهم، بعد أن كشف نزعة التمركز على الإنسان المُستِعمر وهيمنته وتسلطه وقبوله عالميًّا والاعتراف بشرعيّته دوليًّا.

الأرض ذاكرة مُقاوِمة:

وتبقى الأرض الشاهد على ما قدمه الاستعمار من خراب ودمار، ذلك لأنّها تحمل في باطنها كل ميت كان شاهدًا على حملات التدمير، الذي لم يكتفِ بالتدمير الاقتصادي فحسب؛ بل تعداه إلى تدمير ثقافي شمل الثقافة الإنسانية والثقافة البيئيّة -إن صحّ القول- في طمس معالم البيئة الحقيقية واستبدالها بأشكال جديدة مغايرة لها؛ لذلك جاء وصف القدس مرتبطًا بتاريخها

(1) المصدر السابق، ص15-16.

وحضارتها وشكلها الثقافي ليؤكد الكاتب خطورة مسألة التشويه الحضاري، "**القدس الديانات، القدس السياسة، القدس الصراع هي قدس العالم...قدس البيوت والشوارع... قدس العتالين ومترجمي السيّاح... قدس الجبنة...**"[1]

فقد وصف الكاتب القدسَ كشخصية مرموقة مقاومة، ليبدأ بوصفها أرض الديانات؛ فامتازت بالخلود والقدسيّة، ففي القدس عبق التّاريخ الذي يجعلها شاهدة على كل ما جرى في المنطقة، قديمًا وحديثًا، فهي أرض الطهارة؛ لذلك قدّمها الكاتب في وصف دقيق متعدّد المجالات شامل لكل ما فيها من مكونات بيئيّة، مؤكدًا أنّ طهارة المكان تعمّ ما فيها من الأحياء وغير الأحياء، في حياة عفويّة مسالمة كما هي مساجد القدس وشوارعها وسكّانها بكل طبقاتهم الاجتماعيّة، من دون ترتيب تراتبي ومازجًا بين مكونات البيئة والسكان.

وكأنه يدعو إلى "**النزعة الفطريّة البيئيّة**[2]"التي تتصف بالتوازن الكوكبي، القائم على العيش مع البيئة في سلامٍ لا يتحقق إلا في العيش بالبرية أو القرية، بهدف الحفاظ على التنوع الإحيائي والحياة البرية، في فكر وأيدولوجيات تتعلق بالأرض، ونبذ الإنجازات المعمارية بهويتها المحتلة، وفق هندسة غربية تطمس الهوية البيئية المحلية للسكان الأصليين، "**مدرسة بير زيت أصبحت جامعة مهمة. أما الحرش الصغير الذي اكتسب اسمه من كثافة الشجر فيه، فقد قال حسام إنه أصبح الآن مستوطنة إسرائيليّة كبيرة يسمونها (حلميش)**..."[3] وهنا تأكيد طريقة عيش السكان الأصليين البيئيّين، الذين يهتمون بالطبيعة المزروعة، ويمارسون الرعي، ذلك لأن الفلسطيني في القرية إنما هو فلاح أو يمكن تلقيبه بمواطن بيئي (إيكولوجي)، على عكس الاحتلال الإسرائيلي الذي يستغل الأرض في إفراط بهدف احتلالها وسلبها في إطار ما يقدمه من تغييرات بيئيّة في الأراضي المحتلة في طمس للهوية البيئة المُقاومة.

بالرغم من استيلاء الاحتلال على البيئة ومكوناتها في "**قرصنة إحيائيّة وبيولوجيّة**"،[4] للأرض وما عليها، وفق ممارسات استعماريّة تهدف زيادة عدد المستعمرات الجديدة، لاستغلال أكبر قدر من الأرض في ما يمكن نعته بالادخار البيئي، الذي سيمكنها من الفوز بالتفاوض في ساحة

---

(1) المصدر السابق، ص204.

(2) المصدر السابق، ص 166.

(3) المصدر السابق، ص 96.

(4) المصدر السابق، ص 167.

النقاش حول الأرض الفلسطينيّة وتقسيمها: **"لم يفاجئني ضيق مجراه، نهر الأردن كان دائمًا نهرًا نحيلًا جدًّا، هكذا عرفناه في الطفولة، المفاجأة أنه أصبح بعد هذه السنين الطوال نهرًا بلا ماء، الطبيعة اشتركت مع إسرائيل في نهب مياهه، كان لمجراه صوت، هو الآن نهر ساكت كأنه سيارة و اقفة في مرآب."**[1] وبهذا التصريح، يوجه الكاتب اللوم للطبيعة في القرصنة الإسرائيليّة، وإسهامها في نهب المياه من نهر الأردن، فهو يأنسن بالبيئة ويلومها، وهنا يُبين خطورة الموقف المؤيد للتعايش مع العدو، في انعكاس بيئي مثّله في وصف الطبيعة المشاركة للعدو في سرقة الماء، مُشيرًا إلى أنصار ما بعد الاستعمار الذين يدعون إلى التهجين بين مختلف الثقافات.

بالإضافة إلى ما كان من نهب للجسر كان العنف ضدّ البيئة ومكوناتها في كل فلسطين، فقد تعارف عند الفلسطينيين تسمية الأشخاص والعائلات والمجازر والمعارك منسوبة إلى المكان لأنّه يشترك مع المقاومة، فوصف قتل الفلسطينيّن والدمار البيئي في بلدة تل الزعتر بالمجزرة، **"كانت مجزرة تل الزعتر ... حين نسف البيوت في الضفة وغزة، والمعتقلات الإسرائيلية تتكدس بالشباب والشيوخ. والجرحى لا يجدون دواءهم إذا كانوا محظوظين في الوصول إلى أي مستشفى".**[2]

ولم يكتفِ العنف ضد الشعب الفلسطيني داخل الحدود الفلسطينيّة، بل تجاوزه لاغتيال المثقفين والسياسيّن خارجها، كما حدث للرسام الكاريكاتيري ناجي العلي، والمؤلف غسان كنفاني، والسياسي وديع حداد، وغيرهم، **"وبعدها عدت إلى بودبست وأنا ارتجف من (شكل أيامنا القادمة)، تاركًا تحت التراب البريطاني البعيد واحدة من أشجع الفنّانين الذين أنجبتهم فلسطين في تاريخها كله**[3]" هنا يصف الكاتب حدث وفاة الرسام، الذي ينتمي للبلد التي أنجبته بحنين بيئي (إيكولوجي) ينعت فيه الأرض بالأم المُقاومة، التي تستقبل أبناءها وتودعهم بصرخة الحنين المُعبّرة عن سعادة الإنجاب من جهة والفقد من جهة أخرى، في نقطة التقاء الماضي والحاضر والمستقبل؛ ليكون مصير هذا الفنان القتل خارج وطنه وفي المنفى؛ معبّرًا عن دلالات نسقيّة استعماريّة بيئيّة، فيها وصف لفضاء الوصول إلى المناطق الجغرافيّة التي يتعذر الوصول إليها من خلال مؤامرة عالمية

---

(1) المصدر السابق، ص 17.

(2) المصدر السابق، ص192.

(3) المصدر السابق، ص93-94- 37.

تؤيد المحتل وتدعمه في محاولة طمس أي وجود فلسطيني يتميز، أو يصل للشهرة العالمية التي تُعبر عن ظلم الاحتلال الإسرائيلي للشعب الفلسطيني المُغتصب، وهنا إشارة للسطوة والهيمنة الإسرائيليّة لا الرأي العام في الداخل والخارج.

فقد عاش الفلسطيني في الخارج نتيجة التهديد والقتل والتهجير، وتنوعت بيئات عيشه، وتفرقوا في الأرض، فتنوّعت الثقافات التي تبنوها، ولم ينسوا وطنهم بل خلقوا أسطورة الأرض والعودة طوال مدة عيشهم في المنفى، ونقلوها لأولاده جيلًا بعد جيل، وإن لم يكونوا يعرفنها، ولم يزوروها أبدًا، إلا أنهم يشعرون بالانتماء لها، ويمجدونها، وينتظرون العودة لديارها، لذا حاول المحتل حصار الفلسطيني فكريًا، والإحاطة به؛ لأنه لا يعرف عن وطنه إلا سرد روائي من آبائه وأجداده، ويُعد هذا هجوم على العدالة البيئيّة التي ترفض الانقسام الاجتماعي[1] المسبب للفجوة الثقافيّة والفكريّة بين أبناء الجيل الواحد في الوطن والمنفى، فقد مثّل الخطاب الروائي الجيل الفلسطيني الناشئ، وصنفه وفقًا لحالته المكانيّة، التي تقع تحت تأثير الظروف السياسيّة والاجتماعيّة التي يعيشها، وفقًا للبيئة التي ينشأ فيها، فقد أثر الاحتلال في إنتاج فكري جديد لأجيال كاملة، "**الاحتلال الطويل الذي خلق أجيالًا إسرائيلية ولدت في إسرائيل ولا تعرف لها (وطنًا) سواها، خلق في الوقت نفسه أجيالًا من (الفلسطينيين الغرباء عن فلسطين) ولدت في المنفى ولا تعرف من وطنها إلا قصته وأخباره... الاحتلال خلق أجيالًا بلا مكان تتذكر ألوانه ورائحته... وتحب الحبيب المجهول النائي العسير، المحاط بالحراسة، وبالأسوار، وبالرؤوس النووية، والرعب الأملس... حولنا من أبناء فلسطين إلى أبناء (فكرة فلسطين).**"[2] ومن الموروثات الفكرية الجديدة للأجيال في ما بعد الاستعمار، الرعب البيئي الذي ملأ نفوس البشر بعد اختراعهم للأسلحة المدمرة للبيئة الإحيائيّة والكونيّة على حد سواء.

---

(1) Travis V. Mason, Lisa Szabo-Jones, (Introduction to Postcolonial Ecocriticism Among Settler-Colonial Nations) , a review of international English literature Vol. 44 No. 4 Pages 1–11 Copyright © 2014 The Johns Hopkins University Press and the University of Calgary.

(1) (رأيت رام الله)، ص 93-94.

بواعث بيئيّة بين ألم الاستعماروأمل التحرير:

بالنظر إلى ما سبق، تظهر ملامح ما بعد الاستعمار كلها مهتمة بسيرورات مركزية للمجالات الثقافيّة، والسياسيّة، الاقتصاديّة، بنزعة الاستغلال البيئي من دون النظر للعواقب التي يخلفها هذا الاستعمار على البيئة ومكوناتها، فظهر نسق الخذلان والدمار المرتبطان بمشاعر الفشل، والهزيمة، في امتزاج مع الحزن والألم، فقد شاركت البيئةُ الكاتبَ المشاعرَ بتمثلات سردية، ومجازات بلاغية، تأججت في وصف حال كل منهما معًا سواء أكانت بالصمت أو تكرار المواقف أو وصف المقاومة، "**أصبح معروفًا أن نقرأ المأساة والملاهي في الصفحة ذاتها، في الو اقعة ذاتها، في الاتفاقية ذاتها، في الخطبة ذاتها، في الهزيمة والنصر، في العرس والجنازة، في الوطن والمنفى، وفي ملامح وجهنا الواحد كل صباح**".[1]

فقد سيطرت البيئة على الحيثيّات السرديّة، إذ كانت ملجأ الكاتب وملاذه، كما كانت شريكته في النضال والأمل في المستقبل، "**سيدة الدار وسيدة الفناء كانت شجرة التين الخضاري الهائلة الجذع المترامية الأفرع، تلك التينة أطعمت أجدادنا و آباءنا، ولا يوجد شخص واحد في القرية لم يتلذذ من ثمارها التي لا مثيل المذاق العجيب... الوادي الخصيب الذي ترويه (عين الدير) وعين الدير هي نبع الماء ونبع الحكايات ونبع الرزق للقرية كلها.**"[2]هذه الشجرة (**التينة**) التي كونت الأمل لكل أهل القرية، وعبر الأزمنة المختلفة، لاقت حذفها بالقطع، كما لقي أبناء القرية حتفهم برصاص الاحتلال، "**التينة مقطوعة من نقطة التقاء جذعها المهيب بسطح الأرض في موضعها المحفور في ذاكرتي رأيت الفراغ يشغل الفراغ**"[3] فهي السيدة المقاومة المسؤولة عن الدار والمكان، إذ جسدها الكاتب في صورة البطلة التي خلّد التاريخ اسمها

وفي محاولة لبث روح الأمل بانتشار العدالة البيئية، التي تفي بالسعادة لمن مات شهيدًا، وبنمو الحياة البيئيّة دلالة على التفاؤل والسعادة لمن يعيشون الاستعمار وما بعده، "**وإذا كان الأحياء يشيخون فإن الشهداء يزدادون شبابًا... رام الله السرو والصنوبر، أراجيح المهابط والمصاعد الجبلية، اخضرارها الذي يتحدث بعشرين لغة من لغات الجمال، مدارسنا الأولى**

---

(2) المصدر السابق، ص 178.

(2) المصدر السابق، ص85.

(3) المصدر السابق، ص85.

حيث يرى كل طفل منا الأطفال الآخرين أكبر سنًا و أكثر قوة... فُلُّ الانتفاضة وفولاذُها الشفاف، آثارها الواضحة كالبصمة الليلكية."[1] لتقف الخيالات البسيطة، من ذكريات قديمة وواقع كمخطط يُبشر بأمل قريب، في حقل صحوة ثقافيّة تحقق العدالة البيئيّة التي تحمي الأرض من التدمير، وتحمي البشر من القتل والتهجير، في يقظة تحميها من "العنف البطيء"[2]، لاسيما في ما يقدّمه المحتل من تدمير تدريجي، باستغلال الأراضي الزراعيّة وتحويلها لمستعمرات.

ومثلها عبارات الأمل في مشاهد بيئيّة مختلفة تنوّعت حسب الموقف الدرامي وتداعيات الأحداث، فقد وصف مدينة رام الله بأنها "**عجيبة متعددة الثقافات، متعددة الأوجه؛ لم تكن مدينة ذكورية، ولا متجهمة. دائمًا سبّاقة إلى اللحاق بكل ترفٍ جديد".**[3] وهنا تحديد الجينالوجيا (أصول الأخلاق) البشرية، التي تعترف بتشدد الفكر الذكوري، وتجهمه، لينكر على بيئة رام الله أن تحمل مثل هذه الصفات الجادة؛ لأنها مدينة مفعمة بالحياة والأمل فهي تتصف بالمرح والترف ومواكبة العصر الحديث.

ومن الأساليب الحواريّة البيئيّة الموظفة في الرواية، التي قدمت منظومة الأمل بالرمز والإشارة، ما صوّره الكاتب في نزاع الزمن بين الربيع الممثل لرمزية الأمل والصيف" **كان الطريق إليها طويلًا منذ 1967 و أنا أمشي، من أول شمس أمس إلى أول شمس اليوم و أنا أمشي... ربيعُها المُعاند، لا يريد أن يُسلم نفسه لصيفها المتردد الخجول في الموعد المألوف، الربيع يزاحم بكتفيه، بألو انه، بشهقة البرد والندى في هو ائه، بأخضره الذي عامدًا متعمدًا لم يكتمل بعد، ولم يصبح غامقًا كما يُطالبُه الصيف."**[4] وبين رومانسية حالمة، وحنان بيئي يشدّه الربيع بلطفه وشجاعته للأمل، تظهر مزاحمة الصيف الحزين الكئيب؛ الذي يدافعه الربيع ليظلّ حبل التفاؤل موصولًا بلا انقطاع، هكذا عبّر الكاتب عن أحاسيس فاضت بالأمل في نور الحريّة، وصف فيها الطبيعة في حالة من التوافق والانسجام مع حالته المزاجيّة، في تنبؤ لمستقبل آمن فيه كل مسلم، وفقًا لأيدولوجيات فكريّة تنتمي لمعتقدات دينيّة، تُحرم اليأس وتُنبؤ بالنصر ولو بعد حين، لذا هو يرفض العلامات الكارثيّة التي قد تحدث بقدوم الصيف الجاف.

---

(1) المصدر السابق، ص62.

(2) بانرجي، ميتا، (النقد البيئي ودراسات ما بعد الكولونيالية)، ص169.

(3) (رأيت رام الله)، ص63.

(4)المصدر السابق، ص 60-61.

إن ما قدّمه الكاتب من وصف للمكان عبر عن مشاعره اتجاه البيئة، تمثّلت بأنسنتها؛ إذ بدت الأرض (البيئة) تشاركه في المشاعر والمقاومة، وفق أيدولوجيات متوازنة فكريًّا تؤمن بالعدل البيئي، وتنبذ التراتبيّة والاستغلال، بل ويتعداه إلى الارتباط البيئي والاستئناس بالطبيعة، والتعاطف المتبادل بين الإنسان والأرض؛ ليُسقط مشاعر التفاؤل والخوف والتهديد والتوتر مباشر على ما حوله من الطبيعة، فتُشاركه بها وتُدافع عنه.

الهوية الإيديولوجية بين القرية، والمدينة:

يتراوح النّص الدرامي في الرواية بين الغلو والسخرية، ففي الوقت الذي عظّم فيه الكاتب المدينة، "**عجيبة رام الله،**" "**أما العلاقة بالمدينة فلها قصة أخرى**"[1]، دعا للعودة إلى البرية، "**أنا ابن جبل واستقرار**[2]"، كما ركّز على مسألة نبذ الزحف العمراني الاستيطاني، في أجندة سياسية ترسم حدود بيئية جديدة المعالم، في محاولة ليقوض الفارق الجغرافي بين القرية والمدينة؛ وإخفاء الفارق البيئي بينهما، بتعريضهما للتدمير والتغيّر بشكل متساوٍ ومن غير تفريق، والعمل على بناء المستوطنات فيهما معًا: "**كان يجب أن أتخيل هذا التهدم والتآكل في الأقواس والبوابات والمداميك والسقوف والعتبات والأدراج. بل إنني قدرت أن أرى هذا الخراب الذي أراه الآن في دير غسانة منذ رأيت التراجع المفجع في أحوال رام الله، إذا كان الاحتلال قد أعاق المدينة في المدينة، فمن الطبيعي أن يعيق القرية هكذا، بحيث يكتمل يأسها التاريخي من اكتساب عناصر مدينيّةٍ تغتني بها وتنمو.**"[3]

إن تتبّع أحداث الرواية يفضي عن ضجر بيئي اتخذه الكاتب وسيلةً ليفضي عن آراء سياسية، تدين الاستيطان، والأعمال التخريبيّة من قبل الاحتلال، وضرورة ترتيب الأولويات وجعل الخلاص من الاحتلال بالتحرير المسألة الأهم؛ لذا تجاهل الكاتب بيان التمايز بين المدينة والقرية على اعتبار أنّ ما يقع عليهما من قبل الاستعمار من تغريب هو نفسه، الذي منع التطور لكليهما.

وتبقى الأرض هي ساحة لمزيجٍ من المسميات البيئيّة، وتظل شجرة التينة أحد أهم أبطالها، التي تقع تحت الاضطهاد السياسي، فقدّم الكاتب مجموعة من المواقف التي تسخر من حال

---

(1) المصدر السابق، ص 63- ص100.

(2) المصدر السابق، ص134.

(3) المصدر السابق، ص101.

الفلسطيني في بلده وخارجها في أزمان مختلفة، **"فوضى المدن هدوء البراري شعارات المنتفضين، رائحة الصفوف الابتدائية مذاق الطباشير، صوت الأستاذ أحمد صالح عبد الحميد... كيف يمكن التمييز بين الإيديولوجيات، والآراء المتعارضة والنظريات السياسية من جهة، وهذه التينة الخضراء التي تغطي ثلث الهضبة التي تُجاوربيت (أبو حازم) من جهة أخرى؟"**[1]

كما يصف حال جدته التي تحتفظ بهدايا الأدوات المنزليّة وتقدرها رغم الويلات التي مرت بها، "**ومع التبعثر الجغرافي المتكرر إثر الحرب، لم تستطع الوالدة الاحتفاظ بطقم الشاي التاريخي**".[2] وهنا يُؤكد على أن كل ما يحيط به إنما هو سجل تاريخي لهذا الوطن المسلوب.

لقد قدّم الكاتب خلال رحلته إلى فلسطين عبر مروره (**للجسر**)، عرضًا استقصائيًّا، لاختلاف البيئة وتبدلها في كلٍّ من القرية والمدينة على حدٍّ سواء، "**البيوت المهجورة ترى رؤيتها بخرسها البليغ**[3]"، ليسخر مما قدّمه الاستعمار المرخص دوليًا، " **كأن الحصيرة من تحتهم هيئة للأمم المتحدة**"[4] واصفًا بسخرية خرافة سياسية تُمثل التعاطف مع الآخر؛ في وعي لما بعد الاستعمار، وترميز لمنظمات عالمية، في ترسيخ تاريخي يفسّر الاضطهاد الذي يعيشه المستَعمر.

وفي مقارنة وصف المدينة والقرية في الرواية، يظهر تعلق الكاتب بالأرض من دون تحديد أو تخصيص، وذلك لاشتراك الأماكن باختلافها في مأساة واحدة، "**رام الله...تتجسد بقوامها القوطي الغامق اللون. بشوارعها الترابية. بسناسلها وأسرابها الضيقة ومقبرتها المحاطة بالصبار الذي لا تكف ألواحه الشائكة عن التناسل، حتى وهي تجاور الموت والموتى... دير غسانة لم تعد فكرة ولا خانة في الملفات**".[5] وبهذه المشاهدات عوالم بيئيّة متشابكة العلاقات بين الشعور في المدينة والقرية؛ إذ تعرض الرواية منذ دخول الكاتب (**الجسر**) انهماكاً عميقاً في البيئة؛ وظّف فيه الصورة المجازية التي أسهمت في مشاركة الطبيعة للأفعال الإنسانية ومشاعره في تلميحات بيئيّة تارة، وتصريحات تارة أخرى.

---

(1) المصدر السابق، ص61.

(2) المصدر السابق، ص74.

(3) المصدر السابق، ص100.

(4) المصدر السابق، ص103.

(5) المصدر السابق، ص99.

إن ما قدّمه الكاتب حول القرية والمدينة في الرواية، انقسم إلى شقين متناقضين، حاول الكاتب توضيح المفارقة في نشأتهما في الداخل الإسرائيلي، والضفة الغربية، ففي الوقت الذي تحولت فيه المدينة المحتلة لمدينة بطابع أوروبي من التحضر والمدنية، أصبحت المدينة في الضفة الغربية كالقرية لتوقف نموها العمراني والاقتصادي والصناعي والتجاري بسبب ما وقع عليها من قبل الاحتلال ، **"خسف مدننا إلى قرى،"**[1] وبهذا المشهد يعكس حقيقة ما قدّمه الاحتلال من إمكانات لتطوير مدنه، ومعرقلات لتطوير المدن الفلسطينيّة، وفق أيدولوجيّة فكر استغلالي ومحتل، إذ يسعى المحتل لتطوير ذاته وشعبه، وتجهيل الشعب الفلسطيني كما جهّل مدنه وبيئته.

الوعي البيئي كائن شرعي:

لقد قدّم الكاتب البيئة الفلسطينيّة بطريقة تسهم في عرض الحالة الإنسانيّة في ظروف الاستعمار، عبر عن خضوعها في صور تعكس الأفعال الإنسانيّة بوصفها "كائناً مشروعاً"[2]، **"ليست العمائروحدها هي التي يسقطها الوقت، خيال الشاعر محكوم بأنه آيل للسقوط"**[3]، وبالنظر في القضايا والفجوات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تظهر ملامح هوس الاستهلاك من جهة، وعدم احترام البيئة من جهة أخرى، **"كان لا يحترم الأعشاب التي تنمو بغير عناية الشخصية، كالخبيزة والميرامية، والمرّار، والخرفيش، رغم أنه كان يحاول عبثًا أن يعلمني أسماءها وخصائصها الأغرب في شفاء الأمراض... كان سيد الماء...استطاع وهو الأمي أن يروي كل الجبل وملأ الوادي بأقل قدر من الماء، بلا هدر ولا تبديد، كأنه مهندس داهية في علوم الزراعة"**[4]، ومع الاعتراف بأهميّة النباتات المهمشة، إلا أنها لاقت قلة الاحترام، وفق هلوسات فكريّة، تحكم الثقافة العربيّة، وهي احترام الأشجار على حساب الورقيات البريّة، وبهذه الإشارة أنساق مضمرة في طرق المعاملات، وأساس الاحترام البشري للآخر، فهو يُعلق على هذا الفعل بوعي بيئي، يرفض التراتبية بين الزرع، مؤكدا دور الماء في انتاج الزراعة الجيدة، وضرورة ترشيد استهلاكها والعناية بها، وهنا يؤكد الكاتب

---

(1) المصدر السابق، ص210-211.

(2) أ. سينو، نادين، (تأويل نقدي بيئي لروايتين عربيتين معاصرتين.. دراسة الأدب العربي الحديث بيئيًا)، ضمن كتاب (النقد البيئي.. مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ص231.

(3) (رأيت رام الله)، ص 107.

(4) المصدر السابق، ص 128.

التعلق الفلسطيني بأرضه وكل ما فيها من مكونات حية، يعرفها بدقة، ويعتني بها، ويُحافظ عليها، فهو المُستعمر في أرضه يعي جيدًا قدر الزراعة والماء في بلده.

ومع هذا الوعي البيئي الذي تجسّد في المشاهد الدراميّة، كجزء من الشعب الفلسطيني، يتصف بصفاته، ها هي الحاجيات تنتظر الإفراج عنها من جنود الاحتلال:"**إسرائيليون وإسرائيليات يرتدون قفازات النايلون وتفحصون محتويات ما تقتضي به الغرفة أصحاب الحاجيات ينتظرون الإفراج عنها**"[1]وهنا تظهر البيئة بحضور قوي المَعلم من خلال مشاركته الحالة النفسيّة والفعليّة للممارسات الاستعماريّة؛ لينسج الكاتب التفاعل بين البشر وغير البشر في وعي كل منهما بما يقدمه الاحتلال من تجاوزات في المعاملات الإنسانيّة.

ثم ينقل الكاتب أماله بالبقاء من النهش الاستعماري في دمج بقايا معالم البيئة ومنتجاتها، إلى كيان الدولة؛ في إنشاء فضاءات من مكوناتها البيئة الفلسطينيّة (نسيج السجّاد) كمحاولة لخلق عوالم بيئيّة (غير بشريّة) لها مركزيّة وأهميّة، تقدم الدعم المعنوي للكاتب في أمل للتحرير: "**نسيج السجّاد هو المستوطنات، عليها بعض النقوش متناثرة هنا وهناك، هي كل (ما تبقى لنا) من فلسطين. في الترتيبات التفاوضيّة الأخيرة خرجوا من منازلنا لكنهم يواصلون احتلال الطرقات المؤدية إليها. ولهم الحق في إيقافك على الحواجز الأمنية الكثيرة وعليك الانصياع**"[2] استطاع الكاتب تصوير منتجات البيئة (السجاد) التي تعمل جاهدة ككائن يدافع عن أصحاب الأرض الأصليين، الذين يعانون من الاحتلال رغم خروجه من منازلهم، فقد تعمّد الجمع بين المتناقضات البيئيّة في عبارات متتاليّة، ليسلّط الضوء على العدالة البيئيّة المفقودة في ظل الاحتلال من جهة، وبالمفاوضات الشكليّة أمام العالم من جهة أخرى، ففي الوقت الذي ذكر فيه مصطلح "**احتلال الطرقات**" ذكر في مقابله نعت الاحتلال للحواجز بأنّها "**أمنيّة**" في مفارقة جليّة، تفنّيد مسمياتهم المضلّلة، في مراوغة لفظية وبلاغية.

ثمّ يقول في يأس: "**تعلمنا التعود، كما يتعود راكب الأرجوحة على حركتها في اتجاهين متعاكسين. أرجوحة الحياة لا تحمل راكبها إلى أبعد من طرفيها. المأساة والمسخرة.**"[3] وبهذا

---

(1)المصدر السابق، ص 39.

(2) المصدر السابق، ص 51.

(3) المصدر السابق، ص131.

التصريح يوظّف الكاتب الخيال العلمي بوصف اليأس بحالة التعوّد على الحالة التي يعيشها اليوم، وما آلت له البلاد من احتلال اتصف بالاستبداد والفساد، إلا أن هذا التعوّد الذي لقّبه بالأرجوحة تجذّرت أساساته في أعماق الأرض في وحدة بيئية لتصبح جزء من الأرض التي حملتها، وإن كانت لا تتحرك إلا باتجاه المأساة تارة، والمسخرة تارة أخرى، وفي هذا الوصف نسق أيدولوجي عميق يفضي بالتعلق بالأرض مهما كانت الظروف.

وبما أنّ البيئة هي القوة التي يتنازع عليها الأطراف في الحروب الاستعماريّة، فإنّ تجاوز التاريخ عن ممارسات العنف لصالح الطرف الأقوى، يجعل من الضرورة سرد التاريخ من المُستَعمر وفقًا لرؤيته؛ لذا لم تكتفِ البيئة بالشهادة، إنها ظهرت في كائن يشارك الآخرين في مشاعرهم، ففي الوقت الذي غصت فيه صرخة الكاتب بوفاة صاحبه ناجي العلي، شاركه الرذاذ المعلق في السماء بهذه الصدمة التي توقفت عندها مسيرتهما -الصرخة والرذاذ- **"إنني أصرخ صرخة متصلة، ممتدة. أعجزعن استردادها من الهواء كأنها علاقة هناك في ذلك الرذاذ الذي كان يبللنا معًا، أنا وأسامة وجودي وليال وخالد ووداد، كأنها تنوي أن تظل معلقة في السماء إلى يوم القيامة تلك السماء البعيدة تلك السمات التي لم تكون بيضاء ولم تكون زرقاء ولم تكن تخصنا ولم تكن تعرفنا ولم... تكن...!"**[1]

ثمّ يوصف المكان بتغير **"ملامح الأرض الفلسطينية.**[2] موظفًا كلمة ملامح كبديل لوصف الصور المروعة لدمار الحرب في أنسنة تامة لبلده، فهو لا يقصد تغير الموقع بسبب الجغرافيا السياسية فحسب، بل يعني الوضع الاجتماعي الجديد الذي اجتاحه الصهاينة بمستوطناتهم الجديدة، وفق بنية ديناميكيات اجتماعي جديدة، مشخصًا للأرض الفلسطينيّة في ملامح بشرية، ليعكس الكاتب رؤيته للعلاقات الإنسانية بالمكان، ويجسد شعوره بالخسارة، فملامح فلسطين اليوم تمثل مظهرًا جسديًا جديدًا، فيها إشارة للمدن والقرى الفلسطينيّة المدمرة، وكأنها تحمل تضاريس جديدة غريبة، جراء ما أحدثه المحتل من تجريف للقرى والمزارع، وإعادة التسمية للأماكن والقرى، وبناء المستوطنات، والتغير في كل ملامح الشكل الاقتصادي والبيئي والسياسي للمنطقة، هذا كله لاق تأييد في السياسات الدوليّة.

---

(1) المصدر السابق، ص34.

(2) المصدر السابق، ص48.

كذلك ارتبطت الكتابة السرديّة بمجازات الأرض، التي تفسر الجذور المنتمية لها، والأصول المختلفة رغم الشتات، فظهرت النزعة الأنثروبوسينية المهتمة بالتركيز على الإنسان والحيوان في الوقت نفسه، وإشراك الحيوانات وصفاتها للأعمال الإنسانية، كوصف المجاهدين بالأسود...

وإن أعمال الاحتلال لم تكن سوى "إبادة إيكولوجيّة"، ففي مؤلفاته تتقارب الاهتمامات بالعدالة البيئية: " **سيكون طويل القامة أبيض الوجه يرتدي قميصًا مفتوحة العرى بدليل أنه قال شيئًا إما باللغة العربية، لم يتحدث كثيرًا وإلا تأكدت، إن كان عربيًا أو يهوديًا، بدأت الأمور تختلط، كنا نقرأ عن العمال العرب في إسرائيل هل هو عامل عربي في إسرائيل؟ هل هو يهودي؟ ويعرف العربية؟ ملامح الوجه وحدها لا تكفي للتميز بيننا وبينهم...**"[1]وهنا تكمن الإبادة البيئيّة بالامتزاج المتعمّد والمقصود من طرف واحد، ففي امتزاج المحتل مع الآخر إبادة لكيان صاحب الأرض.

لقد وظّف الكاتب الطبيعة كأداة للتعبير عن الثيمة السرديّة في الرواية، في وعي بيئي لازم تداعيات الأحداث منذ بداية الرواية إلى نهايتها، في عرض لاستقصاء وفحص كينونة المستقبل الفلسطيني، في توظيف البؤرة البيئيّة، التي تتخذ موقفًا إزاء الاحداث السياسية، بعد تعرضها للضرر الكامن في الدمار والتخريب والزحف العمراني، وزيادة عدد السكان، ناهيك عن الدمار البشري، من قتل وتهجير، وأسر، وهدم؛ تلك البؤرة المتضمنة لثيمات تركز على ما تصنعه الحرب من فقدان للهوية، التي تمثل مصير الشعب المُحتل، الشعب الفلسطيني.

بين الأنا والآخر:

هناك تداخل في معاني المفاهيم، إذ يوجد بين الأنا والذّات والآخر فوارق تمثلها الهويّة، التي يحتفظ بها الإنسان؛ ليعبّر عنها وتحميه، فهي تشكّل له أهميّة وجوده، وهي ما تعطيه الثقة والأمان والقوة لمواجهة العالم، وتتجسد الهوية عبر الانتماءات المتنوعة والمتعلقة بالعمر والجنس والطبقة والموروثات الاجتماعيّة؛ لتشكل الروح الإنسانيّة الواعيّة، المُعبّر عن الذآت، التّي تنتمي للأنا الفرديّة أو الجمعيّة الـ نحن، وهي التي يقاومها الآخر للسيطرة على الأفراد والهيمنة عليهم، ومن أشكال الهوية: "العقيدة، واللغة، والفن، والأدب، والنظم الاجتماعية".[2]

---

(1) المصدر السابق، ص37.

(2) راجع: حمود، ماجدة، (إشكالية الأنا والآخر.. نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013، ص15-16-17(بتصرف). وراجع: محمد، زكي نجيب، (في مفترق الطرق) دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط2، 1993، ص310.

وفي هذه الرواية تعدّدت الهويات وتفرعت، فكان الأنا الفلسطينيّة مرتبطة بالأنا الأرض، والذّات الممثلة للفلسطيني اللاجئ، والنحن الفلسطينيّة والعربيّة، المتعلقة بالنحن مع الأرض، مقابل الآخر الذي مثّله العدو أحيانًا، والفلسطيني المواطن مقابل اللاجئ أحيانًا أخرى، كما كان العربي من ال(نحن) أحيانًا، ومع الآخر أحيانًا أخرى، مفارقات في العلاقات المختلفة، حكمتها السياسة والمصالح الشخصيّة، فكانت تندرج كجزء من الفكر والأيدولوجيات التراتبيّة التي تدعو للاستغلال والتسلط.

فقد مثّل الآخر سببًا في ضياع الهويّة الفلسطينيّة (نحن)، وضياع هويّة الأرض كذلك، باستغلالها وسلبها ومنعها من حقها بالتطور والنمو: **"كم موهبة انكسرت منذ النّكبة في هذه البلاد؟ كم مدينة ذبلت؟ كم دارًا لم يصُنها أحد؟ كم مكتبةً كان يمكن أن تتأسّس في رام الله؟ كم مسرحًا؟ الاحتلال أبقى القرية الفلسطينيّة على حالها وخسف مدننا إلى قرى."**[1]ففي معالجة العلاقة الإنسانية بالبيئة ومكوناتها، وفقًا للمشاهد الدراميّة للرواية، تعكس توافقًا فكريًا يصل إلى حد الوحدة، بين ما يمثّله الآخر للإنسان الفلسطيني، والأرض الفلسطينيّة، في ممارسات فكريّة وسلوكيّة واحدة اتجاه الطرفين معًا، تمثلت بالدمار والهدم والحرق والقتل والتشريد وطمس الهويّة بشتى الطرق العمرانيّة، والثقافيّة، والتعليميّة.

وتلك أسباب اقتصاديّة ودينيّة وسياسيّة، مرتبطة بالإنسان بشكل مباشر، على اعتبار أن المكان (ركيزة إنسانيّة)،[2]لتتمثل هذه الركيزة ضمن إشكاليّة سياسية بأبعاد أيدولوجيّة متشابكة[3]، أسهمت في بناء أنثروبولوجيّا جديدة فيها تجسيد للهويّة، وعلاقة الذات مع الآخر، ومفاهيم الاغتراب، والوطن، والأرض، والمنفى، والموت.

فكان من نتيجة هذا الاحتلال أو الاستعمار تغيير الفكر والثقافة عبر الأجيال، هذا التغيير شمل بنيات مجتمعيّة متكاملة داخل البلاد وخارجها؛ ذلك بسبب التشريد والطرد وما تبعه من تغيرات طالت الأجيال، وتأثرهم بالبيئات المختلفة التي يعيشون فيها.

---

(1) (رأيت رام الله)، ص210-211.

(2) راجع مدخل كتاب (شعرية المكان في الأدب العربي الحديث)، ص 11-12.

(3) جاووت، الطاهر، (السرد وتشكيل الهوية قراءة في رواية "البحث عن العظم")، مجلة المَخبر، العدد 13، ص86.

"... كانت الصورة قبل عودة منظمة التحرير هي صورة الفدائي، صورة البطل/ الضحيّة، التي تستحق التعاطف والتمجيد.. الآن ها هو الفدائي ذاته (مكبلًا باشتراطات أعدائه) يمارس سلطته المباشرة على المواطن العادي... بل إنه يعتقل المواطنين أحيانًا ويسجنهم ويقاضيهم ويعذّبهم. هذه الصورة جديدة تمامًا على أهلنا."[1] وهنا تظهر المفارقة في الفكر حول (الذّات الفلسطينيّة) إذ تغيّر المعتقد حولها نفسها مع مرور الزمن، وفقًا للتغيّرات السياسيّة التي أحاطت بها، ومن الاندماج والوحدة مع الطبيعة المغتصبة بهدف الجهاد سعيًا للتحرير، إلى للأرض وشرعيتها باستسلام كامل لمعاهدات سلام وهمية لاإنسانيّة، فتغيّرت الجملة الثقافيّة من جيل إلى آخر، متحولًا إلى نسق فيه تراتبيّة مضمرة لأفراد الشعب الفلسطيني، لتتغيّر العلاقة من المثاليّة والمساواة، إلى الهيمنة والاستغلال من قبل السلطة الفلسطينيّة ضد الشعب نفسه، فتصبح في مقام (الآخر) وتخرج من دائرة الذّات الفلسطينيّة كما رسمها الكاتب بداية الثورة، أو الانتفاضة.

فقد شكّل اختلاف الأجيال في شقيّ الرواية الماضي والمستقبل تسارعًا نسقيًّا مضمرًا مأساويًا في شكله الدرامي، يقدّم نتاجات لتحولات كبيرة في حركة المجتمع واستجاباتهم للتّعبير عن الذّات مقابل الآخر نتيجة للاستعمار، لم تسلم من المشاركة فيها البيئة بحالة يمكن وصفها بالمربكة، فقد ظهرت في الرواية بعدد من الأوجه، تتشابه مع الإنسان في الوعي المتناقض، المترجم في حالات مختلفة خلال المشهد الدرامي، فهي بين التابع أو المشاركة للشخصيات، والمحرضة، والضحية، كما ظهر سابقًا في تشكيل المدينة بوجه استعماري جديد، وقلع أشجار التين والزيتون، والاستشهاد بأوصاف الحيوانات مثل: "**الغراب/ الدولفين/ الجرذ/ الدجاجة/ العصفور...**" [2] كلها أمثلة تشي بوعي الكاتب في معايير العلاقة العربية مع البيئة المحيطة به، فهو لا يُبرّئها بالمطلق، ولا يستغلها بالمطلق، ولا يعاديها بالمطلق، وإنها مصنفة لديه في تراتبيّة تتحدد بمدى فاعليتها وأهميتها الكونية وتأثيرها بالإنسان.

وبظهور الوعي عند الفلسطيني حيال التغيّر في السلطة الفلسطينيّة، لاقت استجابة من نوعين في المجتمع، ظهر الأول بالموافقة والتأييد، وكان الثاني بالمعارضة والتنكيل والسخرية،

---

(1) (رأيت رام الله)، ص 36.

(2) المصدر السابق، ص 115/ 114/ 70/ 22.

"...**أوضاعنا المستجدة و القيود التي تكبل قرارات السلطة الوطنية... ثم يؤيد لكنه يريد أن يبدو معارضًا!**"[1]، وهنا ظهر الاختلاف الفكري بين أفراد المجتمع العربي، وفي الأسرة الواحدة (الآخر الفلسطيني/ والآخر العربي)؛ مما أدّى إلى تغيّر العلاقات بين أطياف المجتمع الفلسطيني، وفقًا لانتمائهم السياسي، وصفها الكاتب بقوله: "**هذه صورة جديدة تمامًا على أهلنا**" وهنا ظهر الوعي من قبل المثقفين والسياسيّن غير المنحازين في فكرهم لرأي حزبي، هذا التنوع في الصورة أدى لتنوع في الرأي في الوقت نفسه، فهو يشير إلى أنساق ثقافية دفينة تنبذ التنوع الفكري، مما أدى إلى التباس فكري وتناقض في المفاهيم، تتصارع فيها الذات بين الموضوعيّة في تقبل الآخر، برغبة واعية من الضمير الإنساني الفطري، وبين مفاهيم تورط في اعتناقها مكتسبة من بيئة الطرد والتشرد واللجوء؛ لتتسارع التداعيات في الرواية فتنتقل أحداث الرواية في فجوة الذات الفلسطينيّة هل هي في أصلها ذات عربيّة، أم أنها غريبة لاجئة وغير مقبول بها، وهنا وصفه الكاتب بـ "**الغريب**[2]" الذي لا يمكنه التخطيط لحياته، فهو مثل "**المنفي والسجين**"، لا أمل له بالعيش الآمنة، لعدم توفر البيئة الآمنة.

وبهذا تنوعت الأنا بتنوع الآخر في الرواية، ففي الوقت الذي ظهر الآخر واضح المعالم في نزاعات الاحتلال، ظهرت الأنا بأشكال مختلفة، تمثلت بالأنا الفردية لكل من الفلسطيني والبيئة (فلسطين)، كذلك ظهرت الأنا الجمعية المتمثلة في الفلسطيني المُحتل والعربي المُتعاطف، ثم ظهرت الأنا اللاجئ. كما تنوعت أشكال الآخر مقابل الأنا الفلسطيني وفقًا للموقف السياسي المهيمن عليه، أسري، ومجتمعي، وعربي، وغربي، ومع الآخر المحتل: "**لم أدخل بسهولة إلى أي بلد عربي، وفي هذه الظهيرة لن أدخل بسهولة أيضًا**" و"**هل هو عربيً أو يهوديً ابتدأت الأمور تختلط، كنّا نقرأ عن العمال العرب في إسرائيل هل هو عامل عربي في إسرائيل؟" هل هو يهودي يعرف العربية**؟"[3]

كما رصدت الرواية عددًا من الحوادث التاريخيّة المختلفة سواء في فلسطين أو المنطقة العربية[4]، كشاهد على ما تقدمه الحروب من دمار وخسائر بشريّة وبيئيّة وبكل مكوناتها الإحيائيّة وغير الإحيائيّة مثّلت تنوع في الأنا والآخر.

---

(1) المصدر السابق، ص 181.

(2) المصدر السابق، ص 190.

(3) المصدر السابق، ص23/ 30/ 37/ 40/ 66/ 82...

(4) المصدر السابق، (تظاهرات بغداد) ص64، (تأميم القناة) ص64، (حرب 1948 وحرب 1967) ص65/ 44/ 42.

كذلك وظّف الكاتب في تصويره للجسر، تحديدًا للهوية (الأنا والآخر) داخل حدود فلسطين وخارجها، مبينًا في تهويل خطابي لآثار الحرب، مستفيدًا من ذكريات زمن مضى في محاولة لتآلف النفوس، ومحاولة جادة لحل الأزمة البيئيّة المستقبليّة قبل وقوعها، التي تكمن في تعدد الذات الفلسطينيّة وانقسامها؛ مما قد يؤدي إلى عراك داخلي بدلًا من مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، في تعصب فكري لرأي أو حزب، وللوقاية من هذا الوباء الفكري يجب إحياء أفكار قديمة تحمل الصفاء والنقاء والطهارة، مثّلها من خلال تكراره كلمة " **نحن**" التي أشار من خلالها للشعب والوطن والأرض في ثلاثة وثلاثين موضعًا: "**هي القدس التي نسير فيها غافلين عن "قداستها" لأننا فيها...لأنها نحن". " الآن، نحن لا نستطيع دخولها سائحين ولا طلابا ولا عجائز". "ورغم ذلك كله فلم أكن ذات يوم مغرمًا بالجدال النظري حول من له الحق في فلسطين... فنحن لم نخسر فلسطين في مباراة للمنطق! لقد خسرناها بالإكراه وبالقوة". "نحن ضحايا الحرب والعنف". " بعد الانتفاضة الشعبية على أرض فلسطين ذهبنا الى اوسلو .دائما نتكيف مع شروط الاعداء من ال٦٧ ونحن نتأقلم ونتكيف !" "نحن ضحايا الحرب والعنف"...** [1]

إن ما يقدمه النقد البيئي من تسليط للضوء على المضمرات الثقافية والفكرية لما بعد الاستعمار التي تحيط بالثيمة الروائية؛ تسهم في حل الأزمة البيئيّة، في مجالها التوعوي والثقافي، حول العلاقات البشريّة، والعلاقات البيئيّة المتصلة بالعلاقات البشريّة، تكمن حماية البيئة والأداء في البيئات وثيقة الصلة بالمجتمع، والمجال الدرامي التطبيقي والقانون السياسي، الذي يظهر النقص في سن القوانين الخاصة في السياسة البيئيّة [2]. بالإضافة إلى قوانين جودة البيانات البيئيّة. [3]

كما قدّمت الرواية استجابات الجمهور، وفقًا للتصعيد السياسي وما تؤثر به على البيئة، يحدّد الأزمة البيئيّة في المنطقة، والمتمثل في العلاقات المختلفة وتطور الأزمة بينها، وبهذا الطرح

---

(1) المصدر السابق، ص 20/ 64/ 205/ 67...

(2) Heddon, Deirdre, and Sally Mackey. "Environmentalism, performance and applications: uncertainties and emancipations." Research in Drama Education: The Journal of Applied Theatre and Performance 17.2 (2012): 163-192.

(3) Herrick, Charles N. "Objectivity versus narrative coherence: science, environmental policy, and the US Data Quality Act." *Environmental Science & Policy* 7.5 (2004): 419-433.

تهويل لتداعيات الأحداث ينتج عنه رعب بيئي، قد يبدو لبعضهم بأنه غير منضبط، لما حمل من تهويل ومبالغة وتضخيم للمواقف الاجتماعيّة، إلا أنه يُعد خيالًا دراميًا متوقعًا لا فنتازي، في تنبؤ مشروع ومدروس لأحداث مستقاة من التاريخ، قد تكرّرت فيه الأحداث نفسها بانقسام الذّات القوميّة لعدد من الفئات بآراء سياسيّة مختلفة، أدت إلى وقوع حروب أهليّة، أو فرقة اجتماعيّة؛ وهنا يتجلى الغرض من المضمرات البيئيّة التي تدعو المتلقي إلى التعقل، وقبول الرأي الآخر (الفلسطيني) من دون تراتبيّة وعنصريّة، كذلك حث السياسيات على ضرورة تحديد القوانين والتشريعات السياسيّة لحماية الإنسان، والطبيعة معًا من الطرد والعنف والقتل والتشرد.

لقد أتاحت رؤية" الذات "الأصليّة للبيئة التي يتم التعبير عنها ضد" الآخر "المحتل أو الإمبريالي أو الاستعماري الذي يستغل الأرض ويسرقها، من قبل الاحتلال الإسرائيلي، والصهيوني، التأكيد على الحق في الأرض ليشمل تقويض المطالبات المضادة، بالدعوة لسرقة أرض تجمع شتات العدو، باستدعاء خطاب التغيير الذي يسعى لخلق جيل بفكر جديد، يخطط له المحتل بقبول التعايش والاستسلام للاحتلال في وجه جديد للقهر البيئي، يمكن تسميته بالعنف البطيء. لذا كان لابد من تفصيل المآرب الاستعماريّة وفهمها جيدًا لإيجاد حل للأزمة الحاليّة والتي نعتها ادوارد سعيد "بعالم تربيتي الكولونيالي"[1] في محاولة لفهم خطر الاستعمار لا على المستوى الجغرافي، بل على المستوى الفكري.

***

ثالثًا: الخيال النّسوي والسّؤال الأخلاقي البيئي:

تُعد الفلسفة النسويّة البيئيّة من الفلسفات التي- في ظاهرها- يُمكن نعتها بالفطريّة، إذ ربطت- في الأدب وعبر الزمن- بين المرأة والطبيعة؛ نتيجة لذلك كانت قضايا النّسويّة تتوازى مع نظرة الاضطهاد بأشكاله المختلفة للبيئة، وتشكلت في عملية تبادليّة تقتضي فهم مشكلات المرأة مع الإيمان بضرورة القضاء على تلك المُشكلات؛ مما يُسهم في فهم الطبيعة والمشاكل البيئيّة المختلفة والمصاحبة لها، وكأن المرأة والبيئة وجهان لعملة واحدة؛ وذلك لاشتراكهما غالبًا في أزمات متقاربة،

(1) إدوارد سعيد، (خارج المكان، مذكرات)، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1 ،2000، ص8.

دامت في إطار الاضطهاد والقيود والتهميش؛ لهذا تُدرس بيئيًّا ضمن الاضطهاد البيئي النِّسوي من الهيمنة الذكوريّة أو الاستغلال بنوعيه المادي والمعنوي، والقمع والاستبداد.

لذا كان النّقد البيئي متقاطعًا مع النقد النسوي بانسيابيّة؛ في تحديد ما تقدمه الذات، والعلاقات والمغالطة في المعاملات بينهما، قدّم وعيًّا في نوع العلاقة التي يمكن نعتها بالعلاقات السّامة؛ لأنّها لا تقوم إلا على المصالح والاستغلال، أدى ذلك إلى ثورة في إعادة الشعور بالذات، ومحاولة جديدة في تقييم الثقافات عامّة والأدب خاصّة، وتحديد مدى الوعي بالأنا، والبيئة، ومكاشفة تمايز الأخلاقيات البيئيّة الذكوريّة والأنثويّة؛ لنشر العدالة البيئيّة والاجتماعيّة على حد سواء.

وبامتزاج العلاقات بشكلها المعقد بين البيئة والاستعمار والسلطة الأبويّة، تظهر الحركة النسويّة من بين الركام في محاولة لوقف استغلال البيئة والمرأة، ذلك بتسليط الضوء عبر عدسة نسويّة للبيئة ومكوناتها؛ لتحديد المُشكل الذي يهدد المجتمع النسوي، بهدف المحافظة على التوازن البيئي، واستمرار الحياة، وحماية المجتمع من العنف، والظلم، والتراتبيّة وفقًا لأنماط الإنتاج، والطبقة الاقتصاديّة.

وفي تحديد للإطار المفاهيمي حول المعتقدات الأيدولوجيّة، والقيم، والمواقف التي تُسهم في بيان القانون الخاص بالتدابير البيئيّة النسويّة وفقًا للقواعد الأربعة الآتية: "الالتزام بالعقلانية، وتصور البشر على أنهم كائنات عقلانية قادرة على التفكير المجرد والترفيه عن المبادئ الموضوعيّة، كذلك تصورات كل من الفاعل الأخلاقي المثالي والمُعَلِم على أنهما نزيهان ومنفصلان، بالإضافة إلى الإيمان بالثنائيّات الأساسيّة، مثل العقل مقابل العاطفة، والعقل مقابل الجسد، والثقافة مقابل الطبيعة، والحكم المطلق مقابل النسبيّة، والموضوعيّة مقابل الذاتي، وافتراض وجود فجوة أنطولوجيّة (وجوديّة) بين البشر والحيوانات غير البشريّة والطبيعة؛ والقابليّة للتعميم كمعيار لتقييم حقيقة المبادئ الأخلاقيّة والمعرفيّة"[1].

(1) Warren, K.J. and J. Cheney, 1991, "Ecological Feminism and Ecosystem Ecology" , Hypatia, 6(1): 179–197 ,Wilson, H., 1997, "Kant and Ecofeminism" in Warren 1997: 390–411, ecology (Warren 1987, 2000; Warren and Jim Cheney 1991).

وبهذا الوعي النّقدي والنّضوج الأخلاقي الذي يسلّط الضوء على الرعاية النسويّة البيئيّة، ومنها رعاية التعاطف والقبول، باعتبارهما ضرورة أخلاقيّة، ومن الناحية النفسيّة ما يسمى بالذكاء العاطفي، جاء التأكيد على ما يجمع بين المرأة والطبيعة، فهما بحاجة إلى الرعايّة بالإضافة إلى العدالة، التي تركز على الرعاية لأخلاقيّات النسويّة البيئيّة؛ لذا تُعد حركة النسويّة البيئيّة دراسات تبحث في تسوية مطالب حركة النسويّة وتوحيدها مع الحركة البيئيّة ومطالبها، لما في ذلك من تشابه وتشارك في الممارسات الأخلاقيّة إزاء الفئتين على حد سواء؛ ومنها تأمين سبل العيش والرعاية اللازمة لبناء مستقبل أكثر مساواة واستدامة.

وظهرت هذه المطالب في أنساق ومضمرات بلاغية عبر الكتابة النسوية العربية، حيث ظهر فيها طرق المعاملة للمرأة الموازية للطبيعة والمتشابهة معها في الفكر والطرح؛ فقد عبّرت عنها المرأة بانعكاسات نفسيّة جليّة، إذ لا تخلو الرواية النسوية من تحالف نسوي مع الطبيعة.

ومنها ما قدّمته سميحة خريس في رواية (خشخاش- 1978)[1] من تمثيلات القهر الأنثوي في إسقاطات بيئيّة، كان فيها المنظور السردي معبرًا عن مرور ملتبس بين علاقة المرأة في الحياة من جهة، وعلاقتها في الطبيعة من جهة أخرى، في يوميات ورسائل امرأة محدودة الأطر في تجربتها الحياتيّة، ومشروطة الأفعال والأقوال، وكان من أعمالها النسويّة أيضًا رواية (الصحن- 2003)، التي أظهرت همّها النسويّ والقضايا المتعلقة بها، في محاولات للإجابة عن أسئلة وجودية ترتبط بها، بل إنّ مجمل أعمالها مولعة بالبيئة والطبيعة، فعلى مستوى العناوين لنصوصها السرديّة القصصية والروائية نجد الآتي: (مع الأرض، مجموعة قصصيّة، دار الأيام، الخرطوم، 1978) وروايات: (المد: دار الشروق، عمان، 1990) و(شجرة الفهود: تقاسيم الحياة، دار الكرمل، عمان، 1995) و(القرميّة، منشورات أمانة عمان، 1998) و(خشخاش، دار الدراسات العربية، بيروت، 2000) و(دفاتر الطوفان، منشورات أمانة عمان الكبر، 2003) و(الصحن، دار أزمنة، عمان، 2003) و(نارة.. امبراطورية ورق - عن دار ناره عمان 2007) و(على جناح الطير - دار الحوار - سوريا 2011).

---

(1) رواية (خشخاش)، صدرت عام 1978م للكاتبة سميحة خريس (1956-...)، ضمن منتج روائي يكاشف الفكر الأنثوي الذي يسلط الضوء على الصراع الذاتي للمرأة في المجتمع العربي المنغلق اجتماعيًّا، وسياسيًّا، وثقافيًّا، بما ورثه من أفكار وأيديولوجيات تراتبية، تفرق بين الرجل والمرأة، وتعتمد المركزية الذكورية إذ تحاول الرواية الوصول لتسوية بين الأنا والآخر لإثبات الهوية الأنثوية، راجع: خريس، سميحة، (خشخاش)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2000.

وفي استبطان أنثوي هادئ تتفتح علامات الخطاب البيئي الذي يساعدها على طرح عدد من التساؤلات الحاسمة في مسيرة حياتها، وأهدافها وطموحها. فقد حاولت الكاتبة إعادة فهم حياتها، بولادة جديدة لشخصيّة وهميّة تعرفها جيدًا، وتتعاطف معها، ومع ما تعيشه من اضطهاد وإهمال، وفوضى، وهدر لأوقات يومها، وحياتها في أجندة أعمال روتينية ومملة، من دون هدف، فقد ظهر في الرواية المنظور النسوي البيئي بشكل عبثي مقصود؛ لكي تكسر نمط المرأة الواقعيّة التقليديّة التي تخاف من أسرارها وأعماقها، وأنه آن الأوان- إذا انتصرنا إلى البيئة والأخضر عبر نبتة خشخاش التي تحولت إلى أنثى- أن نردّ لها أمنها، وحريّتها، لكي تمسح تاريخ الخوف من التشوهات التي طالتها، فالمرأة هنا منظور نسوي بيئي رومانسي الطابع.

فظهرت العلاقة بين الشخصيّة الرئيسة والشخصيات الوهميّة في شكل سردي قائم على إستراتيجيات الحوار والمناجاة، نِسوي الهيئة، وبيئي التكوين، إذ تجسدت الشخصيات الوهميّة من النبات الأخضر عريض الأوراق (خشخاش) إلى امرأة ذات ذيل سمكة، تروي قصتها حين كانت سحلية، في حواريّة دراميّة تحمل ثيمات نسقيّة عميقة تخطّت الواقع الإنساني، في استبطان عمق الفكري النِّسوي، من إحساس بالقيد والوحدة والتهميش، الذي يدفعها إما للإصرار وإما إلى الجنون، وهي تراقب عمرها ينقضي في تغير ملامح وجهها بظهور خطوط ضيقة متراكمة تعبّر عن الزمن، "**اقتربت من المرآة أكثر، كانت تراوغ، أراني شابة تتسلل الخطوط إلى وجهي أتذكر أن جفنيّ كانا مشدودين، وألمح ارتخاءً طفيفًا، أعرف معناه، هو العمر يداعبني،**" "**حاولت المرآة القبيحة استفزازي هذا الصباح، كثفت كل ضربات السنين فوق وجهي لتقول أنه متورم ومتغضن، وأن عيني فقدتا بريقهما، أترى، كان لهما بريق ذات يوم؟!**."[1]

وإزاء هذه التمثلات التي ربطت القهر الأنثوي بانكسار أنثوي زمني؛ ظهرت تمثلات القهر الأنثوي في حبكة دراميّة جسّدت لحواريّة ذاتيّة هي: ذات المرأة (الإنسان)، وذات المرأة (البيئة)، فتتشكّل الذّات الأنثويّة والبيئيّة المحبطة حينًا والمتمردة حينًا آخر؛ لما تشعرا به من التراتبيّة والدونيّة أمام السلطة الراديكاليّة المهيمنة، وفيما يأتي تفصيل لملامح النسويّة البيئيّة المقهورة الممثلة في الرواية:

---

(1) (خشخاش)، ص 69-75.

الطبيعة وتمثّيلات القهر الأنثوي:

أدى التكرار الكبير من المشاعر الملوّنة والمستسلمة لروتين عيشها الفارغ إلى بناء حبكة دراميّة خياليّة الصبغة؛ ابتكرته الشخصيّة الرئيسة التي كسرت رتابة الإيقاع النمطي المعتاد لحياتها؛ في تماهي وقع بين الكاتبة والشخصيات الوهميّة، إذ اندمجت معها بكامل فكرها؛ طامحة بذلك تحقيق هدفها؛ بالتّحرر من قيد الحياة المملة، ومن روتين عيش فرضه المجتمع فيه الأعباء كثيرة و متراكمة، تتمثل بقائمة طويلة من الأعمال اليوميّة، والمهام المتكررة مدى الحياة؛ لتحدد قرارها وتبدأ بتفكيك بنية هذا المجتمع على وقع إيقاع البنية السرديّة[1]؛ في ثيمة خياليّة بأسلوب يُعنى بالفكرة النسويّة البيئيّة، **"(قررت الفرار) صرخة حبيسة داخلي."**[2]

وبالرغم من شعور الكاتبة بالهدوء والسكينة اللذين يسيطران على الشكل الخارجي للحياة، وفقًا لأيدولوجيا وهميّة توحي بالرفاهية، في عمليات تجميل لواقع يخدم المصلحة الذكوريّة، الذي تولّي موقع السيطرة، والشعور بالهيمنة، وبتهميش شريكته التي توفر له سبل الراحة، وبالرغم من عيشها البسيط والروتيني، فإنّها لا تزال تقدر عقل المرأة، وأهمية وجودها في المجتمع، مثل الكاتبة التي شعرت بالغيرة اتجاهها، **"هناك نساء حققت نجاحات معقولة، ولكنني شعرت بالغيرة من هذه، رغم أن زوجي ظل يقشر البرتقال منصرفًا عنها ولم يرفع عينه باتجاه الشاشة إلا مرتين دون أن يصدر عنه أي تعليق،"** [3] **" كان الأولى أن أغار من ليليان أندراوس؛ تظهر علينا بوجه كالبدر، ودلال وغنج رقيق، تغازل المشاهدين بنظرات عينيها المدربتين، وتجعل زوجي يلتصق بمقعده متنهًا راسمًا على وجهه بسمة عريضة، ناظرًا نحوي شزرًا، كأن خطيئتي أن هناك امرأة بهذا الجمال، وإذا ما تجرأت وقلت أن هذه المذيعة سمينة، ضحك أهئ أهئ أهئ... سمينة!!، يا عيني على الرشيقات!!!"** [4] وهنا تؤكد الكاتبة على أهمية تغيير المعتقد حول المرأة من المرأة أولًا، في إشارة إلى أنّ الجمال ليس الشيء الوحيد الذي يميز المرأة، فهي لا تأبه بغيرة ماديّة،

---

(1) Najera, Marina. Nature as Feminine: An Eco-Feminist Reading of Selected Latin American Narrative. University of California, Riverside, 2018, P 4

(2) (خشخاش)، ص 25.

(3) المصدر السابق، ص24-23.

(4)المصدر السابق، ص 23-24

بل إن المرأة يجب أن تهتم بما هو أسمى، لذلك شعرت بالغيرة لكاتبة مثلها فاقتها شهرة، بنشر مؤلفاتها، فهي تلتفت لغيرة علميّة لا غيرة ماديّة كما علّمها المجتمع وفقًا لأيدولوجيات متوارثة.

وفي وصف ردود فعل الزوج خلال السرد الروائي تتضح شخصيته التي قدّمتها بتشخيص تصويري يكشف فكره الذكوري المهيمن، والمهمش للمرأة بوصفها مفكرة، أو مبدعة، والمهتم بالمرأة بوصفها منظرًا طبيعيًّا، يمكن التمتع بشكله وجماله، وبهذا الموقف يُصرح بطريقة غير مباشرة عن مكنون فكري مجتمعيّ، يحمل فلسفات نسقية ذكورية، لا تنظر للمرأة إلا لشكلها، وكأنها من مقتنياته، التي يجب أن يحوز على أجملها وأجودها، فلا يعتني بجوهرها الفكري، ذلك التصنيف التراتبي الذي تشعر فيه الكاتبة، بأنّها من الدرجة الثانية مع البيئة ومكوناتها لإحساسه بالتفوق عليهما، وجواز استغلال الرجل لها إنما لتفوقه عليهما في العقل والمنطق؛ ولهذا تلجأ المرأة إلى البيئة التي تجد فيها المحفز الحقيقي لتحقيق حلمها، ففي الوقت الذي لم يبدي زوجها الاهتمام بحلمها في التأليف، مما أصابها بالإحباط والقهر، بدأت برؤية الوميض الأخضر الذي كان فيما بعد حليفها الذي يقدم لها الدعم والتحفيز للكتابة، بل ومدها أيضًا بالأفكار الدرامية.

فقد تنوّع القهر الأنثوي في الرواية، الناتج عن عدد من الأسباب الاجتماعيّة والنفسيّة، كان أولها الراديكاليّة الذكوريّة، بسبب سلوكه اتجاه الأنثى من التهميش والاستغلال؛ لأن الحب يصبح معقدًا، بل تالفًا، إذا خضع لميزان القوة؛ فهو ينجح بتبادل الضعف في وجهة أساسها المساواة."[1] أما إن كانت العلاقة الزوجيّة قائمة ضمن أيدولوجيات هياكل الأبوية المهيمنة فلابد من أن تنتج قهرًا أنثويًا مؤلمًا.

ثم قدّمت الرواية وصفًا للقهر الأنثوي للذات الأنثويّة نفسها، من خلال اللّوم وقلة الثقة، والاحباط وفق تراكم فلسفي وفكري نشأ عليهما المجتمع المهيمن في مجال "انتهاك للسلوك الأخلاقي البشري"،[2]فهي لا تُقدر ذاتها، ولا تؤمن بإمكاناتها الفكريّة والعمليّة، ووفقًا للأطر المفاهيميّة القمعية التي تكمن في هياكل الهيمنة، في التسلسل الهرمي للقيم، تظهر فيه تبعيّة النساء والكائنات الهامشيّة الأخرى، في مجال من الغيريّة أُنشأت من أجل التبعيّة الفعالة التي تؤسّس المرأة على أنها

(1) Shulamith Firestone,) The Dialectic of Sex, Publisher William Morrow and Company) , 1970, P185

(2)Scherr, Amanda. "Feminine Essentialism and Compulsory Maternity in the Works of Mary Wollstonecraft." The Albatross 9 (2019): 24-33, وراجع (Nature as Feminine: An Eco-Feminist Reading of Selected Latin American Narrative) , P16.

رمز نسوي أيديولوجي جوهر وجودها يتعلق بالجنس والأمومة مبنيّة على المفاهيم التقليديّة للأمومة، باعتباره الدور الأساسي للإناث.

كما جسّدت الرواية القهر الأنثوي الناتج عن المرأة للمرأة، تلك التي تتماشى وأهواء المجتمع الذكوري، في تثبيت الصورة الاستغلاليّة للمرأة بصفتها الطبقة الثانيّة في المجتمع، بخضوع تام ممزوج بالاستسلام والتسليم، من دون المحاولة للخروج عن المنطق المجتمعي السائد، فتخضع إحداهن الأخرى وفقًا للعرف المجتمعي السائد.

وبهذه المواقف نشأت تداعيات درامية شكلت الحبكة في الرواية، ففي قرار الفرار المُكاشف لأشكال القهر الأنثوي ظهرت البيئة التي شكّلت الذات الأنثويّة البيئيّة كمعالج لآلام القهر المختلفة، فتوحدت معها أحيانًا، وقدّمتها بأنسنة أحيانًا أخرى، لتكون سبيل الانعتاق من الفكر التراتبي الذي حاصرها وفق فضاءات أيدولوجية تظلم المرأة وتقلل من شأنها، فكانت النبتة المولودة أنثى مجند للدفاع عن حق الكاتبة بالتأليف والنشر والشهرة، متحدية كل الظروف المعاكسة لتحقيق طموحها في دعم بيئي، تمثل في الرواية في رمزية تثبت الدعم المتبادل بين البيئة والمرأة بأشكال مختلفة.

وهنا يظهر الأدب البيئي في الرواية يتمثل في أنّ الكاتبة جعلت شخصية الأنثى كائنًا لغويًّا متخيلاً، في الوقت الذي تحولت فيه هذه الشخصيّة من كائن لغوي إلى شخصيّة من لحم ودم، وهذا ما كانت تصر عليه، حتى لو أوهمتها مرة بأنّها سمكة، أو سحليّة، فهي أنثى ملكت ذات يوم "**اسم**"[1] لكنها تخلصت منه، فهي الأنا والذات والآخر معًا.

ثنائية الذّات: الأنثويّة والبيئيّة:

بعد هذا التهميش النابع من السلطة الذكوريّة والواقع على المرأة والطبيعة، للأسباب نفسها، ينتج عنه توحد بين المرأة والطبيعة، باستئناس البيئة، وإشراكها همّها الذي يمكن أن يُنعت بأنه نفسه، من خلال نشأة الذّات البيئيّة نشأة بشريّة،"**تشبه جنين النبتة التبس أمرها عليّ**"، وبوصفها للنبتة بالجنين، في وصف يجعل الموطن الذي مثّلته الأرض هو نفسه دور الأم، التي تحمل

(1) (خشخاش)، ص58.

المعنى الرمزي لأيدولوجيات ثابتة في علاقة المرأة بالطبيعة، تنبسط حينًا، وتنغلق حينًا آخر، بين القبول والرفض في مفارقة تعكس أنساقًا نِسويّة، تبيّن طبيعة شخصيتها التي لا تقبل الضعف بوصفها شبيهة للبيئة، لكنها في الوقت نفسه تمتاز بالعاطفة والتعاطف والاحتواء.

ففي لحظة مفاجأة في حياتها أحدث فارقًا حمل معه التغيير، هي لحظة التفكير واختلاط الأفكار، والسعي إلى مغامرة جديدة" **من أين تأتي هذه الأفكار التي تسبح في رأسي كأنها سديم، أية أهمية لما يحدث الآن؟ ما الجديد**؟"[1] وكأن الحياة تحملها للنظر من جديد في (الأنا)، (الذات)، فتدور الأفكار المتقاطعة في رأسها؛ لبدأ العمل من جديد، وبداية الكتابة في رواية تجهل محتواها ومغزاها، "**أريد أن أتنفس أن أكتب لن أتعافى من خيالاتي إذا لم أكتب**"،[2] وبالرغم من وقوع الصدفة المربكة التي دفعتها إلى التفكير مرة جديدة بالكتابة أو (**الاخضرار**)، فإن نشأة الرغبة في التأليف يخالطها القلق حيال عيشها المرتبط بقوانين الاستبداد بفعل المجتمع الذكوري، المؤسس للنظام الوجودي في الأعراف الاجتماعيّة السائدة، الذي يحاصر سلوك المرأة بأيدولوجيات أنثوية نفسيّة تتعلق بالخوف[3] إزاء أي تقصير في واجباتها المنزلية اليوميّة بوصفها أم أو زوجة. وبهذا التداخل الفكري، والفوضى النفسيّة تسلط الكاتبة الضوء على زاوية التعقيد، التي تتصف بها الأنثى في المنظور النسوي، ذلك التعقيد الذي ظهر من خلال التداخلات الفكريّة المنعكسة على علاقة الربط بين الكتابة والأنثى؛ فالكتابة معقدة والأنثى في المنظور النسوي معقدة أيضًا بفعل الممارسات التي تتعرض لها.

وحلمها المستمر في الكتابة جعلها ملهمة حساسة، تجد ما حولها من الطبيعة محفزًا لعقلها، فقد أوحى لها مشهد الصحراء القاحلة المصفرة الشاحبة، وما يتوسطه من قطعة خضراء زاهية، بالفجوة الكبيرة في حياتها القاحلة أيضًا، بأنّ أمل النجاة والتغيير بالاخضرار لا يزال تحقيقه ممكنًا هنا ظهرت البيئة بين القلق والرغبة في التأليف ظهرت الصدفة في التقاء الكاتبة مع النبتة الأنثى، فبدأت الكاتبة (الزوجة) بعصف ذهني يخرجها من رتابة الحياة الفوضوية التي عاشتها، بعد أن كادت أن تيأس من تغييرها.

---

(1) المصدر السابق، ص6.

(2) المصدر السابق، ص22.

(3) Blöbaum, Anke, and Marcel Hunecke. (Perceived danger in urban public space: The impacts of physical features and personal factors.) Environment and Behavior 37.4 (2005): 465-486.

وهنا تظهر الكتابة النسوية الممزوجة بالفكر البيئي، فقد استعانة الكاتبة بالنبات لإعادة ترتيب حياتها، كما وصفت الخروج من حياتها الروتينية المملة بالاخضرار، في وصف بلاغي بيئي الشكل والهيئة، وكأنها رواية تنتمي لأدب الطبيعة، إذ مزجت الكاتبة بين المرأة والطبيعة بوحدة تتصف بالعفوية، التي توحي للمتلقي بالوحدة المتجانسة بينهما.

" **هل استوقفني اللون الأخضر حقًا؟ كأنه اصطادني على الطريق، كأنه ناداني!! أخضر شاحب مرّ أمامي، رأيته عبر زجاج السيارة العريض، ثم أنقشع مفسحًا لأزرق السماء الصافي ومخاتلات صفراء، بقايا صحراء كانت هنا**".[1] ثم يحملها الاشتياق للاخضرار، الخروج من قوقعة القمع والقهر من ذاتها المستسلمة للواقع الشاحب، إلى ذاتها الخضراء المفعمة بالحياة، فقد استفادت من الثيمة الرمزية للبيئة في مقاطع الرواية، في سرد أسطوري مثل الخصوبة والعطاء، كما أن اللون الأخضر من الألوان المهمة في الثقافة الإسلامية احتشدت في الذاكرة الجماعية، إذ ورد اللون الأخضر بالقرآن الكريم في ثمانية مواضع[2]عبرت عن النبات والحيوانات، كرمز للحب والوفرة، والخصوبة، والسعادة، إذ جاء اللون الأخضر في الرواية يعبر عن المعني القرآني نفسه، في انعكاس للثقافة الدينيّة والمجتمعيّة التي تنتمى لها الكاتبة، "**تشتاق العيون للون الأخضر. الأخضر منتشر لا شك أن الأشجار خضراء، ولكني لا أشعر بالتعاطف، تبدو لوحة ضخمة منحطة أحتاج إلى أخضر حان رفيق، له رائحة وحفيف. أخضر لا تزج به الشمس في عينيّ عنوة**".[3]

وبهذا الانقلاب المفاجئ الناتج من الوعي البيئي لدى الحس الأنثوي، في تمييز اللون الأخضر القابع وسط الصحراء، وإحالته مباشرة على ذات الكاتبة، التي ترى أنها جزء من هذا التكوين البيئي، وما فيه من انعكاس لحياتها، وذاتها؛ يفضي إلى مشهد اخضرار كان دفينًا في داخلها، يحتاج إلى من ينبشه بعد أن استكانت روح صاحبته في إذعان للقهر والتهميش؛ ليخرج النماء الأخضر من جوفها المقيد بين جدران اسمنتية، وحديد صلب، وأشعة الشمس المتسلطة، "**سحبت باب سيارتي، وثبت النبتة الأولى إلى جوار المقعد الأمامي، ثم فتحت الباب الخلفي، لتضع السيدة الباسمة النبتة الأخرى، عدت معها إلى المحل. دفعت ثمن النبتتين وأنا أحرص على رسم**

---

(1) (خشخاش)، ص8.

(2) راجع الأنعام آية 99، يوسف آية 43 ،46، الكهف آية 31، الحج آية 63، يس آية 80، الرحمن آية 76.

(3) (خشخاش)، ص7-8.

ابتسامة أعرض من ابتسامتها، هذه المجاملات تجعل الكون لطيفاً، نسيت ابتسامتي على شفتي وأنا ود إلى سيارتي، داهمني إحساس بأني في حديقة، وأني امتلكت الأخضر"[1]، وهنا تصرح الكاتبة بفرحتها في امتلاك الأخضر، ليظهر سؤال بيئي مهم، وهو (هل في مقدور الأخضر أن يحول جدب الحياة إلى نماء وخصوبة؟).

"حشد من الأفكار العابثة يتقاذف رأسي، لا أحب اللحظات التي لا تفسير لها... والشمس تتخذ وضعًا هو بين التسلط العمودي على الحياة، وميلان خفيف، كأنه الاستعداد لنقلة رشيقة باتجاه المغيب."[2]وفي وصف الشمس تظهر علاقة الكاتبة بالطبيعة، إذ تعبر عنها بصورة تعكس مشاعرها، ففي الوقت الذي وصفت فيه حشد الأفكار في رأسها تتقاذف فيه في تسلط وسيطرة، كانت الشمس تتسلط على الحياة بعاموديتها، تكشف أسرار الحياة، كما هي أفكارها التي تبحث عن تفسيرات لتلك الأسرار، في مطاردة فكرية تؤكّد مسألة التعقيد الفكري الأنثوي. وللكتابة أسرار وللأنثى أسرار وللبيئة أسرار فكانت (خشخاش) رواية أو محاولة للكشف عن أسرار الثلاثة معًا من خلال فانتازيا أدبيّة أحالت النبتة إلى أنثى واعية تترصد كل سر دفين في الكتابة والمرأة والبيئة.

وفي موضوع فعل الكتابة من منظور أنثوي مارست الكاتبة مسارًا نسويًّا أيضًا جعلها تتمرد على نفسها وكشفت عن ذلك التوحد بين الكتابة والبيئة بتعبيرات خاصة بالكتابة البيئيّة، **"هكذا وسط دوامة الحياة التي اعتدتها واعتادتني. راحت رواية.. رواية حقاً!! راحت تضرب بفأس حديدة تربة مخيلتي البكر وأفكاري المضطربة، تقلبها وتعيد زراعتها. رواية!! يا لجرأتي!"**[3] أن الكاتبة في (خشخاش) كانت تتقصد الربط أو التوحد بين أمرين كلاهما يحتاج إلى تحرر أو تحرير أو دفاع، هما: أولهما الكتابة، وثانيهما البيئة ممثلة في المرأة (الأنثى) التي ابتدعتها بخيالها؛ ولذلك كثيرًا ما كانت تمتزج الكاتبة في الرواية بالكائن الفانتازي الذي تخيلته (وهو أنثى) لتتناوبا معًا الكشف عن أوجاعها وكأن الأنثى المستحضرة حيلة منها لتعينها على عدم الخوف إذا رغبت في أن تتكلم، وفي تصريحات بلاغية تؤكد مدى التشابه بينهما، لأن الكاتبة أيضًا تحمل في رأسها تربة بكر

---

(1) المصدر السابق، ص10.

(2) المصدر السابق، ص7.

(3) المصدر السابق، ص22.

تحتاج للتحرر من أفكار مضطربة، بإعادة تقليبها وزراعتها، بواسطة آلة حادة-حديدية- في حالة من القسوة المرافقة لمشاعر الإصرار والتحدي.

وأظهرت الكاتبة إصرارًا منها على التوحد مع الفعل الإبداعي/ الكتابة بما مارسته من التمرد على نفسها، إذ كانت تنتقد نفسها من خلال مشاهدتها للقاء تليفزيوني لروائية هي نفسها سميحة خريس التي كانت "**تثرثر عن رو ايتها (شجرة الفهود)**[1]".

إلى أن ظهرت لها أنثى النبات "**ردت ناظري مرتبكة إلى النبتة استطالت أور اقها و افترشت مساحة مضاعفة في الفضاء، أملت رأسي وكتفي وذراعي مع ميلان ابريق السقاية، وقبل أن أسكب أية قطرة، رأيتها، في قلب الزهرة تتمطى عارية.. شلّت المفاجأة جسدي، انقطعت أنفاسي، واحتبس صوتي زاعقًا في داخلي فقط. لم يعد قلب الزهرة تجمعًا حبوبيًا ذا هيئة لحمية، إنه أمامي، جسد حي كامل الهيئة يلتصق في الزهرة الليلكية بشرنقة شفافة ناعمة كأنها جناح الفراشة**".[2] نبتة تتفتح من جديد، تولد من الفراغ من غير قيود، ولا مجتمع يملأ جوفها بالقوانين، وكأن الكاتبة تشاهد ولادتها الجديدة مرحلة تلو الأخرى، إلى أن تصل لجناح الفراشة في رمز للحرية، وبخروجها من النبات -البيئة- خروجًا من عباءة مجتمع قيّدها وحدّ من إبداعها، لتزهر كما تزهر هذه الأنثى من نبات، التي أنتجتها الأرض بفطرة سليمة، يسودها العدل والتقدير.

إن امتلاكها لنبتة "**الشيطاني الغريب**[3]" الشكل، هجينة النوع كهدية غير مرغوب فيها، كان أشبه بحمل لا تشتهيه أمه، فُرض عليها ضمن عُرف اجتماعي يجب عليها الانصياع لحكمه، "**لم أرغب في حمل زهرته تلك، ولكنني حوصرت بعينيه الواسعتين؛ مما جعلني أحسم الأمر... فتح باب السيارة، و انحنى إلى داخلها يزج بالنبتة إلى جوار سابقتها، كان رأسه في قعر سيارتي حين جاءني صوته مثل صدى آت من بعيد: ضعيها في الشمس إنها تحب الشمس.**"[4]وفعلًا وضعتها في الشمس، وأهملتها في تهميش كامل، ولم تهتم بشأنها، بل إنها فكّرت في التخلص منها مع الإصيص بإلقائها من النافذة من الدور الرابع عشرة، في مطابقة نسقية بين الفكر البيئي والنسوي، والأيدولوجيات التي تنبذ التملك عنوة، ومثلها وفقًا للأيدولوجية الذكورية أن ولادة البنت هي شيء

---

(1) المصدر السابق، ص23.

(2)المصدر السابق، ص17-18.

(3) المصدر السابق، ص 105.

(4) المصدر السابق، ص11.

غير مرغوب فيه؛ لذلك كانت ممارسات الوأد تقع عليها عند الولادة، كذلك فكرت الكاتبة، بإلقاء النبتة وزهرتها الليلكية من النافذة، أو وأدها، "**اللحظة التي راودتني فيها فكرة التخلص من الزهرة...**"[1] إلا أن الكاتبة لم تستطع تنفيذ حكم الإعدام على النبتة، ذلك لأنها لا تملك القلب الذي يملكه الرجل، فهي تتحلى بالتعاطف، إذ تتميز النسوية البيئية في إيمانها بمبدأ التكامل بين الكائنات البشرية والمنظومات البيئية.[2]

وهنا تحدد الكاتبة (الآخر)، المكونة من النباتات الثلاثة، التي ظلت تعتني بها باهتمام وعناية إلا النبتة الهدية التي لم تستقبلها في بيتها، ومع ذلك استطاع الآخر (النبتة الثالثة) النمو في الخارج، رغم تهميشها، ونبذها، استطاعت النمو، والتغلب على كل ما واجهته من قسوة، وفي مقارنة الذات الساردة والآخر، تظهر علامات من التخيل والإيهام عند الكاتبة، في مواجهة قاسية للذات، ومقارنة بينها وبين الآخر، في محاولة لإدراك الواقع، والعودة عن الغفلة، بالبدء في تحقيق الرغبة المدفونة في جوفها للكتابة والتأليف، رغم ما لاقته من عراقيل جعلتها تعيش الضدين، بين شغف الكتابة، والفرار منه.

فقد اختارت الكاتبة الفرار مع الكائن النباتي الذي خرج من النبتة الهدية، بشكل "امرأة مكتملة" تعلم أسرار الكاتبة، تخترق وحدتها، وخلوتها، وغرفة نومها، لتعيد لها الذاكرة المحبوسة، والمقيدة منذ زمن، "**البحر، الفيروز الأزرق ينهش قلبي ويفرحني.. أتذكّر قبل ثمانية عشر عامًا... أتذكر، شابة لا تخجل من غزل الموج، تعبر الشارع الغارق وترتمي في حضن الماء في أوج نزقه، ثم تقع في عشق المدينة**".[3]

وهنا ظهرت الكاتبة بالتحام مع النبتة التي تمثل الذات أحيانًا والآخر أحيانًا أخرى، "**اللعنة!! و أتحدّث وكأنها شريكتي، نستطيع أن نكتب!!!**"[4] بالرغم من أنها انفلات من الذات أيضًا، لتقدم سردًا حواريًا يفصح عما في أعماق الشخصية من أحاسيس مختلفة، نتجت عن مواقف منوعة، حدثت في الماضي، لتنتج ذات الساردة فضاءً ينفتح على العقل ليحرره من الفكر

---

(1) المصدر السابق، ص16.

(2) راجع: كارولني مريشانت، (موت الطبيعة)، ضمن كتاب: مايكل زميرمان، الفلسفة البيئية، ج8، ص-33 50.

(3) (خشخاش)، ص34.

(4) المصدر السابق، ص44.

الآلي الاعتيادي الروتيني اليومي؛ فيحرر ذات الكاتبة؛ ليظهر التلقي الأنثوي منفتحًا على الطبيعة منصتًا لها، يقدم الاستجابة الممثلة في الحوار المتشارك معها.[1]

"**ولكن قوة غامضة ترفعني فأطير، فتأتي تدعي أنها سمكة، و أنا دون ادعاء أصير طيرًا... لست عصفورًا. ففي أهابي همة أعلى من نزق العصافير. ولست صقرًا، فما بي رغبة للافتراس، إنه مجرد التحليق بعيدًا، بعيدًا!!... كثيرون يسترعي انتباههم جسد امرأة يحلق منخفضًا يوشك أن يلامس هامات الشجر.. أسمع اللغط تحتي فأتجاسر أكثر.. ابتعد عن الحديقة.. عن البيت، وداعًا أيها السرير، وداعًا يا بلاط الأرض، ويا خشب الباب، أستطيع أن أخلفك ورائي، فأتوسد الغيم و أنام بهدوء.. أغفو تمامًا.**"[2] تصنف الكاتبة البيئة في هرم طبيعي، لا تراتبيّة فيه بل يظهر التفاضل وفقًا لتكليفات المهام والأعمال، فهي تحلّق كطائر، الذي يحب الحياة ويشعر بالسعادة في التحليق بفضاء نقي وخالي من المفارقات، وترفض بأن تشبه العصفور أو الصقر المفترس، لكنها كائن يشبه الطائر في تحليقه بعيدًا، تستمتع بالتوسد على الغيوم للنوم بهدوء، بعد أن ودّعت كل الماديات في الحياة المتكلفة، بندائها وذكرها واحدة تلو الأخرى: **السرير، وبلاط الأرض، وخشب الباب**، فهي تحلق برومانسيّة بيئيّة حالمة فيها الصفاء والنقاء، في دعوة للعودة إلى الطبيعة (البرية/القرية).

كما قدّمت الكاتبة موضوع (الكتابة) كطرف آخر، لا تستطيع الذّات الانفلات من مطاردته، كما لا تستطيع تحقيق الرّغبة في كتابته، لتقع هذه الذّات بين طرفين مختلفين، هما النبتة والكتابة، ولكل منهما صوت يختلف عن الآخر، إذ تقع الذّات بين هدوء النبتة وحبها للحياة، وبين ضمير الكتابة المتألم الساهر، الذي أدى لصراع الذات بين الكتابة الشيطانيّة التي دعمتها النبتة، في كشف ذكريات مؤلمة، وبطرح ألعاب جريئة؛ لدرء الكتابة التقليديّة، والكتابة وفق طرق إبداعيّة جديدة بشكل مختلف، "**أنتِ حقًا تقليدية، تفهمين الرواية، بداية وحبكة وأحداثًا متسلسلة**"[3] وهنا يظهر (الآخر) معلقًا على الكتابة الروتينيّة الرتيبة، لكنه يشترك مع الأنا في طموح الكتابة والتأليف والشهرة.

---

(1) شيفرد، ليندا جين، (أنوثة العلم، العلم من منظور الفلسفة النسوية)، ترجمة د. يمنى الخولي، سلسلة عالم المعرفة، (306)، الكويت، 2004، ص111.

(2) (خشخاش)، ص43-44

(3) المصدر السابق، ص 55.

الإيهام بالمثاليّة قمع ذكوري:

هناك مشاركة بين النساء والطبيعة في الاضطهاد والوقوع تحت الهيمنة؛ ذلك الاضطهاد والقمع الأبوي الذي امتاز بفرض قوته السلطويّة والمهيمنة، لذا كان من الضروري الوعي ليس بالأزمة البيئيّة فحسب، ولكن أيضًا بتشابك العلاقة بين الرجل والمرأة وما يتبعها من أزمة التبعيّة والخضوع، ولأن المرأة أقرب إلى الطبيعة من نظيرها الرجل؛ ظهرت تخيلات الكاتبة لشخصيّة وهمية ولدتها النبات كانت تفهم مشاعرها وتصرفاتها، وكأنّها هي ذاتها، "**تنوس مثل ضوء خفيت. ولم أحفل بوداعها. فقط انجلى غيابها عن حقيقة أني أطعمتها قلبي مثل تفاحة فقضمته كله حتى البذور.. فصارلي قلب آخر..**".[1]

فقد استطاعت التعرف على مخاوف الكاتبة من اللمس، في فهم أيديولوجيّة الكاتبة ونفسيّتها، التي عانت من الاضطهاد الأبوي فولد لديها مجموعة من الاستعارات الجنسيّة تقر بالهيمنة الذكوريّة على المرأة والطبيعة معًا، واعتبارها كائنًا هامشيًا في النظام الأبوي، يمثل واقعًا حقيقيًّا في خدمة المصالح الذكوريّة، وإخضاعهما (المرأة /الطبيعة) لمصالحه الشخصيّة، فهي تصف الموقف الذي طبع في ذاكرتها وهي صغيرة حين تعرضت لتحرش من رجل طالما عرفته بلقب "**عمو**"[2] وبالإشارة إلى الإيذاء المستمر للمرأة وتعرضها للعنف والاغتصاب، أصبحت الأنوثة علامة عالميّة على النقص، في رمز إلى: (النساء والبيئة والثورة العلميّة)؛ إذ نشأت هذه الصبغة الفكرية في ثلاثة مستويات كانت أساس المشكلة[3] هي: التاريخية والسببية: التي صنفت العالم تصنيفًا تراتبيًا، كانت فيه المرأة وفقًا للتاريخ من الطبقة الثانية لتدني ثقافتها، ثم المفاهيمية أي الإيديولوجيات المحددة للفكر الإنساني عبر الزمن، وأخيرا الرمزية والتراتبيّة اجتماعيًّا في هيكلة ذكوريّة.

بما في ذلك الأيديولوجيّة النسويّة يصور الواقع البيروقراطي [4]، فإنّ الفضاء والشخصيات والحبكة التي تتشكل منها الرواية تترجم حال الأزمة البيئيّة الحالية، التي تكمن

---

(1)المصدر السابق، ص 104

(2)المصدر السابق، ص 81.

(3) (Nature as Feminine: An Eco-Feminist Reading of Selected Latin American Narrative)، P10.

(4) البيروقراطية أو الدواوينية مفهوم يستخدم مشيرًا إلى إعمال القوانين بالقوة وخاصة في كل مجتمع منظم، وتعتمد هذه الأنظمة على إجراءات موحدة ومسؤوليات موزعة بطريقة هرمية، راجع: المنيف، إبراهيم .تطور الفكر الإداري المعاصر .ط 3. مجلة المدير. الرياض. المملكة العربية السعودية، 2017، ص101.

بالاستغلال الذكوري للموارد البيئيّة منكرًا تبعيتها، أو فضلها، بل مروّجًا لوصف البشريّة بالاكتفاء الذاتي.

الأخلاق في العلاقات النّسوية البيئيّة في منظورتر اتبي:

شكّلت الرواية حديثًا مبطّنًا وبشكل غير مباشر، حوّل الحركة البيئيّة من نظرة روتينيّة إلى شخصيّة أساسيّة، بإعادة تصورات جذريّة للعلاقات البيئيّة والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والقيم الأساسيّة لهذا المجتمع الذي وصفته (**مباني الاسمنت**) الصناعي الحديث، بنشر العدالة الجنسيّة والبيئيّة، وتوضيح دور المرأة النشط والفاعل، وخلق مسارات لشاعريّة سياسيّة الوجهة، ونسويّة وبيئيّة، في تحديد الصلات بين البيئة البشرية وغير البشرية، وتحديد وجهات النظر في ممارسات خطابية مستدامة، تسهم في تطوير وتأسيس موقف أكثر أخلاقيًا. ويواجهوا الثقافة القائمة على الأخلاق التي تقوم على القيم الموضوعة وخلق أهمية بالنسبة للجنس البشري وغير البشري، لتحديد المعيار الأخلاقي، بعيدًا عما ورثته البشرية من رؤى فلسفيّة، وعقديّة.

"شكرًا لن أشتري المزيد. ضحك مثل طفل خجول، فتبدد خوفي، وهزّ رأسه... كلا، هذه (كادو) هدية من المحل... لم أرغب في حمل زهرته تلك، ولكني حوصرت بعينيه الواسعتين مما جعلني أحسم الأمر... حسن، شكرًا، ضعها في الخلف."[1] تتأثر المعاملات الإنسانية بكيفية التفكير بالطبوغرافية والثقافية والسياسية، مما يخلق نوعًا من التمايز، الذي يظهر في تصريح الكاتبة عن خوفها عند اقتراب الرجل منها، وهو شعور الأنثى المُكتسب من الموروث الثقافي في ثنائيات تراتبية، ضعفها/ قوته، الخوف/ السطوة، الاستكانة/ السيطرة، الانصياع/ القرار، وبهذه الثنائيات نفسها نشأت المعاملات البيئية.

فقد أُجبرت الكاتبة على حمل الهدية رغم عدم رغبتها بذلك، كما أُجبرت على الاعتناء بها، ولم تستطع اتخاذ قرار التخلص منها، أو تركها، أو حتى إلقائها في القمامة، إنها تقع في اللاوعي

(1) (خشخاش)، ص11.

تحت الهيمنة الذكورية، التي تستغل المرأة والطبيعة، **"ألم يقل ذاك الرجل، أتركها في الشمس!! نظرت إليها لم تكن فاتنة، ولكنها تستوقف النظر، لعلي لم أتعاطف معها لأنها فرضت عليّ."**[1]

وبكل هذا الخوض الفكري، كانت ردود فعل الكاتبة عند مصارحة الذات لها بعلاقتها باللمس، عندما لمحت لها الأنثى المصطنعة بذلك وانصرفت بعد أن غضبت منها، وبعد انصرافها أكملت القصة كاشفة لما هو مسكوت عنه، في مصارحة لما وقع عليهما من أعمال العنف، والاستغلال، والتهمش، " **ماذا تراها تعرف عن خوفي من اللمس."**[2] ليظهر فعل الاستغلال المبني على التراتبية اللاأخلاقية، في إحالة مقصودة لما في الذاكرة من غرس أيديولوجي زُرع منذ الطفولة، ودعوة غير مباشرة من الكاتبة لإحياء مشروع نسوي بيئي؛[3] لإلغاء الهيمنة الذكورية والتراتبية، وإحلال ممارسات سلوكية وأخلاقية تتصف بالعدل والمساواة.

التكثيف الأيديولوجي والفكر التراتبي:

لقد وظفت الكاتبة المجاز لتقيم العلاقة بينها وبين الطبيعة، في محاولة للهروب من الواقع، الذي أصابها بالوحشة والملل، ذلك الواقع الذي يمثل علاقتها بالرجل، وكأنها تستغل قدراتها الإبداعية في عمليات الانسلاخ عن الذات لتشكل كائنًا مجازيًا وعضويًا يعينها على الكتابة والتأليف، بل على المقاومة "**غفوت... وصحوت كأنما أنتصر على جسدي النائم، أغادره وأراقبه، ألعب معه وأخادعه. أسخر من الهيكل المكسو لحمًا والمحشو في كيس من الجلد."**[4] هكذا تستعيد قدرتها على الكتابة بنمو مختلف، وفهم تجريدي يخرجها من حالتها الأصلية البشرية، ويدخلها في عالم جديد تنتمي فيه لبيئتها، ولكنها بهذا الخروج اللاواعي تفصح عن عدم تقبلها لهذا الجسد الذي تقابله بالسخرية، وكأنها تتمرد على الفكرة الملتصقة بالمرأة بأهمية شكلها، والعناية به، فهي تتحرر من كل معتقد وفكر موروث، حمّلها الهم والتعب.

وهنا تبدأ بالامتزاج مع الإبداع الطبيعي بهدف إنتاج إبداع خاص بها، فهي تستشهد بما تألفه من الطبيعة، وتساعدها أنثى النبتة؛ لتبدأ بدوامة الصراع الداخلي، بين التخلي عن الأنظمة

---

(1) المصدر السابق، ص14.

(2) المصدر السابق، ص81.

(3) ج. وارين، كارين، (مقدمة للنسوة الأيكولوجية)، ضمن كتاب مايكل زيمرمان (الفلسفة البيئية)، الترجمة العربية لمعين شفيق رومية، ج2، سلسلة عالم المعرفة (333)، الكويت، 2006، ص10-11 (بتصرف).

(4) (خشخاش)، ص43.

التقليدية الموروثة، وبين التصريح بما تعانيه المرأة من مخاوف حيال المنظور المركزي والمهيمن من قبل الذكر الذي يملك الحكم والقرار، لذلك حاولت التجرد من ذاتها في مراحل تفكير عميقة، وصفتها بالدّوامة، "**دوامة منتصف اليوم... جلسة مع الزوج لنقاش الوضع المالي، سنحتد. ثم أتراجع فهو الملول والحاكم بأمره.**"[1] كما تصور نفسها بكائن يمتاز بالحرية، طائر، نبتة[2]، أو أي شيء آخر، في وعي تام بأن العالم فيه كائنات تحررت من القيود، القيود الموروثة من أفكار، وعادات وتقاليد، وهيمنات سلطوية بمقاييس تراتبية بحتة، وكأنها بهذا الوصف تقدم مفهومًا فلسفيًا يدعو إلى التحرر قبل انقضاء العمر الذي أشارت إليه بداية الرواية، وكأنه الناقوس الذي يوقظها من غفلة الفوضى الحياتيّة اللاهادفة، لتحلق في الكون تحمل مشاعر جديدة فيها نشوة الانتصار على القيد، وصانعه، لتعيش حرة طليقة.

إن انغماس الكاتبة في التأثر بالبيئة ومكوناتها خلق الدراما السردية؛ التي ركزت عدستها على الأحداث الطبيعية نتج عنها وعي بأهميّة البيئة، ومشاركتها للحياة الإنسانيّة بكل جوانبها الفكريّة والماديّة، فقد لغت التراتبيّة في التعامل، وحولت البيئة ومكوناتها إلى أفراد يمكن معاملتهم بنديّة، فوصفت **الشمس بالتسلط**، وكرهت **التعاطف** مع النبتة الهدية، لتمنح الطبيعة المساواة مع الذات الإنسانيّة، "**البحر الفيروز الأزرق ينهش قلبي ويفرحني**"[3]، ثم تقدّمه بمنحه فرصة السرد الحواري، وإبداء الرأي من قبل النبتة، وبهذا الإنصاف اللاتراتبي إنصافًا لنفسها أولًا، وتحقيقًا لذاتها المهمشة مثل الطبيعة تمامًا، "**عزيزتي، إذا كنت ستكتبين عني فإنّ عليك أن تعرفي المزيد...**"[4]

تظهر الكاتبة بحالة قبول وتعاطف تصل إلى منظور فكري بيئي يمتاز بقيم العدالة وتحقيق المساواة؛ فهي تفصح عن خطأ المخطئ، وتشيد بالمنجز، في مشاهد سرديّة بيئيّة منوعة، كانت هي والطبيعة كيان واحد لا يتجزأ، " **لو أحسوا بي و أنا في أحضان البحر مسوقة بشوقي إلى الأعماق...**

---

(1)المصدر السابق، ص14.

(2) المصدر السابق، ص43.

(3) المصدر السابق، ص34.

(4) المصدر السابق، ص32.

يا لجلال البحر وهيبة الكون عند الغروب، وهو السحر كاملًا. يهيمن على الروح.. والبحر الذي ابتلع قرص الشمس ابتلعني... أسرني البحر مرة فصرت سمكة".[1]

فوظفت السّمات الفنيّة المجسدة لتلك المشاهد لتضع العالم في تكافؤ بين مكوناته البشرية وغير البشرية، فهي توظف تقنية تخلق عالماً متساويًا في الفكر والمشاعر؛ تُوقف المتلقي عند مفاهيم الاختلاف التقليدية، وتقدم شرعية بيئية ونسوية جديدة، فيها النسق البيئي الذي يكشف القوة الكونية، ويؤكد الأحقية بالمساواة.

النسويّة البيئيّة أخلاق الأمومة:

"في الطفولة كنت حيو انًا أليفًا، أحب قعقعة السلسة الذهبية في رقبتي...تنام أمي بعين مقفلة وأخرى مفتوحة، تحرسني، وفي مساء كبرت فيه، تقيحت رقبتي. فأخذت الشفقة بقلب أمي، فكّت قيودي واحتضنتني باكية.. همست في أذني: لا تخذليني يا صغيرة...[2]" هكذا قدّمت الكاتبة صورة لحياة المرأة التي عكستها على الكاتبة النبتة، لخّصت فيها الأيدولوجيات الفكريّة حول حياتها؛ إذ تنشأ المرأة في عالم تطاردها فيه مشاعر الخوف والقلق، تسيطر عليها فكرة العار التي تأسّست عليها أيدولوجيات المجتمعات العربي، لتحول حياة الأنثى إلى حياة مقيّدة في سلاسل فكرية ومعتقدات متزمتة، تدين المرأة لأنها خلقت أنثى، وبالرغم من ذلك، فإنّها تحب هذا القيد وتستمتع بما فيه من ملامح اهتمام وحرص ومتابعة لأفراد عائلتها، إلى أن تصل لعمر تفهم فيه أن هذا القيد لا يمثل الاهتمام بل الحصار بسبب الرفض لوجودها وهويتها. **"لا بد لي أن أنام وأشبع نومًا لأتمكن من القيام بأعمالي بلياقة في الغد"، "ولكن خفت إلى حد الرعب فكيف المرأة العاقلة أن تدعي بأن نبتة خضراء مزهرة ليلكي ولدت أنثى بشرية!!"** [3]

"نسيتها، ومن هي في حالي حريٌ بها أن تنسى، لدي ما يكفي لأتذكره، يتحول عقلي إلى دفتر دقيق بصورة غريبة وهو يدون بجلد المهام التي سيلهث جسدي وراءها في يوم قصير..." [4] أمثلة كثيرة قدمتها الرواية في تفسير الرعاية، رعاية الزوجة، ورعاية الأم، ورعاية البيئة، وشأن أي

---

(1) المصدر السابق، ص 38.

(2) المصدر السابق، ص57.

(3) المصدر السابق، ص51.

(4) المصدر السابق، ص13.

أمر من أمور الحياة فإن الرعاية لها جانب مظلم، ووفق مقولة كل شيء زاد عن حده انقلب ضده، فإن زيادة الرعاية تقتل الإبداع وتلغي الابتكار، ومن الرعاية إفراط الأمومة، ففي مبالغة الأم في حماية طفلتها، والإسراف في الخوف من العار يعوق طريقه إلى العلم والعمل والإبداع؛[1] لذلك تعاني المرأة بظلم من المرأة نفسها بفرض القيود المُكبلة لطموحها الفكري والمهني، في ملامح الرعاية المكثفة، التي تعتني بالمظهر والشكل والعادات والتقاليد، من دون الاهتمام بالشخص نفسه، ورعايته عاطفيًّا وفكريًّا ونفسيًّا.

وإن ما عانت منه الكاتبة من أعباء الرعاية المكثفة؛ شكّل عندها صراعًا داخليًّا ظهر كنتيجة لفلسفة الاستغلال العاطفي، ومبادئ الرعاية الزائفة، فهي تقوم كل يوم بقائمة من الأعمال التي فرضها المجتمع عليها، من غير شكوى أو محاولة للتمرد والخروج عن المألوف، فكل النساء يقمن بالأعمال اليومية كآلات برمجتها الظروف والعادات، لتظهر قانعة راضية خاضعة بأن هذا واجبها، وواجبها فقط؛ ليتسبب هذا الروتين الأبدي، في فترة زمنية ليست بطويلة إلى ضرر على جميع المستويات الجسديّة والمعنويّة والنفسيّة.

وبالرجوع إلى المبادئ العامة للنظرية النسوية البيئية التي تقوم على تأسيس لأخلاق نسوية بيئية تحددت في ثمانية شروط[2] انسجمت والأخلاق البيئيّة وفق فلسفة النقد البيئي، وهي إن الأخلاق النسويّة البيئيّة تهدف إلى العدل وإلغاء السلوك الهمجي الاستغلالي، **"أطوي البيت والأولاد وملابسهم**[3]،" فقد بيّنت الكاتبة معاناة المرأة في الاستغلال الجسدي، والفكري والمهني، فهي موظفة دائمة في المنزل تعمل بالسخرة، هذا في المحيط العائلي، أما المجتمعي فهي المخلوق الضعيف الذي يمكن استغلاله من أي متطفل همجي؛ لذا يمكن اعتبار الأخلاق النسويّة البيئيّة إنما هي أخلاق سياقيّة، أي هي أخلاق ترتكز على العلاقة بين البشر والبيئة وفق رؤى متجددة وغير ملزمة بواجبات وفضائل منصوص عليها في أزمان ماضية.

---

(1)شيفرد، ليندا جين، أنوثة العلم، ص221.

(2) ج. وارين، كارين، (قوة وقواعد النسوية الأيكولوجية)، ضمن كتاب مايكل زميرمان :الفلسفة البيئية، ج2، ص-113 117، وراجع: النشار، مصطفى، (النسوية الإيكولوجية، مسعىً نقديٌ لتظهير مبانيها ومعاثرها)، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الإستيراتيجية، بيروت، عدد16، صيف 2019، ص 218-219.

(3) (خشخاش)، ص34.

كما قدّمت الفكر النسوي البيئي فكرًا فيه تعدديّة بنيويّة تقر بالاختلاف بين العلاقات المختلفة البشرية وغير البشرية، كما تُسهم النسويّة البيئيّة بإعادة تشكيل المفاهيم الأخلاقيّة في المعاملات البيئيّة عبر الآداب والفنون المختلفة، لكسر أفول أيدولوجيات السيطرة والاستغلال من خلال نبذ التعميمات، الناتجة عن الظروف والتاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، والمتأثرة في الظروف الطائفيّة والعرقيّة والطبقيّة والتوجه العاطفي؛ فوفّرت فكرة تعدد الأخلاق النسويّة لأنها سياقية بنيوية، فرصة تنوع أصوات النساء، لتقليل التحيز التجريبي الناتج عن التعميم الزائفة والقائمة على آراء وأفكار مشوهة، وقد حاولت الكاتبة تسليط الضوء على هذه المسائل، بأن ما يصلح لزمان مضى قد لا يصلح اليوم، فالمرأة اليوم تختلف عنها بالأمس، هي متعلمة مثقفة، تطمح لتحقيق أهداف فكرية عدا عن أهدافها الأسريّة. **"امرأة، عادية، هكذا، مثل ملايين النساء، تمضي الحياة حولي بوقع رتيب، منذ آلاف السنين أكرر بغباء مذهل حركات جداتي. ويحدث أنني أوهم نفسي باختلافها، إنها مبدعة... هأنا ذا قبلك، هاأناذا بعدك، مجرد امرأة تربي الأطفال للحياة، ولا من يربي من أجلها زهرة، ها أنذا حائرة أرتجف بين أوعية الطبخ وحبر القلم وثرثرة الكلام... كل ما مضى ثرثرة".**[1]

كذلك قدّمت النسويّة البيئيّة معني الوفاء والتعاطف في العلاقات المختلفة، لتصبح هذه الأخلاق؛ أخلاق نسوية ذات مكانة محورية لقيم كانت نمطًا غير ملحوظة أو مهملة أو محرفة في الأخلاق التقليدية كقيمة الرعاية والحب والصدق والثقة والملاءمة؛ وهذا لا يعني الاستبعاد التام لاعتبارات الحقوق أو القواعد أو المنفعة، في محاولة لإطلاق فرصة بإعادة التفكير في الماهية البشرية وأهدافها الإنسانيّة؛ بهدف إعادة تنظيم المعتقدات حول الحياة والعلاقات، فقد ذكرت الكاتبة كلمة "**تعاطف**[2]" في عدد من المواقف الدراميّة، مع الزوج، والنبات، والنبتة غير المرغوب فيها، إنها تحمل الإحساس المرهف الذي تفي وبصدق للعلاقات المختلفة من حولها.

فقد تعارف بين البشر منذ نشأتهم على الأرض بالقيم الأخلاقيّة المثاليّة والأعراف التقليدية[3]، التي تنازعت في ثنائيات أساسية هي: العقل /العاطفة، والعقل /الجسد، والثقافة/

---

(1) المصدر السابق، ص 17.

(2) المصدر السابق، ص34/ 67/49.

(3) "Ecological Feminism and Ecosystem Ecology", p182.

الطبيعة، والحكم المطلق /النسبية، والموضوعية /الذاتية؛ وفي افتراض وجود فجوة أنطولوجية بين الذكر من جهة والأنثى والطبيعة من جهة أخرى، أسس لحقائق ومبادئ أخلاقيّة ومعرفيّة منوعة عبر الزمن، كان مفادها الهيمنة والسيطرة الذكورية؛ لذا كان من المهم بناء منظومة الأخلاق البيئية الجديدة من خلال فحص ودراسة النصوص الأدبية المختلفة، خاصة النسوية. وبناء منظومة أخلاقية جديدة قانونية، تستند لفكر العدالة البيئيّة ونبذ التراتبيّة.

كما قدّمت الرواية فنتازيا فلسفيّة ذات أصول النسويّة البيئيّة، ترى فيها معايير لرؤية حانِية تُقدر الأرض وتُقدسها، وتعترف باعتماد البشرية على العالم الطبيعي، وتحتضن كل الحياة على أنها ذات قيمة،[1]فهي تكرر ذكر الطبيعة في عدد من المواقف التي تشعر بامتنان لها، فهي تقدم لها الدعم والأمان، ومن ذلك تكرار **"البحر[2]"** في أربعة مواضع تؤكد فيها على هذا الدعم: **"ضمني البحر وكرّسني مليكته عمّدني حورية الماء. لا أنا بالأنثى ولا ما يصنفون. ولكن مخلوق يكتشف وجوده بقسوة ممتعة."[3]**

وهنا تظهر المفارقة في جمع الأنثى بين التناقضات التي تتوسع في دائرتها لتلحق المجتمع بأكمله، وفق أسس اجتماعيّة أساسيّة في تكوين الأسرة البيولوجي، وبالرغم من أن الكاتبة تنفي كونها أنثى بعد تعميد البحر (المذكر) لها؛ فإنّها لاتزال تعاني صراع الهوية الذي تريد التعرف عليه، فتواجه القسوة والمتعة، وهنا تعود الكاتبة ذاتها تؤمن في اللاوعي بالطبقيّة الجنسية، برفض ذاتها (الأنثى) وصعوبة تَقبلها وتَعرفها المخلوق الجديد؛ وكأنّها تناقش نوع الحياة التي نستحق العيش بها، بهدوء وسلام، فهي لا تنكر حاجتها للاحتضان والاحتواء، ولكنها ترفض الاستغلال والتهميش، لذلك أحبت البحر الذي يُتَوّجها، وكأنها جزء من البيئة ومكوناتها في سرد العلاقات الرمزية بانسجام الفكر النسوي والبيئي ومعرفة حاجاته ومشاعره.

ثم إنها تقدم أعمالها الأدبية وتؤكد ضرورة أن يصنع كل شخص نفسه" **سيكون ذلك ممتعاً وليذهب المر اقبون إلى الجحيم. ليخلطوا بيني وبينها، ليكتشفوا ما أرادوا من حقائق. وليرتبكوا ويضلوا الطريق، ما علّى منهم، ليستدعوا عُقّالهم ومجانينهم إلى المحكمة ليصلبوني أو**

---

(1) Karen J. Warren , Jim Cheney,(Ecological Feminism and Ecosystem Ecology), Published online by Cambridge University Press: 11 March 2020.

(2) (خشخاش)، ص 41/38/36/34.

(3) المصدر السابق، ص 41.

يمنحوني صكوك الغفران، ما هم؟؟ فكلنا نلعب على الورق."[1] ومنح الأفراد الحياة وحق الانجاز وإمكانيّة التغلب على الرأي العام، والفكر المعارض، فهي تستند في مخاوفها على ذاكرة جمعية، فيها مادة تاريخية وثقافية كوّنت الأفكار والأيدولوجيات التي حرمت المرأة من وصفها مبدعة، في محاولة منها بطرد تلك المخاوف ودعوة إلى تطور الأفكار الإنسانية وتقبل الآخر كمبدع ومؤلف وشريك في الحياة.

"إذ في مواجهتي كان شريكي منطفئًا تمامًا، غائبًا، نائمًا كل ما فيه، أغمضت عيني بعصبية.. ثم، غفوت."[2] وفي عملية لنسج الذات؛ والتخلص من مشاعر التبعيّة من جهة، والهيمنة من جهة أخرى قدّمت تمثلات الهيمنة لها وللطبيعة، فقد قدّمت وصفًا للعلاقات بينها وبين الناس من حولها (الزوج، الأطفال، البائع، النقاد)، في مقابل علاقتها مع الطبيعة (النبات/ النبتة الكاتبة/ الاخضرار/ الشمس/ البحر...)، فقد ظهرت صياغتها بشكل لتنظيم اجتماعي إنساني بيئي، امتازت العلاقات مع الأول بالرسمية والحذر، وامتازت مع الثاني بالعفوية والتعاطف، والمودة، والانسجام، والراحة.

إن الوعي بالذات وتحديد هدفها الشخصي والاجتماعي في تحقيق مشروعها الكتابي، الذي يحقق طموحها في النشر من جهة، وينتج تغييرًا في البؤرة الأساسية لنظرة المجتمعية للمرأة من جهة أخرى، وفي دعم مستمر من الطبيعة، إن هذا الوعي لهو وعي بيئي؛ مارسته الكاتبة في الرواية ممارسات تأويليّة قرأت من خلالها القانون الأخضر لا من أجل تجسيد العلاقات الفرديّة والاجتماعيّة مع الطبيعة، لكن بسبب تقديم المساهمة الفعالة في المناقشات الجدليّة الثقافيّة والاجتماعيّة القائمة كجزء من الدرس البيئي الاجتماعي المتطور، فهي ترسم التطور في العلاقة بين الذات والآخر بصفتها إنسانية، وترسم منظومة العلاقات مع البيئة عبر رؤى تاريخية وثقافية أخذت موقفها ضمنًا. لذا فإنّ الأفكار أو القيم تتغير في محركات التاريخ بتغير الزمن والسلطة المسيطرة على الفهم الجماعي للمعطيات البيئيّة والنسويّة معًا.

---

(1) المصدر السابق، ص 37.

(2) المصدر السابق، ص52.

الخاتمة

تبقى العلاقة قوية بين الأدب والثقافة، وكم كان المحمول الثقافي في الأدب مؤشرًا قويًّا على أنّ الأدب وجه لا غنى عنه بالنسبة لأية ثقافة تود أن تنقل من خلاله القيم الاجتماعيّة والفكريّة، وكذلك لا غنى عنه بالنسبة للأديب الذي ينقل فكره وموقفه إزاء الحياة والواقع لأغراض يؤمن بها، ويوظفها في إطار الطبيعة والبيئة وما يدور فيهما من مشكلات؛ لذا نشأ النقد البيئي الذي يسعى لحل المشكلة البيئيّة، وتخليص المجتمع من التراتبيّة، والمركزيّة البشرية، ضمن مأزق بيئي خطير يزداد بمرور الزمن؛ وعليه بدأت الدراسات الغربية بفحص الروافد الفلسفية والعقدية المنعكسة عن الفهم البيئي في الأدب، مبيّنة ملامح التقاطع والاختلاف بين النّقد البيئي والنظرية الأدبيّة في أدب الطبيعة، الذي ظهر بظهور الوعي بالأزمة، فحُددت المبادئ النقديّة التي بُني عليها المنهج النّقدي البيئي.

غير أن التمثلات النقديّة العربيّة القديمة، حملت على كاهلها الالتزام القيمي في البناء النّقدي للأدب، وفقًا لمرجعيات دينيّة وثقافيّة؛ لذا لم يكن رصد المبادئ البيئيّة في العينة التجريبية من خلال النصوص الروائية الثلاثة تفسيرًا للمبادئ البيئية الغربية التي رصدتها الدراسة[1] ، وإنما تأكيد على أنّ الأدب العربي وإن لم يُصنف أدبًا بيئيًّا (الكتابة الطبيعية)؛ فإنه يستبطن المبادئ البيئيّة التي تبحث في العلاقات بين البشر وأقرانهم، وبين البشر والكون، في قدرة عالية الأفق الإدراكي لمكنونات البيئة وأهميتها، في محاولة لتعزيز التقاطعات النقدية بين النظريّة الأدبيّة في النقد العربي، والنقد البيئي بمظاهره المختلفة، ولتوسيع أفق علم الدراسة البينيّة التي تُعنى بفهم الإرث الأدبي، ورصد ما فيه من المظاهر المختلفة، في تكامل علمي وأدبي وثقافي، يصل لوعي فكري وبيئي.

ثمة نتائج توصلت إليها الدراسة، يمكن إيراد منها الآتي:

- قدّم الموروث العربي أدبًا غنيًّا بالاستعارات البيئيّة، المرتبطة بالحياة العربية منذ نشأة الشعر، كما حملت الرواية ثيمات فكريّة وفلسفيّة؛ تربط- على مستوى السرد- الفضاء المكاني بالحبكة الروائية

(1) راجع مدخل الدراسة، مبحث (منهجية النقد البيئي بين الأداة والإجراء)، ص 61.

بوصفه شخصية فاعلة مؤثرة في تداعيات الأحداث، لاسيما ما يحمله من لغة روحية لا مادية، في تقاطعات وثيقة الصلة بالحياة العربية، المليئة بالصراعات عبر التاريخ.

- تُعبر المدونة السرديّة العربيّة- من خلال عينة الدراسة- عن قدرٍ من الوعي البيئي وخاصة بما تحويه الثيمة الروائيّة من ممارسة عقليّة في محتواها الثقافي والفكري والبيئي، وهو الأمر الذي يمكن أن يؤسّس لنقد بيئي داخل النظريّة الأدبيّة العربيّة.
- يمكن لازدياد الممارسة النّقديّة مُعالج الواقع المربك في فهم الذات والآخر، وبفحص الخيال البيئي والتفريق بينه وبين أنواع التخييل المختلفة، في فهم القيم الأخلاقيّة في النصوص، وعلاج الأزمة الثقافيّة البيئيّة.
- إنّ ما قدمته الروايات الثلاث بمستوياتها الثلاثة: الثقافي، والاستعماري، والنِسوي، لم يكن رصدًا للمظاهر البيئيّة العربية فحسب، بل هو رصد حقيقي لمبادئ النقد البيئي السالفة الذكر، كما أنّها تؤكّد أن المدونة الأدبيّة العربيّة، والروائيّة تحديدًا، أفق واسع لتجربة النّقد البيئي، فهي ثروة أدبيّة تعزز أنماط الكتابة البيئيّة، وإن لم تكن قصديّة الكتابة قد ظهرت عند المؤلف، وذلك لارتباط الشخصيّة العربيّة بالفضاءات المكانيّة.
- أظهرت رواية (فئران أمي حصة 2015) النسق البيئي في مضمراته الثقافيّة للحيثيات الطبيعة والفلسفات الفكريّة حول العلاقات المختلفة بين الإنسان وكل ما حوله، أما رواية (رأيت رام الله 2005) فقد كشفت إستراتيجيات التحليل مبادئ التقاطع النّقدي بين النقد البيئي والنّظرية ما بعد الاستعمار، وأهمية التحرر من أفكار تتصل بالعبوديّة والتراتبيّة الطبقيّة بين البشر وغير البشر، وأخيرًا قدّمت رواية (خشخاش 1978) سمات التخييل النسوي والبيئي، في محاولات جادة للإجابة عن السؤال الأخلاقي الذي يؤسّس لحياة آمنة خالية من الأزمات البيئيّة.
- لقد رصدت الدراسة هذه المظاهر التجريبية وفق آليات النقد البيئي، واستنباط المبادئ النّقديّة البيئيّة الخاصة في التخيّيل العربي، لتظهر التشابكات والتداخلات في المبادئ المشتركة بين الآداب العربية والغربية، ولاسيما ما فيها من تقاطعات نقديّة بيئيّة متشابهة تُعنى فيها الثيمة الروائيّة بالفضاء المكاني والزماني، بوصفهما عنصرين فاعلين في البناء الدرامي السردي، فقد تعاملت الآداب باختلاف أزمانها مع المكان بوصفه روح لا مادة فحسب، في ظاهرة بيئية تكاشف معطيات الذات، وما تحمله اتجاه الآخر.

ومن هذه النتائج يمكن تلخيص بعض التوصيات فيما هو آت:

- أنّ النّقد البيئي يتقاطع مع النّظريّة الأدبيّة في مفاهيمه وأدواته وإجراءاته، لذا حري بأن تكون هناك عناية نقديّة بنظريّة النّقد البيئي ضمن المباحث النقديّة العربيّة.
- بما أنّ النّقد البيئي يحمل قيم العصر الحديث وأهدافه في الاستدامة، وإنّ الشرق الأوسط أحوج ما يكون لمثل هذا المشروع، لما فيه من صراعات طائفيّة وعرقيّة وحزبيّة، لذلك فإنّ تبنّي المجال النّقدي البيئي فرصة لإحلال الفكر الديمقراطي بدلًا من الاستغلالي التراتبي، لحل الأزمات العربيّة.
- إنّ الموروث العربي غني بالإشارات البيئيّة، لذا فإنّ مكاشفة ما فيه من فلسفات وأيديولوجيات فكريّة بيئيّة مدعاة للدراسة والتحليل.
- يجب على الأدباء العرب أن يعيروا (كتابة الطبيعة) أهميّة بمكان في مؤلفاتهم بجميع الأجناس والمستويات، الشعريّة منها والروائيّة، الموجهة للكبار أو الصغار.

قائمة المصادروالمراجع

المصادر:

- البرغوثي، مريد، (رأيت رام الله)، دار الشرق، بيروت، ط5، 2018.
- خريس، سميحة، (خشخاش)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2000.
- السنعوسي، سعود، (فئران أمي حصة)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط18، 2018.

المراجع باللغة العربية:

- إبراهيم، عبد الله، (النقد العربي والعولمة، بحث المرجعيات الثقافية)، مجلة ثقافات، العدد 2، 2002.
- ابن خلدون، (المقدمة، المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، دار الفكر العربي بيروت، 2002م.
- ابن رشيق، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ج 1، القاهرة، ط 1، 1955.
- ابن شيخ، جمال الدين، (الشعرية العربية)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996.
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء)، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1985.
- ابن قتيبة، (أدب الكاتب)، تحرير: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985.
- ابن قتيبة، (عيون الأخبار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، القاهرة، مصر، 1973.
- ابن قيم، (الفوائد " المشوق إلى علوم القران وعلم البيان")، القاهرة، 1347.
- ابن طباطبا، (عيار الشعر)، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1956.
- أبو ملحمة، محمد بن يحيى، (دراسة من منظور إيكولوجي، قصص إبراهيم مضواح)، التواصل، جامعة عدن- نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي، عدد 28، 2012.
- إدوارد سعيد، (خارج المكان، مذكرات)، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000.
- أرسطو، (فن الشعر)، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953.

- أرسطوطاليس، (السياسة)، ترجمة: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000.
- أفلاطون، (فايدروس.. أو عن الجمال)، ترجمة: أميرة حلمي مطر، القاهرة، دار غريب، 2000.
- آل وادي، علي شناوة، والحسيني، عامر عبد الرضا، (التعبير البيئي في فن ما بعد الحداثة)، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بابل، العراق، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2001.
- أليكسي، لوسيف، (فلسفة الأسطورة)، ترجمة: منذر حلوم، دار الحوار للنشر، اللاذقية، ط1، د.ت.
- إمبرت، إنريك أدندرسون، (مناهج النقد الأدبي)، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1991.
- أنتوني جيدنز، (مقدمة نقدية في علم الاجتماع)، ترجمة: أحمد زايد وآخرون، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002.
- إيجلتون، تيري، (نظرية الأدب)، ترجمة: ثائر ديب، دراسات نقدية عالمية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995.
- أيزابرجر، آرثر، (النقد الثقافي)، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 603، ط1، القاهرة، 2003.
- بارت، رولاند، (درس السيكولوجيا)، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط2، 1986.
- بارت، رولاند، (هسهسة اللغة)، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1999.
- البازعي، سعد، والرويلي، ميجان، (دليل الناقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2000م.
- بامي، جمال، (الفلسفة البيئية وسؤال القيم جدلية الإنسان والطبيعة)، الرابطة المحمدية للعلماء، عدد 48، 2020.
- برانش، مايكل، (النقد الإيكولوجي)، ترجمة: معين رومية، النادي الأدبي الثقافي في جدة، العدد36، 2007.

- براون، تشارلز، (كتب الإيكوفينومينولوجيا: العودة إلى الأرض ذاتها)، ترجمة: جهاد عبد العال، مجلة ديوجين، مجلد1، العدد 2، 2014.
- بروكلمان، (تاريخ الأدب العربي)، ج1، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- بليت، جان ماري، (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، ترجمة: السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعارف، د.ط، الكويت، 1994.
- بن جعفر، قدامة، (نقد الشعر)، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط1، 1302ه.
- بور، علي رومي، (الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهر صفار زاده)، جامعة الكوفة، مجلد 10، عدد37، 2018.
- بوستنيكوف، فيكتور، (الشِّعر الإيكولوجي)، ترجمة: روميه، النادي الأدبي الثقافي، جدة، العدد 27، 2004م.
- بول سارتر، جان، (ما الأدب)، ترجمة: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- بومنير، كمال، (النظرية النقدية لمدرسة فراكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت)، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان الرباط، ط1، 2010.
- بيتر بيرجر، وغيره، (التحليل الثقافي)، تقديم أحمد أبو زيد، مكتبة الأسرة، علي مولا، القاهرة، 2009.
- تليمة، عبد المنعم، (مقدمة في نظرية الأدب)، دار الثقافة، القاهرة، 1976.
- تودروف، تزفتان، (مقولات السرد الأدبي)، ترجمة: الحسين سبحان، وفؤاد صفا، ضمن كتاب (طرائق تحليل السرد الأدبي)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1991.
- جابر عصفور، (مفهوم الشعر)، دراسة في التراث النقدي، ط5، 1995.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (رسائل الجاحظ) تحقيق: محمد صه الحاجري، وياول كراوس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1943م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (الحيوان)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر مصطفى البابلي الحلبي، القاهرة، 1938.
- جاووت، الطاهر، (السرد وتشكيل الهوية قراءة في رواية: البحث عن العظم)، مجلة المَخبر، قسم الآداب واللغة العربية جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، العدد 13، 2017.

- جرارد، جريج، (النقد البيئوي)، ترجمة: عزيز صبحي جابر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، 2009.
- الجرجاني، عبد القاهر، (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، ، مقدمة المحققين: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط4، 1966، وموقع نور، 2008.
- جعفر، قدامة، (نقد الشعر) تحرير: محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الجمحي، ابن سلام، (طبقات فحول الشعراء)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- جمعي، الأخضر، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب)، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
- جينيفر. م. ليمان، تفكيك دور كايم، (نقد ما بعد بنيوي)، ترجمة: محمود عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013.
- حجازي، سمير سعيد، (قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر)، دار الآفاق العربية، 2001.
- حفناوي، بعلي، (آفاق النقد الثقافي الإيكولوجي اخضرار العلوم الإنسانية)، وزارة الثقافة، المجلد 52، العدد 605، سوريا، 2014.
- حفناوي، بعلي، (مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة)، عمان الأردن، ط1، 2008.
- الحلاق، بطرس، (شعرية المكان في الأدب العربي الحديث)، وترجمة آخرين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2014.
- الحلاق، حنان، (المرجعيات الثقافية لمصطلح الشعرية عند النقاد العرب المعاصرين)، رسالة ماجستير، جامعة قطر 2014-2015.
- حمداوي، جميل، (نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة)، موقع الألوكة.
- حمدون، جميل، (مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة)، موقع الألوكة، فبراير/شباط 2012.
- حمود، ماجدة، (إشكالية الأنا والآخر.. نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013.
- خليفة، عبد الرحمن، وإسماعيل، (في الأيديولوجيا والحضارة والعولمة)، مكتبة بستان المعرفة، ط 1، مصر، 2001.
- الخولي، يمنى طريف، (فلسفة العلم في القرن العشرين)، الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 264، ديسمبر2000م.

- درويش، أحمد، (النص والتلقي، حوار مع نقد الحداثة)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2015.
- دويدري، رجاء وحيد، (البيئة مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي)، دار الفكر المعاصر، 2004.
- ديفيد كارتر، (النظرية الأدبية)، ترجمة: د. باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1، 2010م.
- ديكارت، رنيه، (مقال عن المنهج، لأحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم)، ترجمة: محمود محمد الخضيري، المطبعة السلفية ومكتباتها، القاهرة، 1930.
- ديكارت، رينه، (مقال عن المنهج: لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم)، ترجمة: محمود محمد الخضيري، المكتب المصري للطباعة والنشر، القاهرة، 1930.
- الدينوري، ابن قتيبة، (الشعر والشعراء)، ج1، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ.
- ديوان امرئ القيس، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- روث فوداك، ميشيل ماير، (مناهج التحليل النقدي للخطاب)، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل، مراجعة: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.
- رولان بارت، (درس السيميولوجيا)، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 3، 1993.
- رومي بور، علي، وغيره، (الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهرة صفار زاده)، آداب الكوفة، مجلد 10، العدد: 37، 2018.
- ريابوف، (الفن والإديولوجيا)، ترجمة: خلف الجراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، ط1، 1984.
- زكي، رمزي، (المشكلة السكانية، وخرافة المالتوسية الجديدة)، عالم المعرفة، الكويت، ديسمبر 1984.
- الزمخشري، عمر بن أحمد، (أساس البلاغة)، تحرير محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ج1، بيروت، ط1، 1998.
- الزواوي، بعورة، (مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو)، 2000.

- زيمرمان، مايكل، (الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية)، ترجمة: معين شفيق رومية، عالم المعارف، ج2/1، الكويت، 2006.
- ستيفن، روز، وآخرون، (علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية)، ترجمة: د مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد 148، 1990.
- سحالية، عبد الكريم، (الخطاب بين الدرس اللغوي العربي القديم واللسانيات)، مجلة حوليات التراث- العدد 09، الجزائر، 2009.
- سعد أبو الليل، أمال، (العدل والظلم في المسرح، دراسة نقدية بيئية)، Environmental Justice Injustice in Marie Clements's Burning Vision: An Eco-Critical Study، فيولوجي سلسة في الدراسات الأدبية واللغوية، العدد 74، جامعة عين شمس، 2020.
- سلامة، عبد الحميد، (قضايا الماء عند العرب قديمًا)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2004.
- سلسلة محاورات أفلاطون في السفسطائيين والتربية (محاور بروتاجوراس)، ترجمة: د. عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.
- السلطاني، إيمان مطر، (نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، 2019.
- سيلدرن، رامان، (النظرية الأدبية المعاصرة)، ترجمة: جابر عصفور، عرض: محمد بريري، مقال في مجلة فصول، العدد1، 1991.
- السيوفي، مصطفى، وغيطاس، منى، (النقد الأدبي الحديث)، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، ط 1:2010-2011.
- شيفرد، ليندا جين، (أنوثة العلم، العلم من منظور الفلسفة النسوية)، ترجمة د. يمنى الخولي، سلسلة عالم المعرفة، (306)، الكويت، 2004.
- ضياء الرحمن، محمد، (مقاومة بيئية في شعر محمود درويش)، مجلة الدبيل، مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، مجلد 1، العدد1، 2016.
- ضيف، شوقي، (تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ط 22، د.ت.
- عباس، إحسان، (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4، 1983.

- عبد الرحمن عبد الحميد علي، (النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد)، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2005م.
- عبد السلام، عبد الرحمن، (وعي الشعر، دراسات محكمة في التأسيس والتطبيق. أبو تمام، محمود درويش، أدونيس)، دار النشر للثقافة والعلوم، ط1، 2020.
- عبد المطلب، محمد، (ذاكرة النقد الأدبي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2008.
- العبيدي، عبد الحميد، (محاولة في فهم تقاطعات الخطاب البيئي مع مسار نقد الحداثة)، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مجلد 8، العدد31، 2020.
- العربي، ربيعة، (الخطاب المحددات وآليات الاشتغال)، دار أمجد للنشر والتوزيع،2017.
- العروي، عبد الله، (مفهوم الأيديولوجيا – الأدلوجة)، المركز الثقافي العربي ودار الفارابي، المغرب وبيروت، ط1، 1980.
- عز الدين، حسن البنا، (الشعرية والثقافة.. مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003.
- العسكري، أبي هلال الحسن بن عبد الله، (كتاب الصناعتين)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط2، 1952.
- العشيري، محمود، (شعرية القصيدة في المبادئ المحايثة للنص الشعري، دراسة في سقط الزند)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2017.
- عطية، ممدوح حامد، (إنّهم يقتلون البيئة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
- القاسمي، علي، (علم المصطلح.. أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية)، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 2008.
- علي، إبراهيم، (المجال الأدبي والمجال الأيديولوجي)، مقال، دفاتر المركز، منشورات (crasc) جامعة وهران، رقم 7-2004.
- العوضي، بدرية عبد الله، (القوانين البيئيّة في دول مجلس التعاون الخليجي)، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، 1996.
- عياد، شكري، (أرسطو طاليس في الشعر)، دار الكتاب العربي، القاهرة،1967.

- عيلان، عمرو، (الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في رواية عبد الحميد بن هدوقة)، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001.
- الغذامي، عبد الله، (الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998.
- الغذامي، عبد الله، (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001.
- الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة، (ديوان شعر)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- فضل، صلاح، (مناهج النقد المعاصر)، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط 1، 2002.
- فلوجل، جون كارل، (الإنسان والأخلاق والمجتمع)، ترجمة: عثمان نويه، دار الفكر العربي، د.ت.
- القرطاجني، حازم، (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، عن دار الغرب الإسلامي - تونس، ط3، 1986.
- القلماوى، سهير، (فن الأدب)، المحاكاة، مكتبة الحلبي، القاهرة، 1953.
- قناوي، عبد العظيم، (الوصف في الشعر العربي)، مكتبة مصطفى الحلبي، 1929م.
- كانط، إيمانيويل، (ما الأنوار؟)، ترجمة: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2005.
- كاهن، شلوم ج، (ماذا نصنع بالتحليل؟ في ظاهرة الاقتراب من الأدب)، ضمن مجلة (في الفلسفة والبحث في الظواهر الطبيعية)، جامعة بورفالو، المجلد 8، سبتمبر 1952-يونية1953.
- كراتشوفسكي، إغناطيوس بوليانوفتش، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج1، القاهرة، 1957.
- كفافي، محمد عبد السلام، (في الأدب المقارن)، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.
- كولر، جونافان، رولاند بارت، (مقدمة قصيرة جدًا)، ترجمة: سامح سمير فرج، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2016.
- كوهن، مايكل، (اللامعة حزن الأخضر.. النقد البيئي تحت منظار النقد التي تتعامل مع هذه الأسئلة). دورية: التاريخ البيئي Environmental History" (كانون الثاني 2004).
- لفجوي، آرثر، (سلسلة الوجود الكبرى)، ترجمة: د. ماجد فخري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1964.

- الماضي، شكري عزيز، (في نظرية الأدب)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، د.ت.
- مانهايم، كارل، (الأيديولوجيا واليوتوبيا، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: د محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، ط1، 1980.
- مجدي، وهبة، (معجم مصطلحات الأدب)، مكتبة لبنان، بيروت، 1974.
- مجموعة من المؤلفين، (النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، ترجمة: نجاح الجبيلي، شهريار، البصرة، ط1، 2021.
- مجموعة من المؤلفين، (النقد البيئي)، عدد مجلة فصول رقم 102، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد 2/ 26، شتاء 2018.
- مجموعة من المؤلفين، (نص الرحلة) مجلة سرود، مجلة النقد الأدبي، ثقافة نص الرحلة، العدد 2، المغرب، ربيع 2019.
- مجموعة من المؤلفين، مجلة النقد الأدبي فصول، المجلد (26/2) العدد 102، 2018.
- محمد أبو الفضل بدران، (أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية)، إصدار المؤتمر الدولي الرابع، المجلس الدولي للغة العربية، بيروت-دبي، 2015.
- محمد، زكي نجيب، (في مفترق الطرق) دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط2، 1993.
- محمد، هناء، (جماليات المكان في الشعر الاتجاه الرومانسي: دراس في النقد البيئي)، مجلة السرديات، الجمعية المصرية للدراسات السردية، العدد 30، 2018.
- محمود، عبد الرحمن عبد السلام، (الغواية الأولى، بكارة المعنى على الخاطر، أزمة النقد الأدبي -أبو تمام الطائي-أبو الطيب المتنبي)، مكتبة الأدب، القاهرة، ط1، 2019.
- مخلوف، حفيظة، (البعد الإيديولوجي في نقد الرواية الجزائري9ة، رسالة لنيل الماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009-2010.
- المرزوقي، (شرح المقدمة الأدبية على ديوان الحماسة لأبي تمام)، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج، د.ت.
- المرسومي، علي صليبي مجيد، (الشاعر العربي الحديث ناقدًا: نقد الفكر، النقد الثقافي، النقد الجمالي)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2016.
- مسعود، رشيد، (ملاحظات حول الفهم الفلسفي لإليديولوجيا)، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، بيروت، العدد 15، 1980.

- مشبال، محمد، (أسرار النقد الأدبي، مقالات في النقد والتواصل)، مكتبة سلمى الثقافية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2002.
- مصدق، حسن، (يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2005.
- مصطفى، محمد سليم، (انسجام الخطاب ونقوص إعادة الهيمنة جدل الذات والنسق في الرواية الكويتية (1993-2015) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية،2016.
- مطلوب، أحمد، (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها)، الدار العربية للموسوعات، ج1، ط1، 2006.
- معالي، حنين، (الرواية بين الأيديولوجيا والفن.. الرواية الأردنية أنموذجًا)، عمان، ط1، 2020.
- المعري، أبو العلاء، (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري.. معجز أحمد)، تحقيق: عبد المجيد، دار المعرفة، مصر، ط2، 1992.
- مكسح، دليلة، (البيئة في الشعر الجزائري المعاصر)، 2014-2015.
- الملجي، علوي أحمد، (النص بين النقد الثقافي وسيميائيات الثقافة.. المفهوم وآليات المقاربة)، دورية ذخائر للعلوم الإنسانية، عدد 2، 2017.
- المناصرة، عز الدين، (النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي)، وزارة الثقافة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2005.
- منصورية، فتحي، (النقد الأدبي المعاصر وأركيلوجيا التحول: ما بعد النسق: هيرمينوطيقا ما وراء المنهج) مجلة النقد الأدبي فصول، المجلد (26/2) العدد 102، 2018.
- المنيف، إبراهيم، (تطور الفكر الإداري المعاصر) مجلة المدير، الرياض، ط3، 2017.
- موسوعة ستانفورد للفلسفة، الفلسفة النسوية، ترجمة: م ر شف بك أ ر شف، مراجعة: محمد الرشودي.
- ناصر، ديما، (العودة إلى النقد البيئي: من الأدب البيئي إلى السياسة البيئية)، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، المجلد40، مصر، 2012.
- نتشيه، فريدريك، (أفول الأصنام)، ترجمة: حسان بورقية، محمد الناجي، أفريقيا الشرق، ط1، 1996.

- نسيم، وجدي خيري، (أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة.. قراءة فلسفية)، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مجلد17، عدد 63، عمان، 2019.
- النشار، مصطفى، (النسوية الإيكولوجية، مسعىً نقديٌ لتظهير مبانيها ومعاثرها)، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الإستيراتيجية، بيروت، السنة الرابعة، عدد 16، 2019.
- النوى، وليد، (مظاهر التفاعل الإبستيمولوجي والإيكولوجيا في بلورة مصطلحات النقد العربي القديم، عثماني، الفحولة عند الأصمعي أنموذجًا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، عدد 7، 2014.
- هوركهايمر، ماكس، وأدورنو، ثيودور، (جدل التنوير)، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006.
- وثيقة توقيعات البيئة العالمية (GEO4) البيئة من أجل التنمية، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، 2017.
- وليك، رنيه، ووارن، آوستن، (نظرية الأدب)، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ للنشر، السعودية، 1992.
- يتر بروكر، (الحداثة وما بعد الحداثة)، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1995.
- يقطين، سعيد، (تحليل الخطاب الروائي)، المركز الثقافي العربي، 1988.
- ينظر ك نلوولف وآخرون، (موسوعة كمبدريدج في النقد الأدبي القرن العشرين المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية)، ترجمة: إسماعيل عبد الغني وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة ج 9، ط1، 2005.
- يوسف وغليسي، (في ظلال النصوص.. تأملات نقدية في كتابات جزائرية)، الجزائر، ط1، 2009.

المراجع باللغة الإنجليزية:

- Ariane Debourdeau, «Aux origines de la pensée écologique: Ernst Haeckel, du naturalisme à la philosophie de l'oikos, » Revue française d'histoire des idées politiques, no. 44 (2016).

- Association for the Study of Literature and Environment Peter Singer, Practical Ethics, Cambridge, Cambridge University Press, 1999.
- Atashi, L., "An Ecocritical Reading of Melville,s "Bartleby the Scrivener" , International Letters of Social and Humanistic Science, Vol. 73, 2016.
- B. Lopez, Crossing Open Grounds, New York, Vintage Books, 1989 [1988].
- Blöbaum, Anke, and Marcel Hunecke. (Perceived danger in urban public space: The impacts of physical features and personal factors, Environment and Behavior 37.4 (2005).
- Buell, L.. The environmental imagination: Thoreau, nature writing, and the formation of American culture. Harvard University press, (1995).
- Buell, L., Heise, U. K. and Thornber, K., "Literature and Environment", Annual Review of Environment and Resources, Issue 36, 2011.
- Buell, Lawrence. 1998. Toxic Discourse. Critical Inquiry 24(3).
- Carlson, Allen. "Environmental aesthetics." The Routledge companion to aesthetics. Routledge, 2005.
- Carroll, Joseph. "A rationale for evolutionary studies of literature." Scientific Study of Literature 3.1 (2013).
- Carroll, Joseph. "Literary study and evolutionary theory." Human Nature 9.3 (1998).
- Carroll, Joseph. "Minds and Meaning in Fictional Narratives: An Evolutionary Perspective Joseph Carroll University of Missouri—St. Louis." (2017).
- Cheryll Glotfelty (Editor), Harold Fromm (Editor), Michael P Branch (Contributions by) Ecocriticism Reader; Landmarks in Literary Ecology, University of Georgia Press, 1996.
- Donald Worster, «History as Natural History: An Essay on Theory and Method, » Pacific Historical Review, vol. 53.no. 1 (February 1984).

- Garrard, Greg. 'Towards an Unprecedented Ecocritical Pedagogy', in Teaching Literature: Text and Dialogue in the English Classroom, ed. B. Knights, 2017.
- Heddon, Deirdre, and Sally Mackey. "Environmentalism, performance and applications: uncertainties and emancipations." Research in Drama Education: The Journal of Applied Theatre and Performance 17.2 (2012).
- Herrick, Charles N. "Objectivity versus narrative coherence: science, environmental policy, and the US Data Quality Act." Environmental Science & Policy 7.5 (2004).
- Huggan, Graham, and Helen Tiffin. Postcolonial ecocriticism: Literature, animals, environment. Routledge, 2015.
- International World History Project".28-May-2022
- J. W. Gough, The Social Contract (Oxford: Clarendon Press, 1936), Modern revivals of social contract theories have not been as concerned with the origin of the state.
- Jean-Paul Sartre, Qu'est-ce que la littérature? (Gallimard, 1948).
- Jean-Paul Sartre, Situation, V, Colonialisme et néo-colonialisme, Paris, Gallimard, 1964
- Karen J. Warren , Jim Cheney,(Ecological Feminism and Ecosystem Ecology), Published online by Cambridge University Press: 11 March 2020.
- Karl Kroeber: Ecological Literary Criticism, Romantic Imagining and the Biology of Mind, 185 pages, paperback, Columbia University Press, 1994.
- L. BUELL, The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture, Cambridge, The Belknap Press of Harvard University Press, 1995.
- Lillian C.Woo, Ecomimesis: A Model for Sustainable Design, IAFOR Journal of Sustainability, Energy & the Environment: Volume 3 – Issue 1, April 24, 2017

- Lopez, Barry (1998), “We are shaped by the Sound of Wind, the Slant of the Sunlight” High Country News 30:17(14 September 1998).
- Marocism and Literary. University of California press. 1976.
- McAfee, Noëlle, "Feminist Philosophy", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Fall 2018 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL =
- Modern revivals of social contract theories have not been as concerned with the origin of the state.
- Najera, Marina. Nature as Feminine: An Eco-Feminist Reading of Selected Latin American Narrative. University of California, Riverside, 2018.
- Oshry, Barry (2008), Seeing Systems: Unlocking the Mysteries of Organizational Life, Berrett-Koehler
- Paul W. Taylor, Respect for Nature: A Theory of Environmental Ethics, Princeton, Princeton University Press, 2011
- Peter H. Feindt, Discourse analysis of environmental policy revisited: traditions, trends, perspectives, Sina Leipold, Georg Winkel & Reiner Keller, Published online: 10 Sep 2019.
- R.L. Bryant (Political Ecolgoy: An Emerging Research Agenda in the Third World Studies), Political Geography, Vol.11, 1992.
- Scherr, Amanda. "Feminine Essentialism and Compulsory Maternity in the Works of Mary Wollstonecraft.
- Scholars Embark on Study of Literature About the Environment By Karen J. Winkler The Chronicle of Higher Education 9 August 1996: A8+
- Shulamith Firestone,) The Dialectic of Sex, Publisher William Morrow and Company) , 1970.
- Spolsky, Ellen. "Darwin and Derrida: Cognitive literary theory as a species of post-structuralism." Poetics Today 23.1 (2002).

- Stephen Gill, William Wordsworth: A Life, Oxford University Press, 1989.
- Terry Eagleton, Literary Theory: An Introduction Blackwell Pulishing Oxford London 2008.
- Travis V. Mason, Lisa Szabo-Jones, (Introduction to Postcolonial Ecocriticism Among Settler-Colonial Nations), a review of international English literature Vol. 44 No. Copyright © 2014 The Johns Hopkins University Press and the University of Calgary.
- VIGNOLA, Gabriel,) Écocritique, écosémiotique et représentation du monde en littérature), Cygne noir, no 5, 2017.
- Warren, K.J. and J. Cheney, 1991, "Ecological Feminism and Ecosystem Ecology", Hypatia, 6(1): 179–197 ,Wilson, H., 1997, "Kant and Ecofeminism" in Warren 1997.
- Warren, K.J. and J. Cheney, 1991, "Ecological Feminism and Ecosystem Ecology", Hypatia, 6(1).
- Wilson, H., 1997, "Kant and Ecofeminism" in Warren 1997: 390–411, ecology (Warren 1987, 2000; Warren and Jim Cheney 1991).
- Zunshine, Lisa. "Introduction to cognitive literary studies." The Oxford haearth:of cognitive literary studies (2015).

مراجع شبكة الإنترنت:

- موقع لكل رسم معنى، معجمي الصحاح ولسان العرب قاموس ومعجم المعاني متعدد اللغات والمجالات - قاموس عربي عربي وقاموس عربي انجليزي ثنائي almaany.com
- Https://plato.stanford.edu/archives/fall2018/entries/feminist-philosophy
- https://ssrn.com/abstract=1955082
- https://cutt.us/MMbUk. Difference Between Environment and Ecology,2009
- https://doi.org/10.1163/9789401204781_002
- https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A8%D9%88%D8%A3/?page=1

- https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/1523908X.2019.1660462